

كلمة من الناسخ

الحمد لله العلي العظيم الأول الأخير الباقي القديم والصلاة والسلام علي نبيه الكريم وعلي آله وأصحابه خيرة الأنيم {أما بعد} فلما كانت حياة الشيخ الخديم ذي الكرامات والخوارق والخلق العظيم أعز وأجمل وأبرك وأكمل وأفيد وأفخم وأثمن وأعظم من أن تترك ولم تخلد في القراطيس إلي منتهى الأبد ولم يوجد من تلامذته ولا من بنيه من ترشح لتخليدها ولا من ذويه مع أن من تلامذته من ألفوا في بعض خوارقه ومناقبه {كالشيخ محمد الأمين جوب الدكني} الحديد الذهن الثاقب¹² و{كالشيخ مختار بنت لوخ} الذي في العلم والدين والصلاح يتلوه بيد أنه لم يؤلف في حياته ومقاماته وسيرته ومناقبه ومقالاته ولم تشرح أشعاره ولم تؤثر آثاره حتى كادت حياة {الشيخ الخديم} أن تكون نسيا منسيا بعد ما كانت حديثا مرضيا شهيا تتعاطاه الركبان في المفاوز القفار ويتسلى به المحزون وتتسامر به السمار

*

[1]

فلما طال الدهر في ذلك ولم يوجد من ينقب¹³ عن ما هنالك راودت الفتوة¹⁴ ابنه العلم الشهير الشيخ محمد البشير الفقيه الصوفي العالم العلامة المدقق المحقق الدراكة الفهامة وارث مدد شيخه وخزينة أسراره ومجمع جناب حضرته ومعدن أنواره عن تأليف يؤلفه

¹² الثاقب الذهن: أي الحاذق

¹³ ينقب: أي من يبحث عنها ويخبر بها

¹⁴ الفتوة: أي المروءة

في سيرة والده وحياته وشرح بعض أشعاره وأحواله ومقاماته فأجابها بديهة¹⁵ بنعم صدقتِ وعلي الخبير سقطتِ وأعطيتِ القوس باريها وأسكنتِ الدار بانيها وشرع في الحال يؤلف ويكتب عنه أمثالا لما طلبته منه فنفت فيه نفثة مصدور امتلأت أرجاء قلبه من العلم اللدني والنور وعبر بسُفن عباراته إلي مَعين معاني إشاراته فغنص شواردها ونظم قلائدها وأبرز دقائقها وأحرز حقائقها وجاء فيها وذهب وأبدع وأغرب وتلاطمت أمواج فكرته فلفظ الدرر والياقوت من وقته فكان كتابا {بغية الطلاب ونزهة الأصحاب والأحباب} قرة عين الصديق الودود وقذاة في عين المكابر الحسود مفرغا في قالب الإيجاز والإحكام مع التزام إتمام المعاني والكلام وإيراد المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة فشنف¹⁶ به [2] الأذان ومتع الأذهان وأحيا به حياة الشيخ الكبير ولولاه لم يعرف منها نكير ولا قطمير ولقد صدق والله ابن المعلى إذ يقول فيه

*

وسمي الشيخ المؤلف كتابه هذا {منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم} وحق له أن يكتب بماء الذهب وتنافس في تحصيله العجم والعرب فجزاه الله عن والده وشيخه وعن الإسلام والمسلمين أحسن جزاء يرضاه وأطال بقاءه وأدام عزه وارثاه آمين يا رب العالمين
لخصه وكتبه بقلمه الراجي من ربه غفران ذنوبه وستر عيوبه بفضله وكرمه {محمد بن الشيخ محمد يحطية

¹⁵ بديهة: أي من غير تفكير
¹⁶ شنف بتشديد العين: أي زين

بن العباس المالكي نسبا ومذهبا { يوم الاثنين الثالث
بعد العشرين من شوال عام ألف وثلاثمائة وخمسة
وثمانين 1385 هجرية علي صاحبها أفضل الصلاة وأزكى
التحية

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام علي
المرسلين والحمد لله رب العالمين [3]

**{منن الباقي القديم في سيرة الشيخ
القديم
{لعلامة عصره وواحد دهره قدوة الخلف
وبقية السلف}
{الشيخ محمد البشير بن الشيخ الخديم
الشهير} [4]**

قال مؤلفه

هذا الكتاب المبارك سميته {منن الباقي القديم في
سيرة الشيخ الخديم} ورتبته هذا الترتيب {مقدمة}
في وفور عقل شيخنا رضي الله عنه تتضمن نشأته وما
جبل عليه صبيا وحياءه وشجاعته وورعه وسماحته ثم
{مبحث} في علم التصوف ثم {شرح مقامات
اليقين} ثم {تسعة أبواب} مرتبة علي مقامات اليقين
التسع لأنه لا يمكن شرح أحواله إلا بذكر المقامات
وأحوالها لأنه لم يعيش إلا عليها ولم يعمل إلا بها
فشرحت ما أكتب عنه فيها بعد تمهيد قليل للمقامات
والأحوال كما اصطلح عليه القوم واخترت ترتيب {أبي
طالب المكي} في {القوت} لكون كتابه أم الفن
وأول ما شرح به التصوف علي الإطناب واعتماد
الناس عليه {كالغزالي} وأمثاله فقد قال فيه {أبو
الحسن الشاذلي} رضي الله عنه قوت القلوب يورث
النور و{إحياء علوم الدين} يورث العلم {الباب [5]}

{الأول} في توبته و{الثاني} في صبره و{الثالث} في شكره و{الرابع} في رجائه و{الخامس} في خوفه و{السادس} في زهده و{السابع} في توكله و{الثامن} و{التاسع} في رضاه ومحبته وفي بعض الأبواب فصول وحكايات ثم {خاتمة} في شهادة الأكابر والأعيان من العلماء والأولياء والمشايخ وأما كراماته الخارقة من إبراء الأسقام وشفاء الأمراض وصرف الأمور وقضاء الحاجات والكاشفات بما خفي من الأمور فلم أفرد لها بابا لأنها لا تقع تحت حصر وإنما أتحف المطالع بطرف منها في هذا الكتاب تبركا بذكره ومن أراد استيفاء بعضها فعليه بكتب بعض أصحابنا {كالشيخ محمد الأمين جوب الدكني} و{الشيخ مختار بنت لوح} فإن استيفاءها كلا لا تفي به المزابر ولو كانت لها البحور محابر [6]

{مقدمة}

{في وفور عقل شيخنا رضي الله عنه}

العقل نور رباني شريف وهو غريزي ويزداد بكثرة الاستعمال وكثرة التجربة فيسمى عقلا مكتسبا وقد يتوفر الغريزي في بعض الناس وهو صغير بجودة القريحة وسرعة الفهم والذكاء كما وقع لابن الزبير حين مر به عمر بن الخطاب ومعه صبيان يلعبون فهربوا منه إلا عبد الله فأمسكه عمر وقال له لم لا تهرب مع أصحابك؟ فقال له يا أمير المؤمنين لم أكن علي ريبة فأخافك ولم يكن الطريق ضيقا فأوسيع لك انظر هذا الجواب الجيد البليغ كيف يصدر عن من لم يجاوز سن اللعب في الطرق قال الله تعالى {وما يعقلها إلا العالمون} وقال {آيات لقوم يعقلون} وقال

{أم لهم قلوب يعقلون بها} وفي الحديث أنه صلي الله عليه وسلم قال لعلي {ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل} وفيه أنه قال له صلي الله عليه وسلم {إذا تقرب الناس إلي الله بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك} وفيه {يا أبا الدرداء ازدد عقلا تزدد من ربك قربا قلت بأبي أنت وأمي من لي بالعقل قال اجتنب المحارم وأد فرائض الله تكن عاقلا ثم تنقل بصالحات [7] الأعمال تزدد من الدنيا عقلا ومن ربك قربا وبه عزا} وقيل العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه وذلك لأن العلوم العقلية إما أن تكون دينية أو دنيوية وقوة العقل لا تفي بالأمرين فلا بد من ترجيح أحدهما والإقبال إليه والعاقل من يميز بين الفاضل والمفضول ويرغب دائما في الأفضل {والآخرة خير وأبقي} فالعاقل إذا من أثر الآخرة علي الأولى وغالبا يكون بقدر كياسته في اقتناص مطلوبه أبله في الضد ولذا قال في الحديث {إن أكثر أهل الجنة البله} أي في أمور الدنيا كما فسره به {الغزالي} في {الإحياء} فالذي أثر الباقي علي الفاني وينشط في اقتناصه وجمع آلاته ويضعف سفيها وبلها في الحركة لاكتساب الفاني فهو العاقل عند علماء الآخرة وبذلك تعرف وفور عقل {شيخنا رضي الله عنه} لزهده في الدنيا واستهانته بها في صغره وكبره واستخفافه بمصائبها وبلاياها فشيخنا رضي الله عنه منذ ميز يمينا من شمال لم تقع منه هَفْوَةٌ ولا ظلم لأحد حتى والده ووالدته بلغني أنه كان دائما منعزلا مطرقا لا يشتكي ولا يتكلف وكل ما أرشد إليه وجعل فيه يكون ماضيا فيه لا يُنازع رئيسه.

وكانت الوالدة {جارية الله مريم} سالحة عفيفة [8] دينة كثيرة الصلاة والصوم والصدقة مستسلمة لربها

قائمة بواجبات دينها بينها وبين ربها وفيما بينها وبين {الشيخ الإمام} قرينها وكانت تُرَبِّي أَوْلَادَهَا علي المروءة والدين والطهارة وكثيرا ما تحكي عليهم حكايات الصالحين وكان {شيخنا} من ذكائه العجيب وفطرته السليمة يُصغي لتلك الحكايات ويحفظها ويتكلف وهو لم يكمل التمييز العمل بما قدر عليه منها حتى حكي علي بعض من أثق به من الأقارب أنه حضرها يوما تقول من دأب الصالحين قيام الليل فصار من هذا الحديث كلما جن الليل يقوم وهو لم يدخل المكتب ويخرج إلي ساحة القرية منفردا يقوم الليل للتعود بعبادات الصالحين كما سمع، انظر هذه العناية من الله لشيخنا يتعود الخير وهو لم يُكَلَّفْ به كما قال البصري:

*

ولم يزل علي ذلك كلما سمع شيئا يمتدح به أهل الله يتكلفه وهو بين والديه وإخوته وفيهم من هو أكبر منه ومن هو أصغر ولم يغترب قط ولم يُؤَخِّدْ عليه شيء مما يخالف الأدب ولم يُؤَثِّرْ عنه غضب ولا خصومة ولا جدال بل مشغول بما يعنيه أو يختلي للعبادة. وحكت حاضنته أنه لم يكن يعتريه شيء مما يعتري الصبيان من البكاء والتلهي ولو بلغ الحد من الجوع [9] وكان وهو رضيع إلي أن ميز لا يُمر به في مواضع العصيان واجتماعات اللهو إلا وينتفض وينفعل انفعالا شديدا يُخاف عليه منه حتى يُرجع به عن تلك الطرق إلي غيرها إلي أن صار ذلك معروفا. وكانت تحكي أنه بعد الفطام كان يتجنب الاضطجاع علي فراش والدته ويكون ما لم يُجبر عليه عاكفا حول المصلى في البيت حتى داخلهم شك في إنسانيته لهذه

المخالفة الغير المألوفة إلي أن ترعرع قليلا وأدخِل في
المكتب أقبل علي القراءة بهمة جامعة لا يفارق لوجه
ولا يماري الغلمان فتفطنوا للفارق بين عقل الرشيد
وعقل السفهيه في المجانبه والمخالفة فأدركوا أن
السفيه يظهر ضعفه في طلب الخير والهرب عن الشر
ويلتبس عليه أحدهما من الآخر ولا يخطر بباله التمييز
بين شر الشرين وخير الخيرين ووجدوا هذا الناشئ لا
يتردد في سلوك سبيل الخير ولا يُدرك جَدُّه واجتهاده
فيه ولا يحوم حول الشر فعلموا أن من السفاهة حلما
ومن البَلادة¹⁷ ذكاءً ومن البله¹⁸ عقلا فتبدل تشاؤمهم
تفاؤلا وابتدأ والده النبيل يُسارقه النظر من طرف
خفي بين إخوته الصالحين تارة يرسله لعمه الكبير
{بِكَّةُ نُمْبِ} خال والدته استرعاء وتارة لخاله {محمد
بُسُّ} خليله العزيز وكان شيخا جليلا وعالما متفنا نبلا
طاهر القلب طيِّبَ الأخلاق مرضي الشيم إلي أن يَفِغَ
فانتزع [10] نفسه إلي والده الأعزُّ فازدادت نجابته
ظهورا كل هذا مما يدل علي كمال عقله صبيا علي
الفطرة فبالعقل يتمحض التفاضل وعنه تَنْتَجُ الأفضلية.
ومن شواهد عقله القائمة بقاءه علي الفطرة الإسلامية
هكذا وشوقه الشديد إلي المعارف والعلوم جِيلَةً
وسرعة فهمه وسهولة تعلمه فإنه ما شرع في قراءة
كتاب مع أحد من أهل المدرسة جماعة كانوا أو واحدا
إلا ويعي درسه وينقلب يُفهمهم ويصلح لهم.
وبلغني أن الشيخ الإمام كان سريع التدريس وكان
يكره له معاودة التكرار بعد المرة الأولى وشيخنا
يستحيي منه ويوقره فيراجع درسه منفردا يتفهم فيفتح
الله عليه فيرجع لتفهم التلامذة إخوانه في الدرس

¹⁷ البِلادة: هو ضد الذكاء

¹⁸ البله: هو ضعف العقل وعجز الرأي

وكانت مدرستهم تلك من أكثر المدارس تلامذة وأشهرها وسمعته يقول إنه ما كان أحد في المدرسة يسايرني في الحرص علي العلم وتحصيله إلا رجل من أهل {لَبَّ} اسمه {بَلَّ مَامَ طُورَ} فإنه كان عَلِيَّ الهمة في التحصيل مثلي وإنما كنت أكثر تشددا في الورع فكان يقتدي بي فيه.

قلت في إظهار هذه المَزِيَّة نصح لنا أن في العلم نور لا بد له من ورع يحول بينه وبين غبار الشبهات لينصع شروقه ويدوم {إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا}. ومن شواهد عقله عمله بمقتضى الحكمة طفلا [11] ويافعا إلي هلم جرا في العبادات والمعلملات يقرب له ذكاؤه ما بعد عَوْرُهُ ويحفظ له ذكره ما أودع في حافظته من علم وخبر صالح فلم يكذب ينسى شيئا كان ربما يتحدث بأمور وقعت له بحضورنا أو حضور جماعة غيرنا ولا يُتذكر منها شيء أو يتذكر منها قليل ولا يترك هو شيئا مما كان جليلا أو دقيقا إلا ويتذكره وكذلك حفظه للعلم ما حفظ كتابا ونسيه.

كنت معه ذات يوم وبيننا كتاب {نظم التسهيل لابن بُون} بطرره وشواهدة فقال كنت أحفظ هذا الكتاب زمن قراءتي له بشواهدة عن ظهر قلب وكنت في هذه الأيام أتفقد حفظي له هل نسيت منه شيئا أم لا فجلست أستظهره فإذا هو كما كان وكان نادرا من يحفظه من أهل المدارس كذلك هذا مع ما هو فيه في هذا الزمن الذي أقول من الاشتغال في الطاعة والكتابة والتأليف وهداية الخلق وسياستهم وتدبير أمورهم وتفقد أحوال الضيوف الكثيرة بما تعجز عن بعضه الملوك العظام ولكن من كان لله كان الله له فني عن كليته وبقي بربه فخلفه في نفسه وأعماله وأحواله وحفظه وحفظ له لا غفلة ولا نسيان.

وسمعت من أخي {الشيخ محمد المصطفي} ومن عمي {الشيخ مصنب} قالاً إنه أخبرهما بأنه كان يحفظ النصوص الكثيرة [12] من مختلف الفنون من توحيد وتصوف وأدعية وفقه {كابن عطاء الله} و {دلائل الخيرات} و {نفح الطيب} و {الرسالة} وكتواليف {السنوسي} وكذلك نص {المختصر} كثيرا ما يتحدث فيه ويقراً جملاً كثيرة نسقا في مواضع مختلفة عن ظهر قلب لا يتأتى إلا لمن حفظ الشيء تشهد لذلك تواليفه الممتعة مع قصر وبالجملة فهو رضي الله عنه آية في الحفظ والإتقان أما القرآن والحديث فهو وعاءهما وخزينة أسرارهما ومنبع علومهما إتقانا وتفسيرا يفيض بأنواع العلوم والغوامض علي المستمعين منهما ومن كمال عقله كثيرة وفود الخلق عليه الملوك والأمراء والعلماء والأولياء والمريدون والزائرون والضعفاء والمساكين وكثرة الصخب والضوضاء وازدحام الناس المختلفين شأننا وحاجا وزيناً بأبوابه ليلا ونهارا صيفا وشتاء وشغله الشاغل بإقامة الصلوات الخمس برواتبها أبدا في المسجد العام إماما والكتابة الدائمة في المدح والصلاة والثناء والتوحيد لله ولرسوله لا غير وكان ربما يخرج لنا منه في الشهر ما كنا نتحدث أنه لا تقوم به عشرة لا تجف أقلامهم وهو مع ذلك لا تلتبس عليه حاجة بحاجة ولا يؤخر أمرا عن وقته ولا يختلط عليه أمر من أمر ولا يترث في وعد أو عن ميعاد فإنه والحق يقال لم تصدق كلمة {أبي نواس} في أحد [13] بعد الأنبياء والصحابة مثل ما صدقت فيه رضي الله عنه

*

فأي عقل يصفو لعشر معشار هذا ولا يتكدر خاسئا وأي قلب يسعها ولا ينكمش فرقا ولكن من كان لله كان الله له فهو رضي الله عنه قطع العوائق والعلائق معتصما بربه لم يحس بمضرة الأعداء بالغة ما بلغت ولم يطيح عينا لمنفعة الأحياء كائنة ما كانت هيبه لربه وإنسا به بل فناءً عن نفسه وفنائيه فلم يبق إلا ربه وإنما بقاءه به لا بغيره وله لا لغيره فكان له السمع والبصر واليد وجعل قلبه عرشا له {ألا له الخلق والأمر} فهو أرجح الناس عقلا بتحقيقه وأمر ربه وسنة نبيه صلي الله عليه وسلم وتحققه بما وكان له صلي الله عليه وسلم إماما وحسن رفيقا والمرء مع من أحب.

وكان رضي الله عنه شجاعا لا يتهور ولا يتبذخ¹⁹ ولا يتكبر بعيدا من الهوان والذلة لا يعرف الفزع والجزع وصغر النفس.

ومن شواهد شجاعته كرمه ونجدته وكبر نفسه وحلمه واحتماله في هيبة ووقار تحتها التؤدة والصفح والعفو والتأني وكظم الغيظ وكان يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها يحمل المكاره ولا يتزعزع وتصطدم به النوائب [14] فترتد خاسئة عظيم الهمة يترشح للعظام يخترق حجب الشدائد مهما تحقق وراءها الفوز بمطلوبه يحتمل الآلام الكثيرة ويقاوم الأهوال العظيمة بحلم واطمئنان لا يظهر عليه أثر الشدة والكربة ولا يستفزه غضب إلا الله يحتمل الكد ولا يعرف للتعب معنى بل راحت الانتصار والفوز المبين ولذته في العمل الدائم قلبا وقالبا سخيا جوادا عند النعمة صبورا جلدًا عند المحنة يقتحم العقبات ولا

يبالي بنفسه وفي كل هذا متقيد بما حسنه الشرع واقتضاه ووصف به الله تعالى خيار عباده وارتضاه.

{ فصل في حياته رضي الله عنه }

كان من حياته رضي الله عنه أنه كان كثيرا ما يقف علي إنسان في داره يُفسد أو يدخل في محل بالتعدي وهو لما يفعل كاره وإذا عَرَف الشخصَ ولم يره هو يستمر أدراجه خفيا إلي أن يَخْرُج الفاعلُ ثم لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خصوصا في حقه معهم قد يَجْمَع الشخصَ مع أشخاص ثم يعرض تعريضا عاما يفهم منه المرء إن كانت له أذن ثم لا يزيد علي ذلك أما تجنبه الأعراض [15] فحدث عنه ولا حرج فإنه بلغ من تحذير الغيبة والنميمة مبلغا لا يتجاسر معه أحد في الوقوع فيها كائنا من كان حتى أن ما يقال إنه ليس من الغيبة الحرام أن تحدث صاحبك بما في شخص بينكما لا عن قصد التعيب ولا إظهار منقصة لا يقرب هو منه ولا يشافه بنحوه فالغيبة والنميمة كثيرا ما كان يعظم شأنهما ويحذر منهما في خطبه ورسائله ووصاياه.

وسمعتَه يقول إن أعراض الأنبياء والأولياء والعلماء العاملين مسمومة فالتكلم فيهم بسوء كشرب السم الناقع.

وكان حديث {المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه} وحديث {من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت} يكررها كثيرا ويذكر بهما وإن أحس من فحوى الكلام ما يشير إلي الغيبة أو النميمة يزجر ابتداء عنه

{ فصل في سماحته رضي الله عنه }

أما السماحة والسخاء والجود فجياده الصافنات
وكرائمه الصافيات لا يتعاضم عنه شيء في البذل ولا
يناجيه ضميره إلا به ينفق بسهولة ويؤثر ولو علي [16]
خاصة يهتز للمعروف ويرتاح للندى قال فيه شاعره
الخنديز²⁰ { محمد بن المعلي } من قصيدة له فيه:

*

*

فهو رضي الله عنه بلغ أقصى الغاية في السخاء ومن
سخائه أنه أعطى حرفته لوالده وهو لا يملك نقيرا ولا
فتيلا والجود بالعز فوق الجود بالكرم ولم يبخل من ثم
بشيء مما دونها علي طالب أو سائل أو زائر أو
مستحق أثر بلقمته حين لا يدخر غيرها وبقميصه حين
لا يستدفي إلا به وبجواده حين لا عدة له سواه وبكتبه
حين لا يعول إلا عليها وبزرعه حين لا دخر إلا هو لوجه
ربه وثقة بما في يده وزهدا في غيره خالف الشيطان
وهو يعده الفقر ويأمره بالفحشاء ووافق الله والله
يعدده مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم فأعاده تعالي
منه وزحج الفقر والفحشاء عنه وصدقته ووعدده
مغفرة عزما وفضلا واسعا أهدي حرفته لوالده فحشر
الله إليه الحرف والمحترفين يعملون له بما يشاء من
محاريب ومساجد [17] وأدوات وآلات كل لما يسرُّه
طالب.

ومن سماحته وجوده وبره وعظم همته تَعَرَّفُهُ بجميع
من يُنسَب للولاية أو يُعَرَّف بالعلم وَوُضِّلَتْهُ بهم
وإحسانه إليهم وبذله لهم الأموال الطائلة التي ما
زالت تأتيه من الجهات بكثرة وهو فيها أزهد من
الْحُجَّاج في تَبَالَة²¹ ولا يدخرها ولا يقتنيها رضي الله عنه
وأرضاه عنا آمين

{ فصل في ورعه رضي الله تعالى عنه }

فمن ورعه رضي الله عنه خروجه من كل ما هو
مُشَاع²² بينه وبين أحد لذلك الشفيع عن سخاوة نفس
استغناء بالله وتوكلا عليه.
منه تركه لأخيه الأكبر ولخاله جميع العبيد والإماء الذين
له فيهم شركة.
ومنه تورعه عن السكني والحرث في تلك الأرض
المشتركة من لدن الجد {محمد الكبير} واتخاذ دياره
المباركة في موات من الأرض لم تسكن فيما علمنا
للعبادة وحدها ولوازمها.
ومن ورعه ما حكاه علي أحد تلامذته الكبار {مَخْرَجَةٌ}
أنه كان يقول لهم وَمَخْرَجَةٌ رئيس الخدمة حينئذ شيء
الغير لا تقربوه ويكرره عليهم [18].
ومنه أني رأيت ذات يوم أتاه رقيق لأحد التلامذة بغير
إذن الغير وكان مع التلامذة أياما في الخدمة ثم أعلم
بأمره وكان لسيدته إخوة شركاء في العبد فقال شيخنا
للمريدين مروه أن يرجع إلي سادته ولا تقبلوا بعد هذا
أحدا ممن هو علي هذه الصفة وانظروا أيامه هنا
واعطوا قيمتها لأهله وكثيرا ما كان يفعل ذلك ويشدد

²¹ تبالَة: موضع في عسير جنوب شرقي مكة. كان فيها صنم اسمه (ذو الخلصة) من الحجر الأبيض، حطمه النبي.

²² المشاع بفتح الميم وضمه: المُشْتَرِكُ غير المقسوم

علي أهل الجماعات من تلامذته في مثل هذا ويذكرني هذا مراعاته الباطنة ومراقباته وأعطيك منه مثالا واحدا تقيس عليه ما سواه وهو أنه ما كان يقبل في وقت أداء الفرائض ووجوبها أن يعمل له شيء إلا بعد الأداء وسقوط الواجب فقد كانت التلامذة إذا كانوا في خدمة متى أقيمت الصلاة لا يحرك أحد شيئا إلا بعد الصلاة وإذا لم يعلم ضيف أو وارد عليه عادته في ذلك وعمل شيئا ساعة وجوب الأداء والتمكن منه ينقضه بعدُ ويُعاد بعد الأداء وإذا كان في نهار رمضان أيضا فكذلك من لم يصم لا يقبل أن يستعمله في شيء وسيأتيك عند التكلم في المقامات ما ينبئك عن بعض وجهته إن شاء الله تعالى والله ولي التوفيق وهو الهادي بمنه إلي سواء الطريق [19].

{ مبحث في فن التصوف }

علم التصوف أحد قسمي علم الشريعة تميزا له عن علم الفتيا والقضاء والأحكام الظاهرة في العادات والمعاملات لأنه حدث بعد تدوين العلوم في الملة الإسلامية وكان علم الدين شيئا واحدا في عصر النبي والصحابة بعده وهو علم التوحيد ومعرفة الوجه في طاعة الله تعالى ورسوله صلي الله عليه وسلم وكيفية القيام بلوازمه ومقتضاه من عكوف علي العبادة وإخلاص ومجاهدة بالنفس والمال في سبيله تعالى وزهد وورع وهي الفقه في الدين فكان أفقهم في الدين أكثرهم عبادة وأكثرهم تحريا لحكم الله في كل أمر وأكثرهم توقفا في الأمور حتى يعلم حكم الله فيها وأوسعهم رياسة أسرعهم رجوعا إلي الحق مهما ظهر وأثراهم أسخاهم ببذله في سبيل مرضات ربه

وأوفرهم نعمة أقلهم تكلفا في الملاذ وأبعدهم عن السرف فيها وهكذا في سائر الأخلاق الكريمة والأعمال المجيدة وصفا [20] عاما للمسلمين في ذلك العصر الجيد ولما كثرت الفتوحات واتسعت الممالك وتفرقت الصحابة ومن اتصف بصفاتهم من التابعين وكثرت **الدغلاء**²³ في الإسلام وكثر المفسدون وتباعدت العلماء قامت كل طائفة بما هو أكثر اختصاصا وأوفر منه بضاعة من أركان الدين قسمة إلهية في الأزل وخصوصية رحمانية لهم وقد خلق الله الطبائع والغرائز مختلفات في الميل والصغو واختلافهم رحمة فاخص بعض منهم بعلم الفتيا والأحكام وبعض منهم بالرواية وتصحيح الأسانيد وأثرت طائفة العزلة والخلوة للعبادة والتقشف والعكوف ببابه تعالي بالمراقبة ومحاسبة النفس علي كل التفات إلي غيره فرارا منهم بدينهم ولما دونت العلوم في القرن الثاني في الدولة الإسلامية وكتب العلماء في الأحكام والحلال والحرام واختص أهل هذا النوع من العلم باسم الفقهاء بعد أن كان الفقه شاملا للنوعين وقام بعض رجال القسم الثاني وكتبوا في المحاسبة والمراقبة والزهد والإقتداء في الأحوال والتدقيق في الورع والمجاهدة [21] واكتساب الأخلاق النبوية القرآنية خصوصا باسم الصوفية وعلمهم بعلم التصوف وهو قيل إنه مشتق من الصوف²⁴ أو من الصفاء أو الصفة²⁵ وقال {القشيري} إنه لم يظهر له اشتقاق وابن خلدون لم يستبعد كونه من الصوف لتخصصهم بلبسه زهدا وتقشفا في أول أمرهم وهو غير بعيد وبه تعلم أنهما نوعان تحت جنس واحد وقسمان من أصل واحد لا فرق بينهما إلا بما زاد

به هؤلاء من التدقيق في التخلق والتحقق بالأحوال
ومحاسبة النفس ومراقبة القلب وجمع الهمة علي الله
بلا تشتيت ولا شغل مع الخلق أو تدبير عملا منهم
بتقديم وقاية النفس وبالوصاية عليها في قوله تعالى
{عليكم أنفسكم} وقوله عليه السلام {من حسن
إسلام المرء تركه ما لا يعنيه} والقيام **بالوصفين**
كاملين في أن واحد لا يكاد يتأتى إلا لنبي أو صديق أو
ولي لله تعالى أوتي قوة وحكمة فمتى وجد فهو
الوارث الكامل المستحق للمقام المحمدي وصاحبه
ممن قال فيهم عليه الصلاة والسلام {علماء أمتي
كأنبياء بني إسرائيل} ولكل [22] أهل والمرء أدري
بنفسه وحسن الظن واجب فلا سبيل إلي الإنكار إلا
بحكم الشريعة حيث لا خلاف ولا تأويل ولا يكمل
أحدهما دون كمال الآخر كما هو الأكثر فأكمل الفقهاء
الفقيه الصوفي وأكمل الصوفية الصوفي الفقيه وبه
قال {الشيخ زروق} في {قواعده} وهو القول الفصل
فحكم الفقه عام في العموم لأن مقصده إقامة رسم
الدين ورفع مناره وإظهار كلمته وحكم التصوف خاص
في الخصوص لأنه معاملة بين العبد وربّه من غير زائد
علي ذلك فمن ثم صح إنكار الفقيه علي الصوفي ولا
يصح إنكار الصوفي علي الفقيه ولزم الرجوع من
التصوف إلي الفقه ولا يصح دونه ولا يجوز الرجوع منه
إليه إلا به وإن كان أعلي منه مرتبة فهو أسلم وأعم
منه مصلحة ولذلك قيل كن فقيها صوفيا ولا تكن
صوفيا فقيها وصوفي الفقهاء أكمل من فقيه الصوفية
وأسلم لأن صوفي الفقهاء قد تحقق بالتصوف حالا
وعملا وذوقا بخلاف فقيه الصوفية فهو المتمكن من
علمه وحاله ولا يتم له ذلك إلا بفقه صحيح وذوق صريح
لا يصح له أحدهما [23] دون الآخر كالطب الذي لا

يكفي علمه عن التجربة ولا العكس وإذا ثبت ذلك فإن مبنى التصوف تصحيح التوحيد لله تعالى ومحاسبة النفس ومراقبة القلب والإعراض عن الدنيا بالكلية والانقطاع إلي الله بجمع الهمة عليه والاستعداد لرحمته بانتظار فرجه ابتغاء لمرضات الله واتقاء لسخطه {ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب* إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا} فحين قاموا بالوصف جعل لهم مخرجا من ظلمات الجهل وذل المعصية وجعل لهم فرقانا يهتدون به إلي باحة²⁶ المعارف وألقى عليهم محبته التي وعد بها من اتبع نبيه صلي الله عليه وسلم فكان لهم سمعا وبصرا ويذا وكان لهم في حضورهم وغيبتهم مصداق قوله {ما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني أعطيته وإن استعاذ بي أعذته} وقوله صلي الله عليه وسلم في الحديث القدسي {من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا} فيصير لصاحب الصفة أحوالا وأذواقا وجدانية [24] هي نتيجة المجاهدة وثمره الرياضات وهيئات أن يشم رائحتها من لم يدخل مدخله وأن يدرك طعمها من لم يذق مشربه وبه كانت لهم آداب واصطلاحات تخصهم دون غيرهم يعبرون بها عن الأحوال العارضة في طريق الرياضة والمحاسبة من الأذواق **والمواجيد** وكيفية الترقى من مقام إلي مقام علي حسب ترتيبها ووضعها عندهم بحيث لا مدخل فيه لغيرهم من أهل الشريعة لأنه صادر عن الوجدان والشوق والوجدانيات²⁷ لا يُطلب عليها الدليلُ

²⁶ الباحة: أي الساحة أو الوسط
²⁷ الوجدانيات: ما يجده كل واحد من نفسه

كما تقرر فالشأن لمن لم يدرك مداركهم التسليم ولم يزل هؤلاء مقطوعاً لهم بصحة ما هم فيه من جمهور العلماء لصحة طريقتهم وظهور ثمرات مجاهدتهم في أخلاقهم وبدو نتائجها في حياة قلوبهم وعمارتها بحب الله تعالى والتوكل عليه والإعراض عن الدنيا ما هو أقرب لحاله صلي الله عليه وسلم من التقشف والانقطاع والاجتماع في التفكير والفقر إلي الله تعالى وقلة التكلف والورع مع ما أكرمهم الله به من ظهور الخوارق لهم في أنفسهم من الكمال وفي [25] العوالم من الطوع والانقياد ما ملأ الصحف واتضح للعيون بحيث لا ينكرها إلا مكابر نفعا الله بهم وحشرنا في زمرتهم **أولئكم** القوم لا يشقى جليسهم ولم تزل هذه الطريقة القويمة يتلقاها الخلف عن السلف من لدنه صلي الله عليه وسلم عن أصحابه ثم عن الأئمة من التابعين وتابعي التابعين إلي أن انتهت إلي {الجنيد رضي الله عنه} فكمل نشوءها الرسمي فصارت لهم اصطلاحات وإشارات ورموز وترتيب أوراد مخصوصة واجتماعات علي شيوخ منهم يربونهم بهمهم وفراستهم الفراسة النورية التي قال فيها صلي الله عليه وسلم {اتقوا فرسة المؤمن فإنما ينظر بنور الله} فعمتهم هذه الآداب في جميع أقطار الإسلام فتكلموا بالوجدانيات ورتبوا طريق الإرتياض ووضعوا آداب المريدين يدي مربيه وتكلموا في الوصف الدال علي استحقاق العارف أن يقتدي به ويطاع وفي الشيخ الكامل العارف بربه وكوشف بأحوال بني زمنه وحال زمنه المتخلق بكمال الأخلاق النبوية الطاهرة والنصيحة العامة وأنه إذا وجده المريد المبتدأ يلقي إليه القيادة ويفوض إليه أموره [26] وتديبره فظهرت المشايخ العظام الكمل واجتمع المريدون وطلاب

المعرفة عليهم فأفادوهم ورقوهم إلي أن تعرفوا
فظهرت بركاتهم وبدت آثارهم في ملازميهم فظهر
مما ظهر آداب دخول الطريق فردوها إلي أصلها من
الكتاب والسنة شأنهم في جميع أعمالهم وأقوالهم
وأحوالهم من المبايعة بوضع اليد وأخذ العهد اقتداء
بمبايعة الصحابة لرسول الله صلي الله عليه وسلم في
بيعة الرضوان وورد في الكتاب العزيز {إن الذين
يباعونك} إلخ وصح في الأخبار أنهم كانوا يضعون
أيديهم علي يده وأنه بايع عن عثمان ووضع إحدى يديه
علي الأخرى وكرر {لسلمة بن الأكوع} أن يبايع مرة
بعد أخرى وما ذاك إلا لسر فيها وإلا فما ينطق لها ولا
الصحابي يوافق في مبايعته الأولى حتى يحتاج إلي
تكريرها خوف الانتقاض وبزيادة اتساع بلاد الإسلام
وقلتهم في كل قطر بالنسبة إلي غيرهم تميزوا بهذه
الأوضاع وتميزت مشايخهم عن مشايخ التدريس
البحث فمن أول المشتهرين من هذه الطائفة المرينيين
بالهمة من أهل القرن الخامس والسادس وما بعده [27
{الشيخ عبد القادر الجيلاني} ومن عاصروه
{كالرفاعي} وأمثاله في المشرق وفي المغرب {أبو
الحسن الشاذلي} {والشيخ أبو مدين} وأضرابهم
رضي الله عنهم وعنا بهم إلي أواخر القرن الثاني
عشر فظهرت التيجانية علي يد {الشيخ التيجاني} في
المغرب الأقصى والقادرية علي يد {الشيخ سيد
المختار الكنتي} في الصحراء الكبرى وهما في قرن
وعنهما وتلامذتهما تفرعت طرق المرينيين وتخرجت
مشايخهم في أقطار السودان والصحراء الكبرى إلا أن
الأول مستقل بطريقته بالأخذ عن رسول الله صلي
الله عليه وسلم من طريق الكشف والإلهام مختصا
بورد له ترتيب خاص والثاني هو الذي انتهت أسرار

التربية علي الطريقة القادرية وهو وإن بلغ رتبة الأخذ
عن رسول الله صلي الله عليه وسلم فلم يختص
بترتيب مخصوص بل لم يزل يعطي تلامذته ومريديه
الورد القادري عن إذن خاص من الله تعالى ورسوله
صلي الله عليه وسلم فظهرت البركة عليهما وعلي
ذويهما جميعا وما زالوا فله الحمد والمنة رضي الله
عنهم ورحم الجميع إلي أواخر القرن الثالث عشر
وأوائل الرابع عشر فبدأت الأنوار تهدأ [28] والأمواج
تسكن ولواء الإسلام يتمايل يمينا وشمالا لا يستقر ولا
يرتكز علي قوة تقله لكثرة الفساد وظهور البدع
والمنازعة في الرياسة فبينما هو كذلك إذ قبض الله
للإسلام من حرك لأنواره **زخيتها** ومد بحوره فتقاذفت
أمواجها واستقل بالراية فهزها علي جماهير الكفر
والفسق فزحزح جنودها وبدد شملها وفرق جمعها
وأزاح عن رونقه غبارها {الشيخ الخديم} من لا ينازع
في الحضرة لقبه ولا يشكل في القطبانية والصديقية
علمه فرجع بالتربية إلي محلها وأقام أركانها علي
أساسها فأحيا الله علي يديه ميت الدين والمعرفة
وبوآه فيهما أعلي مكان وأسني منزلة ذلك الإمام
العظيم الذي ملأ الدنيا ذكرا جميلا وحالا جليلا وقدم
لدار أخراه ثوابا جزيلا وعملا مرضيا وصار إذا أطلق
الشيخ الأكبر عند أهل جلدته لم ينازعه فيه في الأذهان
أحد وهو الأمر الذي حار فيه أرباب الفكر من غير أهل
الملة واشترأبت أعناق العقلاء والعلماء من أهل الملة
إلي الإطلاع علي خصائصه المميزة وعلي سلوكه
السني الذي أربى فيه علي من تقدمه [29] ومن
عاصره وقد حملتني الرغبة في إجابة طلب من لا
تسعني مخالفته علي وضع جمل في بعض ما امتاز به
من أول نشأته من سمو الخصال وعلو الهمة والنظر

السديد والفكر العميق والإرادة الحديدية واستحقار معاكسه في كل ما تبين أنه الحق أحوال سنية وخصال بهية ملك بها قلوب والديه وأقاربه أولا وقلوب معارفه من بقية قومه ومن اتفق له لقاءه ممن هم أكبر في السن وأقدم تربعاً علي الرياسة الدنيوية والدينية واشتهر بذلك اسمه وهو صبي في حجر والده وما خالطه أحد إلا وازداد ثقة به ولا يتمالك أن ينقاد له طائعا كأنه مسلوب الإرادة في الأزل وعلي هذا شب وكبر وعليه درج أتباعه معه وما زال في ازدياد حتى طبق الآفاق بين من رآه وتحقق أمره وسلك معه ومن سمع سمعا بلغ حد التواتر عنده وأخذ عن من أخذ عنه ولم يخالطه أحد من أول ظهوره إلي آخره إلا وتأخذه الدهشة منه وذلك والله أعلم لما يظهر من قرائن أحواله من صدق ما هو فيه وتمسكه القوي بإيمانه وتحمله كل شيء من مشقات دينه واستغراقه أوقاته كلها [30] في الاستقامة التامة بين واجباته ومندوباته وزهده في غيره زهدا حقيقيا وضع في جبلته كأنما خلق آية لحقائق الإسلام ولمكارم الأخلاق هو {الشيخ أحمد بن محمد بن محمد بن حبيب الله بن محمد الخير} نزيل {جُلْفَ} الذي هو أس بلاد {وُلْفَ} كما حقق العالم البصوبي {انْبَكَّ بن محمد} عالم البلد ومفتيه ولد في حدود السبعين والمائتين والألف وأبوه محمد بن حبيب الله هذا كان عالما فقيها نبيلاً يرتضيه المسلمون إماما ويحبه الأمراء والملوك لما تحققوا من علمه وورعه وعرفوا من صدق لهجته وإصابة قضائه منشؤه في {بُولَ} في قرية {انْبَكَّ} بناها جده محمد والد أبيه حبيب الله وأسكنها بعض أولاده أقطعتها له {هَمَزْ انْكَونَ} أمير {كَجُوزَ} و {بُولَ} وكان يحب العلماء والصالحين ويحتمل لهم ما قل من يحتمله

وكان كلما كان العالم أشد بغضا له وأكثر فرارا من مخالطته يكون أحرص علي قربه وتطبيب خاطره وبيتهم في الأمراء بيت كبير توالى منهم الأمراء بين كجور وبول كثيرا تفردوا بالإمارة عليها مدة مائة وأربعين سنة يتخللها [31] سنون قليلة يتغلب عليهم بعض البيوتات القديمة لأن بيتهم أحدث بيت من بيوت الإمارة في البلدين إلا أنهم أوسع ملكا ومن أحزمهم سياسة وفيهم عدل أولهم {لَتْسُكَاثُ} وآخرهم {صَمْبَ لُوبِ} الذي ولاه النصارى أول تغلبهم علي البلاد وقتلوه أخيرا لخلاف وقع بينه وبينهم في أوائل القرن الرابع عشر وولوا حاشيته مكانه وليست هذه الجمل مما نكتب لجله ولاكن أثبتنا لما قد يعرض من ذكر شيء له تعلق بسياسة البلاد في سيرة والد شيخنا لارتباط القضاء بها ولما يعرض في سيرة الشيخ وعادته مع الأمراء وكيف يغلظ عليهم ويعتز بعكس ما هو عليه مع المسلمين من لين الجانب كما ينبغي أن يكون أهل الله وأصفياءه أذلة علي المؤمنين أعزة علي الكافرين قلنا لك أن العالم محمد بن حبيب الله والد الإمام مسكنه بول كما تقدم وكان عالما أخذ العلم بالرحلة عن مدارس {انجَابُورُ} وكان أكبر جانب في {كَجُورُ} اختص بسكناه المسلمون عن شيخ من أهل {انكك} يسمى {مَصْنَبَ هَنْتَ جُوبُ} وكان من جلة العلماء كما كانت أجداده وبيتهم بيت شهير من بيوت العلماء [32] في {كَجُورُ} وسائر {سِنِغَالُ} من لدن جدهم {المختار نُمْبِ} وقد أرخت مولده وعمره بيتين وهما

*

وأكثر ظني أنه أخذ عنه علم النحو هو وخال شيخنا {محمد بُصُّ} ورأيت لأحدهما قصيدة في مدحه علي أثر إكمال كتاب في النحو تأليف {لابن بُونَ} نظمه من التسهيل وأدرجه في الألفية {لابن مالك} وطَرَّرَه ثم بعده ذهب إلي {سَالِمٌ} وأخذ عن أكبر شيوخها وأجلها {الشيخ محمد صَلُّ} من أهل {بَنَبَ} ولا يبعد أن يكون أخذ عنه أكثر علومه من توحيد وفقه وغيرهما وكان ذلك الشيخ موصفا بالولاية الكبرى عالما عاملا ثقة عدلا جليلا عند المسلمين والأمراء طائر الصيت في الآفاق وتوفي رضي الله عنه ولم يعقب وإنما عقب إخوته الأشقاء وإلي بلده {بَنَبَ} يضاف اسم شيخنا من عزته عند تلميذه والد الشيخ وتلك عادة في البلد يسمون أبناءهم بأسماء شيوخهم ووالديهم أو ينمون إلي بلادهم وقراهم وحين أكمل الفنون تصدى للتدريس [33] والإفادة فطار صيته كأنما ورث بركة شيوخه فتهافت إليه التلامذة من كل صوب من {سَالِمٌ} و {بُولُ} و {كَجُورُ} و {انجَانُبُورُ} وكذلك أبناء شيوخه أخص منهم بالذكر {مَصْنَبَ مَرِيمَ} ابن شيخه {مصنّب هنت} المتقدم الذكر وصار بعد عالما نحويا لغويا له تقريرات علي الألفية لابن مالك وكان جل سكنى الشيخ الوالد للتدريس عند أخواله {انجه} كن {مع كبيرهم الشيخ الحافظ المتقن العالم الجليل الوقور {أحمد بنت كن} وهو شقيق {هنت سل}

والدة {الشيخ محمد بن حبيب الله} قريبا من منشئه
وقرية جده وأبيه {انبك بول} إلي أن ظهر {مبه} في
{سالم} وحارب الكفار وطاردهم في كل ناحية وتغلب
عليهم وحارب أمراء {جلف} ودوخ بلادهم داعيا إلي
الدين فكلف المسلمين عموما والمشايخ والعلماء
خصوصا بالانتقال والهجرة إلي أرض سكناه في
{سالم} وكان ذلك ثقيلًا علي بعضهم لجنوح أهل
الإسلام في هذه البلاد إلي السكون والدعة لما كان
بينهم وبين الأمراء من المسالمة والمعاهدة نوعا ما مع
أن الأمير الجديد يرى الحق بجانبه لخوفه عليهم من
سطوة الفساق انتقاما من الإسلام وذويه لما وقع
عليهم منه وهو غير مستبعد فانتقلوا معه إلا بعض من
حبسه [34] العجز فيسوق أهله وأولاده ويتركه وحده
وهذا مما نقمه عليه بعض الناس إلا أن الرجل معذور
في كثير مما ارتكب من الخرق في السياسة وعدم
التأني والمشاورة لأنه كان حريصا علي إقامة شعائر
الإسلام وعلي صونه وأهله وكثيرا ما يرتدع إذا زجره
عن أمر من يآتمنه علي دينه وقليل ما هم مع أنه فيما
بلغني ليس بمتبحر في العلم ولا بمتضلع من الفقه ولم
يمارس سياسات الملك والدين أقال الله عثراته وجزاه
عن الإسلام والمسلمين خيرا فإنه رفع مناره وأحيا
شعائره وأعز أهله بما ينبغي أن لا تذكر بجانبه عيوبه
إن كانت وفي حشره الناس إلي {سالم} مر بجد
{الشيخ} والد الوالد حبيب وقد ناهز التسعين يرد أن
يحتمله مع أهله وهو حينئذ في {سني} بلدة في طرف
{سالم} الذي يلي {بول} مع أهله وأولاده وكان جليلا
في قومه مطاعا مسموع الكلمة فاعتذر إليه من الكبر
وقد كان احتمل إليه ولده هذا {محمد بن حبيب الله}
والد شيخنا وشيخه في العلوم المنعوت بالشيخ الوالد

مهما [35] أطلق في هذه الورقات وكان شيخنا إذ ذاك في {جلف} مع خال والدته عمه المفسر الكبير {انبك نمبه} أخبرني شيخنا أنه أرسله إليه الشيخ الوالد وهم إذ ذاك في {انجه} عام فطامه بعد انتقالهم من {انبك بول} موضع ولادته فكان مع عمه هذا إلي أن بلغ سن التعلم فشرع في تعليمه حتى حفظ القرآن العظيم علي يديه فتوفي العم رحمة الله عليه وكان رجلا صالحا عالما دينا ومما يحسن الظن به من طريق الفال وكان صلي الله تعالى عليه وسلم يعجبه الفال الحسن أنه وافته المنية وهو في كتب مصحف ابتداء من النصف الأول ومن النصف الثاني ليلا يعوقه تأخر جفوف أوجه الصحف عن مواصلته للكتابة في الوقت المخصوص لها فاتفق أن انتهى في النصف الأول إلي قوله تعالى {وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خلدون} وفي النصف الثاني إلي قوله {أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا} حقق الله فيه الفال ورحمه رحمة واسعة وجزاه عنا خيرا [36] أمين ثم صار شيخنا بعد وفاة العم إلي {محمد بُصُّ} الإمام العالم العلامة الجامع بين النزاهة والنباهة والشجاعة والأمانة كما قال الشاعر:

*

إلي أن تقلبت الأحوال من هجوم الأمير الفاتح {مَبَّه} فذهبوا جميعهم إلي {سَالْمُ} إذ دوخ أمراء {جُلْفُ} وكلف المسلمين كما تقدم الهجرة معه وطلب من جماعتهم أن يوكلوا نظرهم إلي مؤتمن تجتمع فيه شروط الفتوى وأهلية التدبير لنصح المسلمين فسكتوا فاقترح عليهم أن يكون {الشيخ محمد بُصُّ} إن رضوه

لذلك فاتفقت كلمتهم عليه فذهب به ثم بكل من أمكنه النهوض فتوافقوا مع جميع أمثالهم من البلدان في سالم فمكثوا فيها سنين مع {مَبَّهْ} أغار في خلالها علي {كَجُورُ} بعد أن خدمه التوفيق بسوق {الإفْرِجِ} {لَتَجُورُ} من محاولة الاستيلاء علي {كَجُورُ} ملك أجداده والبلد إذ ذاك قد استولى عليه {مَاجُوجُ قَالَ} [37] من ذوي البيوتات القديمة إلا أن الأول أقعد لتوالي أمراء بيته نجوا من مائة وأربعين سنة كما أن الثاني يرى لنفسه أنه أولي لقدم بيته وسبقه في الإمارة وتأخر هذا عنه لأنهم كما تقدم أحدث بيت في إمارتي {كَجُورُ وَبَوْلُ} وهما البلدان اللذان عوائد أهلها متقاربة وسكانهما مختلطة حتى صارا بلدة واحدة من بين بلاد {وُلْفُ} ولما قام {لَتَجُورُ} لينازع القائم قام معه كثير من خولهم وحشمهم الذين هم أكثر من غيرهم لقرب عهدهم بالملك فهزمه مرات إلي أن استنصر ماجوجُ الفرنسيين فأعانوه علي طرد عدوه فهزمه وساقه أمامه فارا إلي {سَالْمُ} ولما دخل أرض {سَالْمُ} تلقته رسل {مَبَّهْ} يعلمه أنه لن يقبله إلا أن يُسلمَ هو وقومه فعلموا أن لا مناص لهم منه فأسلموا فحشروهم إلي بلده آمين واعتز بهم وكان ذلك عاقبة خير للتجور فإنه ثبت علي إسلامه بعد وآتاه القدر ملك بلاد أجداده كما كان يرغب مطمئنا وأسلم بسببه خلق كثير والله يجازيه بالخير وفي هذا [38] الاجتماع العام في {سَالْمُ} تعارفت قبائل المسلمين المتباعدة المساكن وظهرت مواهب الأئمة ففرعهم {الشيخ الوالد محمد بم حبيب الله في حسن التدريس وصحة الفقه والصراحة في الحق فصار محط رحال الوفود من المستفتين والمتعلمين وعلق به {لتجور} هذا وكان يستفتيه في جميع أموره إلي أن صاهره في ابنة

عمه وانبرم حبل الصداقة بينهما كل ذلك والإمام
{مبه} في قوته إلي أن ساقه القدر إلي هجوم
{سين} وهي بلدة صغيرة حملته حقارتها وضيقها وما
عود من الغلبة علي {سالم وجلف} وابتلاعه جيش
{كجور} وأميرها في حشاياه علي الاستخفاف بها
والهجوم عليها بقوة وكثرة لا تسعها {سين} ولا
تكافؤها ولكن من غير ترتيب عسكري ولا تعبئة جنديّة
مع أن أهل {سين} مصممون علي التفاني في الدفاع
عن وطنهم المعشوق والقتال إلي آخر رمق من حياة
آخر رجل من بنيه بضميمة عدم وجود أي خائن بينهم [39]
أو غادر أو أجنبي يدل علي العورات أو يتجسس
علي الخبيئات هجمهم وهم علي كمال الاستعداد
للموت والقتال إلي النهاية وكمال العدة بقوته وكثرته
ولاكن لا بنظام بل تقدم بنفسه والجيش وراءه لا علم
لهم بشيء إلا وعود المدافع تدوي والفرسان
الاحتياطية تتساقط كالثمر اليابس زعزعته الرياح
والأمر كذلك إذ الأمير تدمى كلومه وقد أيقن بالموت
لأن الهزيمة ليست مما يخطر بباله ولا هي من رأيه
فجعل **يعرقب** الخيل والبغال والدفاع في الاشتداد إلي
أن سقط مقبلا غير مدبر وأحد أصدقائه وقواده يريد
أن يوليه للقبلة وهو في حالة النزاع فأشار إليه أن
يتركه خوفا من أن يكون من نوع الفرار من الزحف
لما فيه من توجيه وجهه غير جهة القتال فمات علي
ذلك وانهزم الجيش ورجع أهل {سين} إلي بلادهم
وبقيت خلفاؤه [40] محتفظين بفتوحاته في {سالم}
فقط ورجع {لتجور} إلي بلاده بطلب مجلس الحل
والعقد في {كجور} وقد عزل {ماجوج} وارتأى تولية
{لتجور} وللإفرنج من يوم استنصره ذلك الأمير كلمة
نافذة في المجلس فعرضوه عليه فوافقهم وحينما

دخل الأرض ولوه أميراً وبقي فيها سنين إلي أن وقع الخلاف بينه وبين الإفرنج فقتلوه واستولوا علي البلاد مباشرة يستعينون بخولهم وحشمهم وبقية أهل الأرض فسبحان من هو وارث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون وفي رجوع {لتجور} هنا ألح علي الشيخ الوالد بأن يصحبه ليكون له مرشداً ومعيناً علي أمور دينه ويتولى له القضاء وينفذ ما حكم به لأنه ليس من بين الناس من يثق به كهو ولما نظر الشيخ الوالد في هذا رآه من واجبات النصيحة في الدين ورجا فيه ثواباً {لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم} فذهب معه وأقطع أرضاً بجانب {كك} تسمى {بتار} قرب مسكن الأمير في {جلمغ} وضرب له ميعاداً يأتي فيه للقضاء ويبقى سائر أيامه في قريته تلك وبساتينه يعلم تلامذته ويفتي المستفتين كل هذا وشيخنا في حجره ولا يعزب عن بال ذي معرفة أن تقلبات كهذه تترك أثراً راسخاً في ذهن ذكي حي الخاطر حكيم لا يمر به شيء إلا واعتبر به وبحث فيه والحال أن هذا الشيخ بصفة كونه رقيق الطبع جسور الخاطر لم [41] يترك هذه الأحوال والتغيرات غفلاً بل نظر بعين الفكر الحادة إلي حقائق هذه الأمور واعتبر في دقائقها وهي علي كثرة تلون ظروفها ترمي إلي غرض واحد وهو **عطافة** التسلط والتملص من أيدي القهر هذا يدفعه الإيمان بدينه إلي هجران ما سواه وإنكاره والتوسل بوسائل الجبر والقهر إلي تعميمه وهذا بالنظر إلي طول مدة أجداده في الإمارة يدافع عن كل ما يخالف العادة المقررة عنده ويحتاط بجميع أنواع التمتع والاحتفاظ بمركزه وبينما هم في ذلك إذ بغتتهم يد أجنبية قوية ومهارة فائقة وقد تفرقوا شيعاً وانحلت عزائمهم من طول المشقة وانشقاق الكلمة وسئمهم

الناس وودوا لو ضمهم صاحبها تحت كنفه إلي أن
راودوه عنه فتقدم بطلا مغوارا وحكم حكما باتا بوضع
كل شيء موضعا لا يتعداه ثم تربيع في فراغ الدائرة
رئيسا مطلقا ألا وهي دولة الفرانسييس فرجعت الأمور
إلي مجاريها وارتاح كل رهط للعود إلي سابق عاداتها
وقد كان رهط {الشيخ} من مشايخ الدين والعلم ولم
يزل هو معتكفا علي التعلم والتعليم وقد مر عليه في
هذه المدة القليلة كل هذه التقلبات الكثيرة والتغيرات
المتنوعة من رفع قوم ووضع آخرين ونشوء دول
واضمحلال آخر إلي أن ضجرت العقول وانطفأت جذي
النجدة والشهامة في القلوب نشأ فيما بين هذه
الأطوار والأدوار المختلفة [42] فتزود منها قلبه أنفع
ذكرى تهون عليه الدنيا وجعلته ينظر إليها وإلي أهلها
نظر السخرية والازدراء وقد أوتي الحكم صبيا شأن
الله تعالى مع أنبيائه المعصومين وأوليائه المحفوظين
سيما وقد رسخت في قلبه الذي ما زال علي الفطرة
عقائد الدين التي أرضعته تلك البرة الصالحة أمه
{جارة الله مريم} إياها مع لبانها وعليها نشأ فحفته
العناية الربانية وقادته يد التوفيق الصمداني علي
الصراط المستقيم فتجلى في جميع حركاته وسكناته
ما هو مخالف لما ألف فيمن هو في سنه من عدم
المخالطة والعكوف في مواضع التعبد كالمساجد
ولزوم مجالسة الصالحين وهو في جميع هذا مشتغل
جدا الاشتغال في كل ما يعنيه لا غير لم تقع منه هفوة
فتنقم عليه ولم يعرف اللهو واللعب فيسر الله عليه
الحفظ فحفظ القرآن صبيا في حجر الوالد الكريم
وشرع في تعلم العلم عليه لأنه كما تقدم من أكبر
العلماء الجامعين والمدرسين الفائقين الذين يجمع
مجلسهم المنتهين والمبتدئين علي حد سواء ولم تمض

علي شيخنا أعوام قليلة حتى برع في الفنون وأبى فيها علي جميع معاشر المتفنين يجمع إلي ذلك الانقطاع الشديد علي ما يعنيه من أمر دينه وعلمه والتطلع إلي علوم القوم سالكا سبيلهم [43] في الآداب والزهد وهو في هذه البرهة يتنازعه عاملان قويان أحدهما واجبات البرور لوالده وهو الشديد علي ما يعنيه من أمر دينه وعلمه والتطلع إلي علوم القوم سالكا سبيلهم في الآداب والزهد وهو في هذه البرهة يتنازعه عاملان قويان أحدهما واجبات البرور لوالده وهو ذاك مجلسه مجمع الطوائف من المتعلمين والعلماء والسلاطين والأمراء لتفرده في ذلك الوقت بحالتي التدريس والقضاء كما مر والثاني عامل الانجذاب والانقطاع به تعالي بمعزل عن البرية وضوضائها ولكنه لم يلبث أن انتصرت الفتوة في هذا العراك الشديد وأحكمت التدبير في الجمع بين الخصمين فنظمتها في سلك النية الخالصة لله رب العالمين امثالاً لأمره واجتناباً لنهيه بتحكيم الشريعة المطهرة وتحقيق الحقيقة المنورة فصار الكل لله وفي الله وإلي الله قام بما كلف به من بر والده راضياً واغتتمه فرصة صالحة ووسيلة ناجحة لمرضات ربه عز وجل ونيل محبته المنوطة باتباع رسول الله صلي الله عليه وسلم حيث قرنه سبحانه تعالي بالواجب الأول الذي لم يخلق الإنسان إلا لأجله فقال عز وجل وقوله الحق {وقضي ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً} فكان من بره ما تحدثت به الركبان ولهجت به الألسن علي ممر الزمان وكان والده كلفاً به شغفا لا يحب مفارقتة ساعة لكمال مروءته وفتوته ودينه وورعه وصحة علمه واتساعه وحسن قيامه بمصالحه خصوصاً وقد تفرس فيه خيري الدنيا والآخرة والله يعلم صدق فراسته [44]

وهو فيها رابع الثلاثة الذين قال في حقهم ابن مسعود رضي الله عنه أصدق الناس فراسة العزيز حين قال في يوسف لامراته {اكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا} وامرات فرعون حين قالت في موسى {قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا} وأبو بكر حين استخلف عمر وقال فيه {فقد وليته عليكم فإن قام به وعدل فذلك ظني به} هذا ولم يزل ماضيا في سبيله الرشيد مع والده وقد ولاه مع ذلك أكثر أوقات التدريس وكتب الوثائق ورد الجوابات وفي خلال هذا التدريس والكتابات وبعض التوسلات التي ينظم والوصايا التي يكتب ظهرت طلائع لوائح النور العظيم الكامن في هذا الشخص الخطير كمون النار في الزناد فبدأت العيون تنظر إليه من جديد غير نظراتها الأول والقلوب تنعطف عليه والنفوس تنقاد له والتلامذة تتثال عليه من تلقاء نفسه بعد أن كانت تأتيه من قبل والده والملوك والأمراء الذين جعلوا والده جنتهم الواقية وكهفهم أخذوا يتعرفون به ويلتمسون منه ما كان من والده وهو لا يصبر لهم ولا تحصل لهم مقابلته إلا إذا أمره الشيخ الوالد فيمثل علي نزع قلبي وكان ذلك أغرب شيء في زمنه وكانوا يتناجون بزهده في الأمراء واعتيافه إياهم بعضهم يقول لعله جن [45] وبعضهم يقول أبله يغتفر له ولكنه لم يلبث أن ظهر لهم من القوة والكمال في الاستقامة ما تحققوا به مؤتى له ما لم يؤت أحد وأن ملامح الولاية ظاهرة عليه فهابوه أكثر من والده ومن علماء زمانه علي صغره وقد حكى علي مرة أن الأمير {صَمْبَ لَوْبِ} الذي قلت أنه آخر أمراء {كجور} أتى يوما لوالده وهو أمير وجلس معه علي الفراش واستدعاه إياه فأرسل الشيخ الوالد إليه

فأتى وقال له الشيخ الوالد صمب لوب يريد أن تذهب معه إلي داره ليتخذك شيخا كما كنت مع خاله {لتجور} قال فقلت له إلي أن يخرج عنك فرجعت إلي بيتي في المدرسة وهو إذ ذاك مدرس كما مر بك وحين خرج الأمير مر به وهو في ظل بيته يتوضأ علي **هيدورة** وحين بصر به نزل عن **الهيدورة** وفرشها له مداراة فهاب الأمير أن يجلس علي فراشه هكذا وجلس علي الأرض انظر هذه الحالة المعنوية يجلس مع والده وشيخه الفقيه النبيل ويهاب أن يجلس علي فراشه هكذا عزة التقوى وملك الولاية قال لي {شيخنا} أنه حين كرر عليه أن يذهب معه كما قاله الشيخ الوالد في البيت قال له {شيخنا} لا يمكن لي أن أذهب وأترك هؤلاء التلامذة الذين أتوا لتعلم أمور دينهم حاشاي أن أفعل قال فأذعن الأمير وقال إذا كان كذلك فهذا جواد [46] حر أهديه لك قال فقبلته مصلحة إلي أن ذهب وكان معه ثلاثة من المسلمين كل يطالبه بدين مائة قال فأمسكتهم عنه وأمرت من يبيع الجواد فبيع بثلاثمائة فقسمتها بينهم ورجعوا حامدين ولم يعلم الأمير إلي اليوم انظر إلي هذا الفعل هل يوفق لمثله من لم يهيا لسياسة البرية ظاهرا وباطنا كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وخواص خواص الأولياء المقربين ومن هذا المقام بدايته فإلي أين نهايته إلي الله ورسوله بلا واسطة ولا إمداد خلق {وإن إلي ربك المنتهي} هذا ولم يزل يجد ويجتهد في عدم مخالفة الوالد أو أن يستقل بأمر ما ولو تافها دونه وصرف كل ما تبسم في وجهه من الجاه والعز والمال والذكر الجميل في خدمة والده في ذات الله تبارك وتعالى للاستقامة الكاملة في العبادة والزهد والتعرف بملازمة الصلاة علي رسول الله صلي الله عليه وسلم ومدحه

مستقيما عليها مع مراعات خاطر والده الفقيه النبيل
إلي أن وافاه القدر المحتوم بين يدي ولده البار الكريم
وقد قرت عينه به وطابت نفسه في كل ما يستخلفه
فيه ففضى نحيبه يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من
المحرم عام تسع وتسعين بعد المائتين والألف عن
واحد وستين من عمره والله أعلم بعد أن أوصى إليه
بجميع أولاده وأموره [47] من بعده في قريته {امبك
كجور} وصلي عليه ودفن في مقابر {دقله} وهي
قرية كان أهلها من قديم الزمان بررة صالحين رضي
الله عنهم ورحم الجميع فتصدى بعد هذا مشمرا لما
خلق له وجبل عليه من الاستقامة والزهد وهما
جامعتان لأوصاف الخير إيجابا وسلبا لأن تحت
الاستقامة جميع الأوصاف المحمودة المرغوب فيها
وفي الاتصاف بها والزهد جامع لجميع **التروك**
المطلوب تجنبها والابتعاد عنها وهو رضي الله عنه من
أول نشأته إلي آخر عمره لم تصدر عنه مخالفة ولم
يعن قط بما لا يعنيه قولا وفعلا ولم تمسك كفه درهما
ولا دينارا عن سائل ولم يمد عينيه إلي زخارف الدنيا
ونضارتها ولم تصخ أذنه لأفواه الناس مدحا ولا ذما في
ذات الله تبارك وتعالى مع تفاهة الدنيا وبذلها نفيسها
وغاليها عليه كالسحب المرسلة وإقبال الناس إليه
والتفافهم حوله وانقيادهم لإشارته لا إقبال الأنعام
الصادية للمنهل المورد ولا التفاف النحل حول خلاياها
ولا انقياد السحب لمبشرات رياحها بل من الجميع أشد
وأكثر وأعظم وسيأتي عليك في الكتاب إن شاء الله ما
يشفي غلتك من حسن خلقه وباهر فضله وبارع خصاله
وإن عزت الإحاطة بها واستحال علي الحصر جمعها
وإنما هذه مقدمة تعطيك **نموذجا** من أمره علي سبيل
الإجمال [48] فقط فلنرجع بك إلي ربط بعض الفقرات

بعضها من سلسلة نشأته الأولي وحوادثها وبه تعلم أنه توفي الوالد محمد ابن حبيب الله وترك وصيته فيه طيب النفس قرير العين بما رأى من نبل ولده وعظمة فضله ورفعة قدره وانثيال الخلق عليه وهو في كل هذا لا يرى نفسه شيئاً مذكوراً بجانب ما سمت همته إليه من المكانة العظمية والخلافة الكبرى والوراثة العليا لمقام العبودية الأسنى بقربه من الله زلفى فأخذ نفسه بالمجاهدة الشديدة لا متطلعا للمقامات ولكن بإلهام منه تعالي وأمر لما هياه له في الأزل فالاهتمام إذا إنما هو تعبد وامثال لا حظ فيه للنفس ولا الهوى ولا الشيطان ولا الدنيا وقد تلقى من والده الورد القادري لأنه هو وخاله الجليلي {محمد بُسْنُ} كانا من ذويه فلم يزل يعمل به ومُعَوَّلَه الكتاب والسنة فجعل همه في جمع الكتب والمطالعة فجمع كتبا كثيرة من فقه وسيرة وتصوف ولقي كثيرا من الرجال في أثناء تطواف متعدد كان الباعث عليه البحث عن الكتب والرجال وزيارة مواضع الصالحين فظفر بكتب كثيرة مما كان في أرضه {سنكال} ومما لم يسبق له وجود فيها ومما كان في أرض البياضين التي طاف في كثير من أنحاءها للرجبة نفسها وفي أثناء ذلك أيضا لقي [49] من مشايخ الطرق جملة وافرة وأخذ عن بعضهم شأن رواد الخير متي ما وجدوا من حسن ظنهم به استفادوا منهم لأمر أراده الله له من أن يكون ملتقى البحور ومجمع الخيور وممن أخذ منهم بعض مشيخة الشاذلية فعمل بوردتهم ثمانية أعوام علي ما حكى عن نفسه ثم أخذ التيجانية عن بعض مشيختها المقدمين فعمل بها تلك المدة أو أكثر وجمع في هذه المدد كثيرا من تواليف مشايخ الطرق وعلمائها كتأليف {الكُتُبِي} وولده في الطريقة القادرية التي أسلفنا لك أنها هي

أول ما أخذ من الأوراد وفي سائر التصوف وكذلك
توالمف الشاذلية وأحزابها ككتب {ابن عَبَّاد} و
{زروق} و {ابن عطاء الله} وكذلك كتب التيجانية من
{جواهر المعاني} و {الرَّمَّاح} و {الجيش} و
{البغية} في أورادهم وفي التصوف إلي غير ذلك من
الكتب النفيسة لهم ولغيرهم {كاليدالي} و {ابن
مئال} ومن قبلهم من مدوني الطريقة الصوفية من
المتقدمين {كصاحب القوت} و {صاحب المدخل} و
{صاحب الإحياء} وغيرهم من المأثورات عن {الجنيد}
و {سري} و {معروف} و {البسطامي} و {رجال
الرسالة} و {الحلية} نظر كل هذا بهمة عالية وتوجه
صادق ونية خالصة فتحصل له من جميعها وجود ضالته
التي كان ينشد والظفر بحاجته التي كان يطلب فازداد
به انقطاعا إلي الله تعالى وابتعادا [50] عن الخلق
وجعل يتوغل في الخلوات ويألف الفلوات زهدا في كل
ما سوى الله متقشفا للغاية القصوى نهاره صائم وليله
قائم لا يفتر عن الذكر والتلاوة آناء الليل وأطراف
النهار رغبته واحدة وغرضه واحد وهو رضي الله تعالى
ورضى رسوله هائما مغرما به صلي الله عليه وسلم
صلاة وثناء لا خلاء في كونه ولا فراغ في وجوده بل
في عبادة ربه علي سنة نبيه محمد صلي الله عليه
وسلم ومدحه والصلاة عليه لله رب العالمين وبهذا
الانجذاب الشديد والانقطاع الدائم استخلصه سبحانه
وتعالى لنفسه واختاره لنبيه عليه الصلاة والسلام بعد
أن استكمل جميع ما عند مشايخ الطرق من شروط
وفاز بكل ما حازوا من سؤدد وفخار ومشروط إلا أنه
بعد الشهود والعيان والفناء في الله تعالى والبقاء به
والهيمنان في أودية محبة الرسول صلي الله عليه
وسلم والاستقبال بنصرته والإشادة بذكره لم ينقع غلته

ويتشف صداه جميع العيون والأنهار التي ورد وأستفى

وإن عظم **جمومها** وتقاذفت أمواجهها لأن أقصى مراد
جل مشايخ الطرق والأوراد تصحيح السلسلة وتوفية
الشروط والابتهاج بسير رؤساء السلسلة إلي أن تنتهي
إلي أحد المشايخ العظام دون التعطش إلي المناط
الأصلي من الكتاب والسنة اتباعا وتخلقا وتفهم
الشريعة والأخذ بأهداب [51] الحقيقة المنورة التي هي
في ينبوع سر النبوة من معدن النور الأعظم الفائض
عن حقيقته صلي الله عليه وسلم وهو كما تعلم خلق
ربانيا لا يعرف الأغيار نبتت شجرة التوحيد في أرض
قلبه الصالحة النقية السهلة باختيار الله تعالى في
الأزل فلم تزل سحب المعرفة والعلم واليقين تنصب
عليه جودا عميما وترسل شمس الحق والهداية عليها
أشعتها المنعشة فأتت أكلها كل حين بإذن ربها ولما
كانت العادة جارية في سابق حكمته تعالى بربط
الأمر بأسبابها وكان السير إلي الله تعالى لا بد فيه
من السلوك في سبيله والاقتران بمن تقدموا فيها
تأسيسا برسول الله صلي الله عليه وسلم مع الروح
الأمين لا محالة فلا بد للسالك من اقتفاء آثار صالح
سلفه فيه وإن كان لا يقتضي الأفضلية أخذا مما تقدم
منه صلي الله عليه وسلم بجبريل حتى أثبتوا أن
المنجذب بسابق محبة الله تعالى لا بد أن يتدلى إلي
أول قدم السلوك إلا أنه في تدليه أسرع من السالك
في ترفيه لأنه عامل علي نور من ربه وابتدأه في
التدلي هو انتهاء السالك فلا بد إذا من التمسك بأذيال
المشايخ الكرام والتعرف بهم واتباع إشاراتهم فبذلك
ترى عناية الله تعالى بشيخنا رضي الله عنه فإنه مع
علو منزلته في التوحيد فطرة جبل عليه ورسوخ قدمه
في المعرفة خصوصية من الله لم [52] ينازع قط
صاحب حال صحيح ولم يقتصر في الأخذ عن أكابرهم

ولم يتوان في اتباع آثارهم ولم يترك شيئاً من واجبات
برورهم وإكرامهم أسباب خير خص بها للفوز بميراثهم
والاستيلاء علي مقاماتهم غير واقف عند حدهم بل
رقاه من أنشأه أول مرة لما رشحه له من الوراثة
العظمى فطرحت يد الغيرة الإلهية كل وسيلة بينهما إلا
سيد الوجود صلي الله عليه وسلم فانتزعه من الأغيار
وتفرد به من بين الأخيار وخلع عليه ما لا تعلم نفس
من خلع الأنوار والبركات فاتخذة أمينا لجميع الأسرار
والخيرات ارتقاء سريع لا ينكره من عرف التوفيق لعبد
أراد الله به خيرا وهياه لأمر أراده في الأزل فكل
ميسر لما خلق له والأخذ عن رسول الله صلي الله
عليه وسلم أمر لا يستغرب في حق مثله فقد صح
النقل عن كثير من الأكابر أنهم رأوه صلي الله عليه
وسلم يقظة عد منهم {الشعراني} في كتابه {لواقح
الأنوار القدسية} جملة {والسيوطي} في {تنوير
الحلك في رؤية النبي والملك} ألفه للرد علي
المُخَالِفِ فيها بالحديث الوارد في ذلك منه {من رأني
في النوم فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان
بي} في الصحيحين وذكر اختلاف العلماء فيه وطُرُق
المُخَرِّجِينَ للحديث بعد الصحيحين فقال قال العلماء [53]
في تفسير قوله فسيراني في القيامة فتعقب بأنه
لا فائدة في التخصيص لأن كل أمته يرونه يوم القيامة
من رآه ومن لم يره وقيل المراد به من آمن به في
حياته ولم يروه لكونه حينئذ غائبا ثم قال وقال قوم
علي ظاهره فمن رآه في النوم لا بد أن يره في
اليقظة بعيني رأسه وقيل بعيني قلبه حكاهما {ابن
العربي القاضي} وقال {ابن أبي جمرة} في تعليقه
علي الأحاديث التي انتقاها من {البخاري} هذا الحديث
يدل أن من رآه صلي الله عليه وسلم في النوم

فسيراه في اليقظة ثم ذكر الخلاف في هل اللفظ علي عمومه أو هو في حياته فقط وهل مطلقاً أو لمن فيه الأهلية والاتباع لسنته ثم احتج علي من ادعى الخصوص بغير مَحْصَص منه عليه الصلاة والسلام إلي أن قال وذكر عن السلف والخلف إلي هلم جرا من كانوا رأوه في المنام فرأوه بعد ذلك في اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا متشوّشين لها فأخبره بتفريجها ونص لهم علي الوجه الذي يكون منه فرجها فآل الأمر كذلك ثم قال والمنكر إما أن يصدق بكرامات الأولياء أو ينكرها فإن كان ممن يكذب بها فقط سقط البحث معه فإنه يكذب بما أثبتته السنة بالدلائل الواضحة وإن كان مصدقاً بها فهذه من ذلك القبيل فإن الأولياء يكشف لهم [54] بخرق العادة عن أشياء عديدة في العالمين العلوي والسفلي فلا ينكرها مع التصديق بذلك وقال في {المدخل} رؤية النبي صلي الله عليه وسلم في اليقظة باب ضيق وقل من يقع له ذلك إلا إن كان علي صفة عزيز وجودها في هذه الأزمان بل عدمت غالباً مع أننا لا ننكر من يقع له هذا من الأكابر {قلت} وما لم ينكره {ابن الحاج} مع ما يعلم من تشدده في الإتياع غيره في سعة من أن لا ينكره وقد نقل عن كثير من أهل الخصوصية أنهم رأوه صلي الله عليه وسلم يقظة {كالشيخ الجيلي} و {أبي الحسن الشاذلي} و {أبي العباس المرسي} و {الشيخ أبي مدين} وكثير غيرهم كما في {لواقح الأنوار القدسية} وقال فيه فإن أكثرت من الصلاة علي رسول الله صلي الله عليه وسلم فربما تصل إلي مقام مشاهدته صلي الله عليه وسلم وهو طريق {الشيخ نور الدين الشُّونِّي} و {الشيخ أحمد الزواوي} و {المنزلاني} وجماعة من مشايخ العصر فلا يزال

أحدهم يصلي علي رسول الله صلي الله عليه وسلم
ويكثر منها حتى يتطهر من الذنوب وحتى يجتمع به
يقظة في أي وقت شاء {قلت} وهذا من شواهد ذلك
فشيخنا أكثر الناس صلاة علي رسول الله صلي الله
عليه وسلم وثناء ومدحا له حتى فنى فيه جملة فقطعا
بتوفيق الله تعالى يُقيِّض له النبي [55] صلي الله عليه
وسلم فيأخذ به كما قال {السنوسي} إن من أدام
الصلاة عليه صلي الله عليه وسلم يقيض الله له النبي
صلي الله عليه وسلم وقد صرح به {شيخنا} في
جواب من سأله عن شيخه أنه يأخذ عن رسول الله
صلي الله عليه وسلم بلا واسطة من كثرة خدمته له
وملازمة الصلاة صلي الله عليه وسلم {قلت} وأول
الخدم له عليه السلام إقامة سنته أولا وأخرا بعد
الفرائض في أنواع القربات وذكره وذكر مناقبه بالمدح
والثناء والصلاة عليه صلي الله عليه وسلم فإنه رضي
الله عنه لم يخرج وقتا ما من ميدانه بين الله ورسوله
التوحيد والثناء لله والصلاة والمدح لرسول الله صلي
الله عليه وسلم كما قال:

*

وقسم زمنه قسمين نصف العام في الصلاة ونصفه
في المدح فقال:

*

*

*

والإتساء هو عبادة الله لله لا شريك له باتباع رسول
الله صلي الله عليه وسلم لا اتباع غيره وهذا هو
المشاهد في حياته وأمره والمعاین فهو رضي الله عنه
أولى من اتصل به وأحظى من يُغار عليه.

{ نبذة في تربيته الأولي }

قبل غيبته إلي الجزيرة في البحر { وكلمة } عن حوادث البحر [56] والجزائر { وفذلكة } في الغيبة الثانية إلي أرض البياضين وحاله معهم { وورقات } في حاله مع المريد وترقيته بعد الرجوع إلي الوطن إلي أن استأثر الله به رضي الله عنه فقد تقدم إحيائه للعلوم جميعا وللتصوف خاصة وأنه كان كثير الاهتمام بالكتب الصحيحة ولقاء الرجال قبل الأخذ عن رسول الله صلي الله عليه وسلم وفي خلال هذا الاشتغال ألف كثيرا من كتبه في التصوف وبعض مبادئ التوحيد والفقه وقد أسلفت لك أن الناس في حياة والده ابتداءوا يتهافتون عليه وما زال بعده يزداد شهرة رغما من فراره منهم وتوغله في الفيافي للابتعاد عنهم وهو بعد لم يكمل الأربعين فابتنى داره في { امبِك بُول } انتقل إليها من { امبِك كَجُوز } محل وفاة والده ومسكنه الأخير وبعد مدة ألفها الناس وكثرت الغاشية فابتنى خلوته الأولى { دار السلام } قرب القرية المذكورة فازدحمت الخلائق عليها فابتنى { طوبى } في صحراء لا ماء فيها ولا زرع يومئذ ولا تبلغ إلا بشق الأنفس ولا تسكن إلا بالانقطاع عن الإنس عام 1305 بعد ثلاث من بناء { امبِك بُول } ومن بناء { دار السلام } وكانت طوبى ودار السلام عزيزتين عليه وكان يقول إن السبب في كونهما أحب إلي من سواهما خلوص نيتي في بنائهما [57] ما رجعت فيها لأصل سابق ولا لارتياح مزرع ولا مرعى وإنما هي للعبادة لله وحده عن إذن منه تعالى واختيار شأنه في سائر الأمور من إسقاط الاختيار والتدبير ولكن الله إذا أحب عبده وكتب له الود في السماء ووضع له القبول في الأرض

لا محالة أن الناس يتسابقون إليه ولو ابتغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء ولما علم أنه أمر كتبه الله ولا محيص عنه صبر عليه وجعل يرشدهم إلي ما فيه صلاحهم إلي أن فوجئ بأمر عال أن يربي فقام بأعبائها فيما بين هذه الأشغال الكثيرة وأخذ بهم طريقة التربية والسلوك علي قواعد العلم الصحيح والدين القويم والفراسة الصادقة التي قال فيها عليه الصلاة والسلام {اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله} وكان طالبوه قسمين قسم يزورونه للتبرك والاسترشاد بالنصائح والوصايا والتلقين وأخذ العهد أولئك يهديهم إلي ما فيه سعادتهم في الآخرة والأولى ويزهدهم في الدنيا ويرتب لهم أورادا من الكتاب والسنة أو مما تفرع منهما من استخراج أو استخراج بعض الأكابر ممن قبله أو يلقنهم وردا من أوراد مشايخ الطرق التي حصل علي إجازتها من مشايخهم المرابين ويرشدهم وينبهم ثم يصرفهم إلي أن يمكنهم الرجوع إليه للاستزادة والزيارة فيرجعون ثم هكذا فهؤلاء جل [58] تربيتهم بالقال وقد قالوا إن التربية قسمان تربية بالقال وتربية بالحال فالأولي إرشاد وتهذيب والأخرى إمداد وتقريب كما أثبتته صاحب {الطرائف} رضي الله عنه وقد تغلب في بعض الناس قابلية الأولى فيقتصر بهم في دائرتهم مع الإفادة ببعض مدد من فيض الهمة وبركة المجالسة هم القوم لا يشقى جليسهم عملا بحديث {خاطبوا الناس علي قدر عقولهم} وحديث {أنزلوا الناس منازلهم} وقيل في تفسيره منازلهم ما يحسنون فيدعوهم إلي سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ويبصرهم بعيوب النفس وغوائل الهوى والشيطان وغرور الدنيا ومداخلها ويحضهم علي التقوى ومحاسن الأخلاق تغذية حكيم للنفوس فتنموا

باعتدال وصحة إلي ما قدر الله لها من الحظ في الكمال والمعارف وقسم ائتمنوه علي أنفسهم وألقوا إليه أزمته وانسلخوا عن إراداتهم غلبت فيهم قابلية الأخرى تربيتهم الإشارة وتنهضهم الحال وترقيهم العناية والهمة دلالتهم علي الله ظهور أمره تعالي في جميع حركات الشيخ وسكناته بلا مشارك من غير شرح لعله ولا وصف لدواء كالسلحفاة تربي أولادها بالشم كما حكى صاحب الطرائف فهؤلاء يسلك بهم سبيل التربية السديدة من فطم النفس عن ملاذ الدنيا والإعراض [59] عن الجاه والمال والانكباب علي العمل الصالح وإخلاص النية في كل شيء والتحري لمقاصد الشرع وحكمته في كل أمر وهو أعلو بقومه وبزمنه ولم تخف عنه قلة تعمق الدين في العوام لعموم الجهل إلا قليلا وتضاعف الأخلاق الذميمة فيهم إلا نادرا يجعل أول ما يأخذهم به بعد تقرير واجبات الدين ومندوباته لهم مباشرة الأعمال البدنية ليتحلل الكسل المعروف في أكثر سكان إقليمه وهو أصل الفساد دينا ودنيا ولتذوب النخوة والتهيه والعجب التي رسخت فيهم لملازمتها الطبيعة الكثيفة في النفس البشرية ثم إذا استعادوا العمل جميعا صدورا وورودا بلا تمييز أحد منهم عن أحد قريهم لفهم المساواة بين الناس إلا بتمييز من الفضائل النفسانية القيمة أو بما يحسن من الأعمال المجيدة وبأن تفاوتهم في الفضيلة إنما هو بحسب ما اجتمع في الإنسان من الكمالات والفضائل وما ابتعد به عن الرذائل والنقائص وأن التقوى هو المعنى الجامع لأنواع الأوصاف المحمودة والمانع من جميع الأوصاف المذمومة ويلقي إليهم في فترات الأعمال من لطائف الحكم ما يبصرهم به عيوب النفس ويفهمهم حقائق الدين ويرقيهم للتحلي بحلي الكمال من تهذيب الأخلاق

وتطهير القلوب وتنوير العقول في جمع الهمة علي
الله تعالى بالتوبة النصوح والإقبال [60] عليه بالكلية
والزهد في الدنيا وزخارفها والحب في الله والبغض
فيه وسجن القلب في التفكير في خلق الله واللسان
بذكر الله والجوارح بطاعة الله حتى إذا أشربوا كل
ذلك في قلوبهم وغلب علي كل ما سواه فيها **وقصاه**
صرفهم إلي مختلف الأمور كل لما يصلح له وهو أعلم
بحال المرید مع الترقب الشديد والانتقاد المستمر في
جميع الحركات ما خالف منها ظاهر الشرع ردع صاحبه
ورده إليه وما خالف آداب القوم زجره ونبهه علي
موقع الخلل منه وجميع هذا باعتدال تام واقتصاد رشيد
تحت إشراف الحكم الشريعة المطهرة ورقابة الحقيقة
المنورة وجعل الله علي يديه البركة فانتفع به خلق
كثير لا يحصون وصاروا مصادر صالحة للتربية كل بقدر
ما اغترف من بحره الغطمطم وقد شوهد أنه لم يصدر
عنه أحد ورجه إلي أهله إلا إذا خالطوه يرون في
سيرته وسلوكه وتواضعه وجدده وانكبابه فيما يعنيه ما لا
يبقي شكاً في قلوبهم من تفضيل طريقته والفضلاء
سراع إلي تفقد الفضل وذويه فتتابعت وفودهم عليه
من علماء وشيوخ ومدرسين من كل صوب ممن
أمضوا طرفاً كبيراً من حياتهم علي كراسي الرياسة
الدينية والدنيوية وحظوا بين الخلق [61] بمقامات
رفيعة وأحوال سنية أياماً مديدة وازداد إقبال العامة
بكثرة إقبال الخاصة أفواجا أفواجا وزمرا زمرا لا يصبر
صادر عنه ويكاد يبلغ محله إلا ويرجع ولا ينصرف الوارد
عنه إلا ويتوجه لأي شيء لأنهم ما زاروه إلا لوجه الله
لما تحققوا من عكوفه ببابه وارتماء فيوضه بالدرر
واليواقيت من معادن الحكم الربانية وما ثملوا به من
أنواره وأسراره النبوية القدسية إلي مكارم وأخلاق هي

أعذب من الزلال السلسبيل للوارد الظمآن وآداب
وكرم كالروح والريحان إلي سخاء وجود أعانه الله
عليها بسوقه الدنيا بحذافيرها إليه من بيضاء وصفراء
من أبزاز وأنعام من عبيد وإماء لا كذي يزن من غمدانه
ولا كسري في إيوانه بل أعلى وأجل وهو يفرغ تلك
الخزائن لرواده ويبدد فيهم شمل تلك الأموال كما قال
فيه أحد شعرائه {محمد بن المختار بن المعلى
الحسنى}:

*

ولكت يد الله فوق أيديهم فلا يكاد يفنى ما عنده إلا
وردت الأرزاق عليه كالمطر وهي عنده كالمدر فعم
البلاد ذكره وتنشقت الخلائق نشره فصار حديث
السمار في أفنيته وراحة الركبان فوق رجالها وموضع
بحث الحكومات في دواوينها وهو لم يزل هو كما
مررت به في خلوته لا إنس له [62] إلا بالله ولا
صاحب إلا في الله ولا حركة ولا سكون إلا لله كل هذا
ولم يوجد ولو واحدا من أهل العلم والعدالة والنهي من
ينقم عليه شيئا أو ينتقد إما سالكا معه أو مسلما أو
راغبا مُرَعِبًا إلا أن كل ذلك لم يكن ليحبس شياطين
الإنس والجن ومن سولت لهم وأملى عن الطموح إلي
دفن الحق ولو اتضح وإطفاء نور الله وإن ارتفع فقام
بعض ممن لا يعبا الله بهم ولا يُقيم لهم يوم القيامة
وزنا أوغر صدورهم الحسد ونفخ في أنوفهم البغي
والطغيان إلي المكر به والوشاية لأرباب الدولة في
{**سنغال**} وهم الفرانسييس وكان ذلك أوائل استيلائهم
علي البلاد ولم يتمكنوا منها كل التمكّن ولم يقفوا علي
دخائل طباعهم ولم يعرفوا بين ذوي العقول الصحيحة
والقلوب السليمة وبين المتملقين الذين هم في كل

مكان أسرع إلي تلبية أي داع خدعا وملقا والفضلاء
ذوو العقول من شأنهم التآني في كل الأمور وإذا تبينوا
الحق من الباطل ودخلوا فيه ختموا الأبواب وسكنوا
وأولئك المتملقون كما أنهم أسرع دخولا فكذلك أسرع
خروجا إن أمكن وإلا فبالانصراف إلي المخادعة والمكر
والفساد ولا كفساد الفأر في خزائن القماش والسوس
في خزائن الدخن والسعير بل أشنع ومن افتراءات
هؤلاء وملقهم [63] هولوا أمر الشيخ عند أهل الدولة
وخوفوهم منه وادعوا عليه أمورا بينها وبين أغراضه
بُعْدَ المشرقين رأوا ظهوره وإقبال الخلق إليه
وانقيادهم له طوع البنان وهو يحضهم علي التقوى في
الأوقاف القليلة التي يراها حقا عليه أن يخرج إليهم
لقلة فراغه من العبادات ونوافل الخير وذوو الحاجات
وطلابُ المعونة ينث عليهم أفانين التحف والهدايا
كالبحر المترامي الأواذي فكسوا ازدحام الناس لديه
غير كسوته ولبسوا علي الدولة إذا بما هي مسئولة
عن أمور رعاياها لابد أن تصيخ لهم وإذا فعلت فلا بد
أن تبحث وقد تستقصيه فبهذا طلبوا حضوره فحضر
بعد أن امتلأت آذانهم من الوشائيات الكاذبة إلا أن
الذنب أكثره علي المتملقين وأخبروه بالتهمة فطلب
منهم مقابلة المدعي بجراءة ورباطة جأش مستغرقا
في تلاوة القرآن والذكر متحريرا لأوقات صلاته لا يرفع
طرفه إليهم ولا يجاذبهم الكلام وتلك هي عادته مع
الصديق والعدو والقوي والضعيف فهو والحق يقال
ليس لشيء حظ فيه إلا العبادة وكلما كرروا عليه
التهمة وطالبوه بالإثبات أو النفي ازداد نفورا من
الخوض معهم فيه إلا أن يُحضروا الواشي فيظهر الحق
من الباطل ثقة منه بربه تعالي المبرراً وتسليما له قدم
صدق في التوحيد راسخة ولما رأي بعض الوشاة [64]

الذي هو حاضر في المجلس أن الرجل لا يهمله الجدل ولا تدهشه التهاويل المتوجهة إليه وأن همته متعلقة بربه وخوفه ورجاؤه منوطان به سبحانه حمل استخفافه بالدنيا واستهانتة ببلاياها علي تخصيصه برجال الحكومة يوهمهم أنه لا يحسب لهم حسابا ولا لحكومتهم وهو رضي الله عنه من رجال هيبة مولاه عنده **وإنسه** به لم ير غيرا البتة لا محسنا ولا مسيئا إنما هو في مقام الرضي والإنس ولما استولت الدهشة علي المجلس نظر أحد أذكياهم نظر متفكر يفهم الأحوال فقال إن هذا رجل إلهي قد غاب عن الكون لا يعرف البطل ولا يخطر بباله شر ولا عمل دنيوي خلوا سبيله فتوقف البعض ثم تنمر أحد الأعضاء فقال يجب علي من يتجراً ولا يهاب علي مجلس ويستهيئ بكل شيء إلا بما هو فيه أن يعدم أو ينفي نفيا مابدا فصادف قوله مَحَلًّا في صدر مدير المجلس {مِيزْلِينَ} ذلك الرجل المستشيط المحنق المعجب بنفسه فبت الحكم بالنفي البعيد والتغريب الشديد بعد شهرين أمضاهما في {اندَرُ} ينظر في أمره ويمكر ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه سَنَنْ مَقْتفاه صلي الله عليه وسلم بين طوائف مشركي قريش في {مكة المكرمة} والله خير الماكرين وكان ذلك عام 1313 فقضي الأمر بالنفي إلي تلك الأرض [65] السودان إلي الجزر المظلمة والبحور الملتطمة إلي حيث لا يعود غالبا من يذهب {من اندَرُ إلي دَكَارُ} وبعد ليلة فيها هي أشد ليلة باتها مبتلى في الدنيا ركب البحر إلي مستعمرة {كَابُونُ} كما في رحلته {جزاء الشكور} وهي رحلة كتبها بطلب رجل من {أهل الحاج المختار} من بِيضان الصحراء الكبرى وأهل الحاج المختار قبيلة صالحة كثيرة العلماء والصالحين وألْجِصُّ لك إن شاء

الله هذه الرحلة وما أخذته من الثقات ممن أتوا عليه
ثم أو لقوه في خلال المدة لأنه لا يكاد يُعرف عنه
شيء في تلك السنين السود التي لا تزال نكتة سوداء
في تاريخ رجال ذلك المجلس الجائر ومديره الغشوم
لشدة المراقبة والتعمية والإرجاء في زوايا الإهمال كما
لا تزال شواهد الحق والصراحة تُصريح بمزايا تلك اليد
البيضاء للحكومة النيرة التي خطاته ورفعت الحكم
الجائر عن رجال الصدق والحق الصديق العزيز لكل
ذي استقامة والكريم الوفي في كل معاملة تشهد له
آثاره الحسنة في ترقية شأن المسلمين دينا ومروءة
في قطره وفي أكثر الأقطار وإسعافه في الأزمات
العامة أولياء الأمور والأخذ بناصرهم في كل ما يتول
إلي مصلحة عمومية أثارا باقية تُصدّق الموالين وتكذب
المعادين أبد الدهر [66]:

*

{إيضاح وتمهيد}

لا يحتاج إلي زيادة بيان أن قلبا كبيرا في تجديد الدين
وظهور طريقة في الإصلاح عظيمة لم يتقدم لها مثال
في قطرها يحدث دهشة في القلوب ورجفة في
الجُهال والأحداث وهزة في أركان الرئاسات وقد رأيت
فيما تقدم من هذه الورقات أن {شيخنا} نشأ في
وسط كان يتمخض فيه ظهور أمر جديد وقلب عظيم
في الدين والسياسة يعرفها من تفحص الحوادث
وماجريات الأحوال وصارت الملوك تتخوف من كل
جانب فتنة وتتوقع من كل عصاة ثورة مما أحدثت

حروب {مبه} التي أنتجها جهاد {الحاج عمر الفوتي} وانتشار حكايات انتصاراته في ما أنتج من تهيج نيران الانتقام التي كانت نائمة في صدور المسلمين من إهانة الملوك لهم واستخفافهم بهم وقتلهم في بلاد {ولف} وأظن أن سلسلة هذه الثورات المتتالية المستمرة نحو مائة سنة تتصل بجهاد {سليمان بال} في {فوت} وهو بحروب {ناصر الدين} في الصحراء الكبرى وهو بالتأسي بأمراء المسلمين من أول الملة من ظنه في نفسه الكفاءة جماعة وعدة إلا أن {الحاج عمر} ربما كان به استثناس بأحوال {هَوْصَ وَمَاسِيْنَا} التي أدته ضرورة الحرب إلي المشابكة معها في فتن [67] مظلمة مات في خلالها واستولت أقاربه عليها بعده إلي أن أخرجهم {فرنسا} منها واستولى علي البلاد في ما استولى عليه والله وارث الأرض ومن عليها فهذا النظر وإن كان أجنبيا علي الأمر فقد جر إليه طلب تعليل الأمور بالعلل الظاهرة بحسب الإمكان لا أنه هو الحاصل في نفس الأمر فإنه لم نقف علي حقائقها إلا أن أقل ما يكون هذا في النفس استثناس لا يخلو من فائدة فلنفسح لعقلك وتعليقه مجالا فلسنا بأولى منك بالنظر ونرجع إلي ما كنا بصدده من تمهيد ما أقام الحساد والوشاة وأقعدهم من أمر {شيخنا} فنقول إنه من المعروف أن الناس عند التغير الفاجئ لا يعتمدون علي عقل صحيح إنما يذهبون مع الموج وإن {شيخنا} من أول نشأته خالف الناس جميعا إلي تصحيح دينه وإقامة عبادته والبحث عن الحقائق والأحوال من آثار الصالحين والعارفين بالله وهم إلي إصلاح دنياهم والتمسك بعوائدهم وأنه كان مع {الشيخ الوالد} ظاهرا لواجبات البرور في مواضع الأمراء لأجل القضاء الذي {الشيخ الوالد} قائم به كما تقدم وبعد

وفاته استقل بالعبادة والعلم والرياضة علي حسب
أخلاق القوم بطريق السنة والصلاة علي النبي صلي
الله عليه وسلم وصار الناس يأخذون عنه العلم
ويلازمه بعضهم للتأسي [68] والإقتداء والتجرد من
الدنيا وصدق الإرادة وجعل يصف حقيقة الإرادة لهم
فسلك بعضهم سبيل الإرادة وبعضهم بقي علي ما كان
عليه من التعلم وهو يربي أولئك تربية المريرين الذي
هو أولهم فحصل لهم بين الصدق والإخلاص الذي لا
يشك أحد في تحصيلهم إياهما علي الوجه الأكمل من
طريق رياضة الذكر والزهد والخدمة للصالحين ولسائر
المؤمنين خدمة ولاء وخدمة إيثار أذواق رائقة فظهر
عليهم نور الإتياع من الورع وجرت الحكم علي
ألسنتهم من الأفئدة عن الجود اللدني وكان بعض من
له إمام بعلوم القوم وصفاتهم يرمقونهم بالأبصار
وبعض العلماء يستخفون بهم ويقولون لا نعلم طريقا
إلي الجنة غير التعلم والتعليم الرسمي وذلك مبلغهم
من العلم إلي أن كان من قضاء أن أسلم علي يديه
ابن عم {لَتَجُوزُ} ملك {كَجُوزُ} {إبراهيم كدُّ جُوبُ}
وكان ذا منزلة حظية عند الأمير فأول ما أمر به
{شيخنا} غلام قاضيهم السالف أن يرد جميع ما أخذ
من أموال أتباع {أحمد شيخ} هو رجل أتى من
{قوت} يزعم أنه يجاهد أمراء {كَجُوزُ} لإدخالهم في
الإسلام بعد أن صلوا وصاموا مع الشهادة والله أعلم
بحقيقته وهزم أهل {كَجُوزُ} مرات إلي أن أعانهم
{فَرَنَسًا} وقتلوه ونهبوا أمواله [69] ومن معه وكان
{الشيخ الوالد} ينهى عن أخذ أموالهم لكونهم
مسلمين وقاتلهم فتنة الدم هدر والمال رد لأهله وأحله
فيما بلغني بعض القضاة ومشوا علي فتواه إلي أن
أسلم إبراهيم هذا علي يد {شيخنا} وأمره برده

وامتثل فعظمت الوقية في شيخنا عند الأمير وأنه
نقض حكم القاضي الكبير وأنه رجل خالف العلماء في
هذا ولم يراع حرمتك إن لم توقع به في الحال فستري
ما تكره لأن أتباعه يريدون يخالفون غيرهم في
الصلابة في الدين ويسمعون له أكثر من كل أتباع مع
أستاذهم حتى أرسل إلي {شيخنا} يستقدمه ليعقد
مجلسا تجتمع فيه العلماء معه للمناظرة فأجابه
{شيخنا} بأن ذلك أمر لا يمكن وكرر الأمير عليه مرارا
وهدده إن لم يأت فكتب إليه {شيخنا} إنني لم أثاقل
عن إتيانك من تكبر ولا جبروت ولم أهب مقابلتك ولم
أشك في مقالتي فأهاب مناظرة العلماء ولكن الطريق
كما قال أحد العلماء لبعض الأمراء يؤتى ولا يأتي كما
قال {مالك ابن أنس} {لهارون الرشيد} إن كان
قصدك التعلم فأتني وإن لم تقصد التعلم وأردت سمة
دنيوية فقط فإني أستحيي من الملائكة أن يروني علي
باب الأمير لأمر دنيوي وحين بلغه هذا الكلام وكان
أمس غلاما بين يديه وبين يدي {الشيخ الوالد}
استغربه جدا وشاور فيه بعض العلماء لما فيه من
هضمه وإياهم وأشار [70] عليه بعض حشمه علي
الإيقاع به فاشتهرت الحادثة لما علمت أن الملوك هم
أسواق الدنيا ولكن بوقاية الله فاجأ الأمير انتقاض
عهده مع {فرنسا} لأمر أوجبه فاستغرق هذا الهم
الهموم جمعا قلت فسبحان الله التاريخ يعيد نفسه
فإن هذه الواقعة وما صرف الله به شر الأمير عن
{شيخنا} هي عين ما وقع {لمحمد بن إسماعيل
البخاري} قبله بأزيد من ألف سنة فإنه رضي الله عنه
لما رجع إلي قريته {بُخَارَى} بجامعة الصحيح نصبت له
القباب علي فرسخ من المدينة واستقبله عامة أهلها
حتى لم يبق مذكور ونشرت عليه الدراهم والدنانير

وبقي مدة يحدثهم فأرسل إليه أمير البلد {خالد بن محمد الدهلي} نائب الخليفة يتلطف معه ليأتيه بالصحيح ويحدثهم به في قصره فامتنع {البخاري} من ذلك وقال لرسوله قل له أنا لا أذل العلم ولا أحمله إلي أبواب السلاطين فإن كانت له حاجة إلي شيء منه فليحضر إلي مسجدي أو إلي داري فإن لم يعجبك هذا فأنت سلطان فامنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة إني لا أكرم العلم فوقعت بينهما وحشة فأمره الأمير بالخروج من البلد فدعا عليه فلم يأت شهر حتى نكب الأمير ونودي به علي أتان وحبس إلي أن مات ولم يبق أحد ممن ساعده إلا ابتلي ببلاء شديد من القسطلاني يتصرف قليل وهذا عين ما وقع [71] {لشيخنا} مع الأمير وبعض أعوانه الذي كان يظهر البغض والتبرم في أمر {شيخنا} وكان يُغريه ويقول في الملا انظروا إلي البغاث يستنسر أمام النسر الحائم والعقاب الهائم يريد القاضي الكبير ويهزأ بحكم {شيخنا} مع المستهزئين وأخت الأمير أميرة البلد أما عاقبة الأمير فمعلومة من هذه الورقات أمامك وأما ذلك الوزير المستهزئ والأميرة فإن الوزير طالت به حياة بعد سيده حتى مر به {شيخنا} ذات يوم في موكب من المريدين خطير وألسنتهم لهجة بالذکر والتقدیس والوزير **المافون** قائم علي حافة بئر يستقي لبقره الذي لا راعي له إلا هو أو ابنه عليه أخلاق رثة ولما مر به الموكب وعرف {شيخنا} لوى رشاءه وأقبل عدوا يسابق العامة ويجهد ليحظى بمسة لكفه رضي الله عنه وأما الأميرة فلم تمت حتى رأيتها تتكف عند أبواب {شيخنا} بل وعند أبوابنا وأبواب المريدين وتابت علي يد بعضهم وأسلمت وأسلم جميع ما بقي لها من العيال المنكوب فسبحان من يُعز

أولياءه ويذل أعداءه انظر ما في هذه من الزوائد
والفوائد وقد جلبه الله رضي الله عنه رءوفاً بالأمة
مشفقاً علي البرية لم تسبق علي لسانه لعنة بل صبر
لهم وتوكل علي الله وأعرض عن أذاهم وخبأ لهم
الشفقة أن يُهَدَّوْا كما قال مخدومه عليه الصلاة
والسلام {اللهم اغفر لهم فإنهم لا يعلمون} وجرحه
صلي الله [72] عليه وسلم يسيل دماً بلي إن التابع
المطيع علي قدم المتبوع {ادفع بالذي هي أحسن فإذا
الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم} فلم يبق من
بيت الأمير وأكثر بيوت الأمراء بين {كَجُورٍ وَبُؤْلِ} ممن
علمت وما أقل من لم أعلم به منهم أحد إلا وأسلم مع
{شيخنا} لله رب العالمين علي يديه جزاه الله خيراً
عنه وعن دينه ونبيه صلي الله عليه وسلم كل هذا أمهد
لك فيه السبب في تخصيص {شيخنا} وأتباعه بالرعي
والرقابة والتخوف والوشاية والتشديد ولما اشتهر أمر
هذه الحادثة بعد أن كان معروفاً بالعلم والتدين والورع
وتفرس كثير من الصالحين ممن لقوه فيه الولاية أخذ
بعض أحداث علماء الدنيا ينحرف عنه لما يُظهره
سلوكه مع أبناء الدنيا من عوراتهم وخفة دينهم وأبناء
الدنيا أنفسهم ينكرونه لعدم مداراته واعتيافه أموالهم
ومريدوه علي منواله وبعض أبناء الآخرة ومحققوا
العلماء يوالونه ويحبونه كما مر بك فصار أمره محل
النزاع بين الطوائف فازداد شهرة وازداد دخول الناس
فيه وكتب الله أن أتته من كل قبيلة أفلاذ كبدها من
الأعيان وأبناء الأعيان وذلك مما اختصه الله به أولاً
وآخرها فإن أصحابه من كل بلد وكل نحلة وكل حرفة
هم الرءوس [73] والأشراف يتبعهم تبعهم ولم يتبعه
وضيع إلا وارتفع بين قومه كأن الله تعالي أسس أمره
بالأشراف وخلق له تعالي باختياره من العامة أشرافاً

فأتباعه أشرف الناس أولا وآخرا وله الحمد في
السموات والأرض وربنا يخلق ما يشاء ويختار ومن
هذا الزمن وهو آخر أيام {لَتَجُوزَ وَصَنَبَ لَوْبِ} تميز
عن مشايخ الفطر بتميز أتباعه من سلوكهم علي يده
طريق الإرادة وتلقنهم عنه ومن ذلك اختصوا باسم
المريدين دون غيرهم من أتباع المشايخ من
{قادرين} و {تيجانيين} وغيرهم لأنهم أول جماعة
جمعهم شيخ واحد يربيه تربية السالكين المتجربين
لله من كل هم وشغل دنيوي إلا الضروريات ففهموا
معنى الإرادة ووضعوا عليها الأقدام وساروا إلي الله
بكمال الإتياع عملا وحالا وخالقا لا أني قلت أن الإرادة
لم تصدق علي أحد غيرهم في الفطر ولكن الجمع
عليها والقيام بها بقوة ربانية ونور صمداني يجذب
المختارين لها من كل دان وقاص علي قدم التجريد
والانقطاع لم يحصل قبل {شيخنا} في هذه الأقطار
ولو كانوا لما خصهم العرف بكلمة المريد وهي كلمة
مشتقة من الإرادة صادقة في كل من قام بوصف
منها كما خصه العرف عند المتقدمين للمتجربين لله
فكذلك العرف في {سنغال} يخص به بين أهل
التجريد لله [74] ولرسوله أتباع {شيخنا} لأوليتهم فيها
وظهورهم بها وهكذا سلسلة الحوادث تتفاقم مع
تعاظم فيوض {شيخنا} وأمداده وإقبال الخلق إليه لا
تهممهم دنيا ولا يصددهم دونه شيء إلي أن مات
{لَتَجُوزَ وَصَنَبَ لَوْبِ} آخر أمراء كجور من قبل
{قَرْنَسَا} مشتغلين عنه بأنفسهم مما دهمهم من
القوة الجديدة وذلك أن الأمير {لَتَجُوزَ} هاجر إلي
{سَالْمُ} مرة ثانية من هذه البغته التي مر ذكرها
وذهب معه قومه وخوله وأهل بيته ومكثوا مدة في
{سَالْمُ} لا يوافقهم من أهل سالم إلا {سعيد بَه} ابن

شيخه وإمامه {مَبَّة} المتقدم الذكر وقد بايعه أتباع أبيه الأجانب من مهاجرة البلاد التي فتحها والده {مَبَّة} وبعض من الوطنيين واختلف عليه قوم في مقدمتهم تلميذ والده {بَرَانُ سِيسِنْ} وهو من أعرقهم في البلاد فخذل عنه جل الوطنيين أهل {سَالْم} وقام مع {سَعِيد} أخلاط المهاجرين ولا يحصي عددهم إلا الله أما {لَنْجُوز} فلما لم يوافقهم من أهل {سَالْم} إلا {سَعِيد} تكدر هو ومن معه جدا وضافت عليهم الأرض بعض الضيق لما ألفوا من التبسط ولعدم أمن الأرض من كثرتهم الزائدة حتى لا تحملهم تلك الأرض إلا بموافقتهم أهلها جميعا فافتقرت الكلمة في جيشه وساموه الرجوع إلي {كَجُوز} لحرب {فرنسا} أو مسالمتها [75] فلم يقبل لأمر في نفسه فنصبوا لواء الغدر مع ابن أخته {صَنْبَ لَوْب} فرجعوا به إلي {كَجُوز} وسالموا {قَرْنَسَا} وولوه الأرض فبقي خاله في {سَالْم} حتى بنا به البلد فرجع إليهم وأبى {قَرْنَسَا} أن يدخل الأرض فبقي يهيم علي وجهه يدبّر في الكيد طورا في {جُلْف} وطورا بين {كَجُوز} و{جُلْف} في خلوة هناك إلي أن سئم فثاب إلي عقله ورشده بعد أن غدرته أعوانه وحشمه ومواليه وانحازوا إلي ابن أخته {صَنْبَ لَوْب} وهم جميعهم إلي دولة {قَرْنَسَا} ولم يبق ممن يدافعهم عن البلاد إلا هو وقد تكسرت الأجنحة التي كان يطير بها ويحوم فبقي شريدا في قوم من أهل بيته الأحرار وقليل من الذين استرقتهم الحرية وذكرى الماضي فجال فكره إلي أفراد المسلمين وأهل الإمارة فلم ير من تقدست جوانبه وطهرت سريرته من لحظات العصبية الدنيوية ولم تحم علي حوالي قلبه هائمة المداهنة واقتناص الرياسة إلا {شيخنا} هذا رضي الله عنه فأوى إليه

يشاوره ويشتكى إليه ما وقع له من أهل بيته خصوصا وأهل إمارته عموما هل ينبغي له أن يهاجر إلي البلاد النائية ليستمد منها قوة من مُعين يسترد بها فقيده أو يشير من أهل الأرض من يعينه علي خصومه العديدة بكل حيلة ممكنة فقال له {شيخنا} رضي الله عنه [76] وكان مأمونا عند جميع العداء والأصدقاء إن الرأي في تولي الدنيا أن تتولى عنها فتترك لأرباب الدولة الجديدة دنياهم فإن تلك القوة مستقبله ولا يردّها شيء إلا أن يشاء الله ولا ينبغي لعاقل أن ينزع في ذلك وأهل بيتك وأمارتك من الدنيا أما أنا فأقطع لك بأنك إن صرفت هؤلاء الذين معه وتركت السلاح والخيل حتى تبقي وحدك ستجد ما هو خير لك فيما بينك وبين ربك وتستريح من هموم الدنيا وغمومها كما فعل أخوك {مختار جوب} هذا وكان مختار جوب من أول من أسلم علي يد {شيخنا} رضي الله عنه من رؤية رأي {شيخنا} رضي الله عنه عند الأمير وأحسب أن ذلك كان مما يرسله {الشيخ الوالد} إليهم لأنه لم يأتهم من قبل نفسه قط قال {مختار جوب} لما وقعت عيني علي {الشيخ} رضي الله عنه فوجدته لا يدخل فيما يخوض فيه الناس مقبلا علي شأنه من التلاوة والعبادة ولا يرفع طرفه دخلني حال لا أعبر عنه من محبته في خوف واستعظام فرجع الإسلام في قلبي أول وهلة من نظرتي هذه فذهلت عن جميع ما كنت فيه قال فأحس بذلك أخي {لنجور} وكان ذكيا فجعل يسارقني النظر مدة مكث الشيخ في ضيافتنا وكان الحال يزداد في وأشربت في قلبي حبه فجعلت أقرب منه وأوثر مجالسته إلي أن فهمني أخي {لنجور} وحين انصرف الشيخ إلي قرينته رأني مُلجَمًا مهموما فتبسم إلي وقال [77] يا مختار جوب أخاف

عليك أن يكون هذا الشيخ رضي الله عنه ذهب بك
فقلت له أجل والله فقال إن شئت أن تذهب إليه
فاذهب قال فكانما أنشدت من عقال فذهبت إليه
وأسلمت علي يديه وسلكت معه إلي اليوم، فلنرجع
إلي ما كان من محادثة لتجور لشيخنا رضي الله عنه
حين قال له إن تركت خولك وحشيمك وسلاحك
وتجاورني علي الإسلام والعزلة فأنت في أمان من كل
هم وغم من أهل الدنيا فقال له لتجور إن ما قلت حق
وإني لمتيقن أنه الأولى والأفضل إلا أنه يثقل علي
نفس مثلي الانسلاخ من الدنيا بالمرّة ولكن انصرف
قلبي عن كل ما كنت أتفكر فيه وانقطع أمني بتنبهك
إياي بهذه النصائح من كل ما كنت أحاول فالآن لا
أكلفك من أمر إلا بما يُعينني عند ربي في الآخرة وبما
يشفع في عنده فاسعفني بذكر ودعاء ينفع في القبر
وأعطني من لباسك الخاص ما أشعر به إذا مت ولا
تنسني في الدعاء الصالح فأمره شيخنا رضي الله عنه
بحفظ دعاء كان رتبته هو من الاستغفار وأعطاه قميصا
من عنده فوادعه ولم يمض عليه أسبوعان حتى انقض
عليه جيش للدولة فيه جل الوطنيين من بيوت الإمارة
ومواليه كانت تريده فقاتلهم مقاتلة حرة لم تدم زمنا
يسيرا حتى أسخنته الجراح فمال عن جواده ميتا ولم
يتزحزح عن موقفه مقبلا علي نية الشهادة كما قالها [78]
حين يهجم عليها عند بئر {دِقْلَةَ} يوم الأربعاء عام
1300 ودفن بمقبرتها وقد كان سهلا عليه أن يعجزهم
هربا وأباه عليه إيمانه بالقدر ومروءته الوافرة رحمه
الله تعالي ثم انتقل {الشيخ} إلي {بَوْل} فتهافت
عليه الناس كالنمل وانفتحت الطرق من جهات {كَجُورُ
وَبَوْلُ} يأتون رجالا وعلي كل ضامر يأتين من كل فج
عميق فابتدأت الشكايات والوشايات إلي الدولة

الفرنساوية لما سكنت الأمور من حروبها معهم وتوطدت قدمها في الملك من وزراء {وُلُفَ} وولاتها من كثرة أتباع {شيخنا} وانقطاع مريديه عن أقاربهم ومعارفهم للخدمة والذكر كما مر بك أنه بعد السلوك أول ما يأخذهم به الأعمال والانقطاع عن ملاذ الدنيا مع الذكر وتعلم فرائض الأعيان من توحيد وفقه وتصوف وكان جل ما يتعلمون به من تواليه لكونه أعلم بما يناسب زمنه وما هو أولى بالتقديم ثم كثرت وتتابعت زيارات الخواص والرؤساء جدا فضلا عن العامة وكان دويهم في كل ناحية من نواحي {سنغال} يُسمع من بعيد وعليهم سيما تميزهم عن غيرهم من التشمير والجِدِّ واجتماع الهمة في أوامر شيخهم لا غير وبهذه كثرت الشكايات من كل جهة بعضها من المسلمين وبعضها من الأمراء لأن المسلم يخاف من اختلاء زاويته والأمير من تفرق حاشيته وذلك أمر لا بد حاصل من تيار [79] هذا الأمر المستقبل الجديد وما كان بدعا من عظماء القوم من تكنفته الأعداء والمنازعون أول ظهور مقدمات اعتلائه علي الأقران والمعاصرين وقد ورد في الخبر {المؤمنُ بينَ خمسِ شدايدَ مؤمنٌ يَحْسُدُهُ وَمُنَافِقٌ يَبْغِضُهُ وَكَافِرٌ يُقَاتِلُهُ وَشَيْطَانٌ يُضِلُّهُ وَنَفْسٌ تُتَارَعُهُ} فالشيخ لا جرم بعد أن حفظه الشرع من الشيطان والخشية تغلبت علي النفس تسلط عليه البشر وهو أظلم الثقلين وأجهله ليتم بذلك البلاء وتتحقق المحنة فيتخلص إبريزه من **زائفهم** فيلتحق بورثة الأنبياء وأولي العزم من الرسل ويتمكن من مقام العبودية الخاصة مقام وراثته صلي الله عليه وسلم وجاء في الحديث {إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل} وأشد البلاء فتنة الأصدقاء الجاهلين ومكيدة الأعداء العاقلين وسموم عقارب الأقارب وهم إحوه الدين من عامة المؤمنين إلا أن المسلمين لا

تمكن لأكثرهم المجاهرة بالشكوى لكون أمر {شيخنا} بينا من حيث الدين والعلم واضحا صحيحا من السنة وطريق السلف وما ثم إلا إقبال الناس إليه دونهم بلا سبب يرى وتزايدهم المستمر واستخفاف مرديه بكل ما سوه لكماله في أعينهم وعظمته في قلوبهم لما هو لم يزل ظاهرا عليه طفلا وشيخا من هيبة الولاية وعز التقى والعدالة والقوة الخارقة في الانتصاب لأمر الله فصار [80] بعضهم يستمد منه علي طريق الموالاتة **يتلمذ** له بعد الرئاسات وبعضهم بقوا علي ما كانوا عليه وعرفوا أن لله اختصاصا يجعله حيث يشاء أما الأمراء والوزراء ومن إليهم فكابدوا المريرين وفتنوهم وصادروهم أموالهم وكل ذلك والأمر يزداد عليه تفاقما والناس إقبالا فرفعوا شكواهم عن **مواطأة** إلي الحاكم العام في {اندز} وسألهم أين شيخهم وما منشئهم؟ قالوا له شيخهم {الشيخ أحمد بنّ} وهو عالم عابد ما عرفنا عنه شيئا من الظلم ولا عرف عنه العلماء نكرا فأجابهم أنهم إذا لهم إخراج مرديه من بينهم إلي بلد شيخهم في آخر أرض بؤل {امبك طوبى} مسكنه فانقضت الأمراء علي المريرين من كل جهة وأحرقوا بيوتهم وأخذوا زروعهم وما حصلوا علي مال ولكن التلامذة إذ ذاك عيابهم خفاف لما ألفوا من التقشف والرياضة فتوافقوا جميعهم لدي {شيخنا} فكتب إلي الحاكم العام بالخبر وبالخاصل فتحسس الأمير ولم ير موضعا للخوف ولا أثر للظلم إلا الحسد من الأمراء والغيرة من بعض المسلمين علي جاههم من التلامذة المحيطة بهم وصاروا يتسللون من عندهم لاتباع {شيخنا} فأمرهم بأن يتركوا المريرين يسكنون حيث شاءوا ما لم يتميزوا عن الناس في عدم مراعات القانون [81] العام أو مراسم الدين الإسلامي وكانت

هذه الأمور خلال سني {وسش وزسش} فسكنت
الحساد والوشاة قليلا وبقي {شيخنا} في {طوبى}
خلوته مع ذوي تربيته إلي أن انتقل إلي {جُلف} أول
منزل لأجداده في بلاد وُلْف وبنى في {امبِك باري}
وكانت قرية مندرسة فانصرفت الوجهة إليه من كل
أرض وخطب وده الرؤساء من كل بلدة وأتته الزوار
من مردين وأشياخ وأمراء فتمطت الوشاة من
انكماشها فأخذت في تليفق الشبهات وتصوير
الأقاصيص والترهات واتصلوا بمن لهم قَدَم في
الحكومة ولسانٌ يصاخ إليه فوضعوا في الحادثة ورفعوا
والحاكم {لكليز} حاكم {لكة وجلف} كانت فيه خفة
وطيش لا يباشر الأمور بنفسه مع ضميمة أنه قد بلغ
ذكر {شيخنا} وكثرة مرديه مبلغا يتخوف عليه كل من
لم يعرف حقيقته من استهانتته بأمر الخلق وإن جل
فإنه لا يراهم ومن كرهه للقتال ونعيه علي الأولياء
والعلماء المجاهدين ما آل إليه أمرهم من الفتن
الداخلة في القلوب والحروب وراثته لهم ومن عرفه
يتحقق أنه لو لم يذهبوا به لذهب بنفسه إلي بادية
يصعب إتيانه فيها أو إلي الحج ويجاور في المدينة رغبة
في العزلة والتنسك وإيثارا للخمول لو أراد الله ولكنه
تعالى لم يردّه انظر إلي ما أجاب [82] به {لَتَجُورُ}
فيما مر وما أجاب به {عَال بُور} بعده فهل رأيت من
ينصح للأمراء ولا يداهن في ترك الجند ويأمرهم بالزهد
في الدنيا والإقبال علي الله في زمن كانت آمالهم
متعلقة به لو أراد أمرا كما حاوله هذا الأمير وصرح له
به {عَال بُور انجاي} أمير {جُلف} وكلبه منه فأجاب
بنفس الجواب للتجور وزاد فيه أن ضرب له مثلا فيمن
ينازع دولة {فرنسا} منهم أنه كمن ربط أكباشا يعدها
لحادثة فأطال بها في حبال الربط ويعتني بعلفها ويلين

في لمسها رغبة في سيمنها فصارت من الجهل تناطح
القيّم وتدافعه عن العلف والماء فصبره لها ما هو إلا
الاستعداد بها ليومها فقط فكذلك مناوشتكم أنتم
وأمثالكم ممن يذكر الجهاد ما هي إلا إيماء يصير وباله
علي المومي فسبحان من يعلم ضمائر عباده ويستترها
عن الخلق غيرة عليها حتى يبلغ الحسد والتليبس في
أحد مبلغا يتهم منه بالدنيا من يعتافها وأهلها هذا
الإعتياف ويظن فيمن لا يتسبب بأدنى سبب لآمر
عظيم أو حقير إلا بترك التدبير والاختيار بيد ربه الكريم
الذي من يتوكل عليه فهو حسبه أنه يستولي عليه
الهُوى حتى يدنس دينه العزيز بخرقها البالية وجيفها
القدرة التي لا تقرب إلي الله ولا تنفع في الآخرة [83]
ولكنه تعالى يهدي من يشاء ويضل وهو الحكيم العليم
أراده ليكون سبب فلاح له وأسباب شر وشقاء
للمتسبين الذين إن رأوا حسنه دفنوها وإن رأوا سيئه
أذاعوها بل وإن لم يروها خلقوها.
قال الشاعر:

*

*

ولكنه تعالى يعلم السر وأخفى ويعلم بالمكر ويحضر
النجوى رد كيد أعدائه علي نحورهم فأظهر مناقبه
ومزاياه علي رغم أنوفهم مما ستقف علي بعضه عند
ذكر رجوعه من هذا السفر الذي هذه الأمور مقدمته
إن شاء الله تعالى.

نرجع إلي طلائع الحادثة ولما آمن {لِكَلْبِرْ} في
{لوكه} للوشاة أنهي الخبر إلي الحاكم العام في
{اندر} فطلب أن يأتيه {شيخنا} بنفسه وحين بلغ

{لِكَلِيرٍ} إلي {شيخنا} كتاب أمير {اندَر} وكان به عذر إذ ذاك أرسل أخاه {الشيخ إبراهيم} عضده وبده اليمنى نائباً عنه ومن القضاء أن الواشي شكك الحكومة في أنه لا يأتيهم إن أرسلوا إليه وأنه لو أتاهم لا يرفع لهم رأساً ذلك لأنه عرف شيخنا وعرف منه سلامة صدره واستخفافه بالدنيا استخفاف أبله لزهده فيها زهداً حقيقياً لم يتكلفه وقد علم أنه لا يقدر أهوال [84] الدنيا وأمورها ذلك القدر ولما لم يأت وأتاهم {إبراهيم} كاد الحاكم العام يتميز غيظاً لشبهة الواقعة فأطلق يد حاكم {لوكة} في {شيخنا} فعلاً هذا عسكره لا يشك في الحرب وشيخنا لم يعلم بالمبلغ عندهم إلي أن أتاه الخبر فقال إني ما كنت أظن أنه بلغ عدم إتياني هذا عندهم فأرسل {الشيخ إبراهيم} ثانياً ليوضح لهم أنه ما كان حبسه إلا عذر فقط إذا كانوا في حاجة إلي لقائه إلي الآن فهين عليه أن يأتيهم فلا يفسدوا أموالهم في التعبئة مع شين السمعة بجانبهم ولا هنا شر ولا حرب فوافقهم {الشيخ إبراهيم} عند {جاول} ومما يبين لك أن الأمر مبدؤه الحساد وشبههم فقط أن {الشيخ إبراهيم} حكى علي أنه حين قابل الحاكم وأخبر الترجمان بحاجته أجابه الحاكم جواباً لا يناسب كلامه قال ففهمت أن الترجمان حرّف وأن ذلك هو السبب في جميع هذا قال فذهبت إلي {بَرْيَانُ جَوْ} فطلبت أن يترجم لي بحاجتي عند الحاكم فأسعف وأخبر الحاكم أنني اتهمت الترجمان فأحببت أن يترجم لي غيره فأنصت الحاكم وتكلمت معه فشرح الترجمان الآخر حاجتي كلها حتى فهمها فسُرِّي عن وجهه وتهلل وقال نعم ما فعلت فإن الرجل لم يبلغني هكذا قبل وإذا كان كذلك فإني لا أتكم بل أمكث وترجع أنت إلي أخيك [85] تبليغه

الرسالة ليأتي هنا غدا وليذهب معك الترجمان الأول
فلان وإنه من أكابر الوشاة أول الأمر وهو الآن حامل
اللواء قال {الشيخ إبراهيم} وحين عرف فهمي لحاله
وصار لا متعلق له بعد كشف تلبسه في أن {الشيخ}
لا يأتي طوعا طفق يحتال علي في أن لا أبلغ محل
{الشيخ} إلا فوات الميعاد لتحصل شبهة أخرى علي
الأولى يُؤكِّد بعضها بعضا فجعل يتباطأ ويتكاسل وقال
لي إني لا يمكن لي الذهاب من حر الشمس انتظر
حتى يبرد النهار ولما برد النهار خرجنا إلي محل قريب
فقال لي لا أذهب حتى أتعشى والعشاء لم توفد ناره
بعد ثم بعد ذلك قال لي قد أخذني النعاس فاذهب أنت
إن كنت مستعجلا مع هذا الدليل لأنه سلك به طريقا
غير طريقه الذي عرف قال فأرسل معي رجلا وأوصاه
سرا أن يُضِلني في ظلمة الليل ولكن الرجل {الشيخ
إبراهيم} علي دماثته وسكينته داهية لا يخدع قال
ففهمت الرجل فتركته واستدللت بالنجوم {وبالنجم
هم يهتدون} وصَوَّبْتُ لمحل {الشيخ} قبلة النجم
الهادي إلي أن وصلت إليه سُخَيْرًا قال فألفيت
{الشيخ} في مصلاه والأمتعة حوله والمريدون الذين
يحملون وقوف ولما أتيته بادرني بالسؤال ما فعلت؟
فبلغته [86] بعضا فقاطعني قائلا قد التبست الأمور
وتدنست تدنسا يحتاج إلي صابون كبير وماء جم
وقصَّار قوي قَرَّب لي الفرس وأستودعكم الله الذي لا
تضيع ودائعه عليك بالعلم والتعليم والحرث وإليك الأهل
والعيال امكث هنا ما أمكن وإذا نبا بك فارجع إلي
{بَوْل} فركب إليهم راضيا بالقضاء والقدر ملقيا زمامه
بيد رب الأمر والنهي متمسكا بكتاب الله ورسوله صلي
الله عليه وسلم وقد وادعته الدنيا ثم وسلبته جميع
زخارفها بعد هذا الإقبال العظيم ولكن بحال أعظم

أقبلت إليه المعارف وخطبته المقامات السنينة فكان ذلك اليوم بابا باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب وبقدر كلوح وجوه مرديه وأخلائه الجسمانيين من فراقه أشرفت وجوه الرفيق الأعلى أرواح {أهل بدر} ومددهم من الملائكة العلويين لصحبته فكان بمقدار بينونة هؤلاء حضور هؤلاء وفي هذا السر يقول:

*

*

من قصيدة طويلة منسجمة بديعة رائقة أنشأها حين وصل إلي {اندز} محل الحاكم العام في المدة التي ينظرون [87] فيها للحكم وهاك نص الرحلة تبركا به في الكتاب ثم بعدها التلخيص كما وعدتك إن شاء الله تعالى وهو الموفق للصواب ومنه أرجو أن يسعد بالكمال والإكمال وأن يكرم بالقبول والثواب.

{تتمة}

كانت هذه الغيبة من أغرب الأمور وقد هجمت من غير انتظار وتوقع لا من الحاكم ولا من المحكوم عليه إلا ما كان منها تحت أسرار القضاء ومكنون القدر بما دبرته الحكمة الربانية وخبأته العناية الصمدانية لتتخذها حجة علي الغير في إعلاء كلمته برفع مقام {شيخنا} رضي الله عنه علي مقامات المقربين بعد الأنبياء والصحابة، حضرته ذات يوم وقد جري ذكر لبعض ما عانى من المشاق فيها والمحن فتأوه أحدنا وتوجع وقال لله ما أشد هذا البلاء فتبسم {شيخنا رضي الله عنه} وقال شديد ولكن معاذ الله من أن يكون لم يقع فإن المكانة

والحظوة التي مكنت منها ما كانت لتكون إلا بسبب
يوازيتها عظمة والأمر والله كذلك.
{حكى} عليّ العلامة {الشيخ امبَكِّ بَصُّ} أن تلك
الكوارث وما وقعت كانت لهم بحسبان فإن {شيخنا}
يوم ينتقل إلي {جُلْفُ} أرسله إلي أمير {اندَرُ}
يشاوره في ذلك كما سبق من كثرة الخلق ووفودهم
وخطر تفاقم الإقبال إليه بلا سبب إلا من الله ملك
الملوك قال {الشيخ امبَكِّ} فوافيت أمير [88] {اندَرُ}
فرحا بالرسالة والمشاورة فردني إليه مُكْرَمًا وأرسل
معي حملا كبيرا من القماش تحفة له فما درينا والأمر
علي ذلك حتى أظلمت علينا الدنيا بدسائس الوشاة
ومكائد الجواسيس وتتابع **أرسال** الحكام والأمراء
للبحث والتنقيب إلي أن كان ما كان.
{قلت} ولكن الله إذا أراد أمرا هيا له أسبابه كان
{شيخنا} يفر من الناس ويتبرم منهم ويكره أشد
الكرهية تعظيم المرئيين له وتزلفهم إليه بأنواع الهدايا
والخدم وإيثارهم إياه علي أنفسهم وأموالهم وكثرة
وفودهم الزائدة وتطلع الأمراء إلي مواصلته ليتخذوه
رداء دون النوائب وهو كما هو مقاطع كل ما سوى الله
ورسوله متوجه إليه تعالي بكليته متفان في جلاله
وتعظيمه هائم في محبة رسوله وأصحابه صلي الله
تعالي عليهم وسلم معهم.
{حكى} علي {حمزة جَحَتِ} أنه تذكر يوما يعرف
والده وقد أتاه زائرا والغلام بجانبه وقال لي سمعت
من جملة ما قاله للوالد إنني أتيت لسفر بعيد في هذا
الأوان فقال له الوالد لعله {جُلْفُ} الذي سمعت فقال
لا وليس من جنس ذلك هو سفر.
{وحكى} علي غير واحد من المرئيين أنه من كرهه
لازدحامهم عليه أتى للمسجد وتبادروا لفرش سجّادته

حتى كادوا يقتتلون عليه فسكنهم ثم قال {لأضعن
سجادتي [89] حيث لا يقربني أحد يعين في فراشه إن
شاء الله} بعضهم يقول إنه يضم الحج ثم السياحة
منفردا بعد ذلك وبعضهم غير ذلك والله أعلم بمراده
إلا أن الحج قطعاً كان قلبه وقد أبدى لأمينه أخيه
{الشيخ إبراهيم} بعض أسبابه ولكن الإشارة في وضع
السجادة حيث لا يطمع فيه أحد يجعل معه سياحة
ويومئ إلى الكهوف والغيران ولعله لَوَّح علي السفر
الواقع يوم أتم كتابه في الصلاة علي النبي صلي الله
عليه وسلم {مقدمة الخدمة} قال لي بغمه أنه هو
سبب الغربة من إجابته له نعمة في طي نعمة قال لي
ذات يوم {الحمد لله ما ازددت يوماً بما وجب الإيمان
به ولم أزد تحفظاً من الورع ولا حبا في الخير ولا
قياماً بالعبادات مذ كلفت إلي الأب} فقلت له إذا ما
ازددت به في الغيبة إذا فتبسم وقال لي {ازددت كثيراً
منه المعرفة والوصول واليقين بمراتبه ومواهب لا
تتناهى} كان ما كان فذهب وترك أهله وعياله ومريديه
وجعل أمره إلي أخيه {الشيخ إبراهيم} ثم لما مكث
في {اندز} مدة أرسل إليه كتاباً وفوض إليه النظر في
محل الإقامة بالعيال في أي دوره شاء ثم لما سافر
إلي الجزر مكث {الشيخ إبراهيم} في {امبك باري}
في {جلف} ريثما يصلح الحرث لأن الغيبة حصلت في
أواخر خريف عام جيسش 1313 ثم انتقل بالعيال
والأمتعة إلي {امبك بؤل} وقام [90] بوصية شيخه
وأخيه أتم قيام واجتمع المريدون عليه وسعي في ذلك
ابن عمه المرید الكبير {الشيخ أحمد ثمب} وحث
المريدين علي مواصلة الخدمة وتجديد الإرادة وتقدم
هو في ذلك وجدَّ فجزاه الله خيراً وشكر له مسعاه وما
توقفوا عن العمل بالإرادة والقيام بأوامر {شيخنا}

وجمع كلمتهم علي المستخلف {الشيخ إبراهيم} إلا
ريثما غشيتهم الدهشة المظلمة من فجأة مصيبة فقد
شيخهم الكريم ثم صاروا يدا واحدة وجاهدوا بالمال
والنفس في سبيل ربهم بترقية جميع أعمال البر
والمداومة علي التعليم والخدمة قام {الشيخ إبراهيم}
بما أوصاه به {شيخنا} من التعلم وقد أتقن فنون
العلم درسا وفهما وسما بهم علي المنهج الذي رسمه
له المربي المكرم ولم يمل عنه فنصب الشيخ الوقور
{عبد الرحمان لوان} لتدريس القرآن وفي مكتبته أولاد
{شيخنا} الموجودون إذ ذاك وليس منهم من لم يكن
في سر التعليم وقتئذ فقام هو أيضا بوظيفته أحسن
قيام وتواردت عليه أبناء المريدين وغلماهم وأسكنهم
{الشيخ إبراهيم} في {طوبى} لانقطاعها عن القرى
فحفظ القرآن جل من كانوا معه في السبع السنين
التي مكثها {شيخنا} في البحر وأتقنوه وما زالت تلك
وظيفة {الشيخ عبد الرحمان} الإقراء والتصحيح منذ
ذاك إلي يوم كتابتي لهذا وهو عام جنسش 1353 فله [91
الحمد والمنة نيف وأربعون سنة يخدم القرآن
بنفسه ويخدم به غيره ولم أر فيمن رأيت أبرك منه
تدرسا وتعلما ولا أقوى منه في القيام به يختمه في
اليوم والليلة مرة ومرات ويقوم به في صلاة في اليوم
والليلة مرات ومع هذا فلا يشغله شيء من لوازمه من
التعليم وتفقد الضيف والعيال ولا ترى عليه أثر نصب
كنت أتحدث معه يوما في قيامه فذكر غرائب فقلنا له
في ذلك فقال ما ذاك إلا من كرامات {شيخنا}
العديدة فأننا اليوم نيفت علي السبعين ولا أحس بفتور
إذ قمت بالقرآن في ركعتين ولست بأعجب من
{الشيخ إبر قال} الذي يقوم بخدمة {الشيخ} وخدمة
المسلمين ويجتمع عليه أبناء الأمراء وبناتهم الضعفاء

والمريدون أهل التربية الذين لا تشغل لهم إلا إصلاح النفس وتطهير القلب وهو مع كل ليلا ونهارا ويرقي هممهم كلهم إلي طلب رضى المولى والدار الآخرة وسخر الله له الأمراء وخولهم وحشمهم وأضعافهم من المريدين وقواه علي تربيتهم والرفق بضعفائهم فتعجبنا من تبصره وعدم رؤيته نفسه في أعماله فشكرت الله علي وجود أمثال هؤلاء من آثار بركة معرفة {شيخنا} والسلوك علي يديه وقد ذكرني هذا ما أخبرني به {ابن الحسن انجاي} أن أباه كان يقول لهم اجتهدوا في إقامة الفرائض وما اقتدرتم عليه من النوافل فإني منذ تعلقت [92] بهذا الشيخ إلي يومي هذا ما أمرني بشيء يجر إليه نفعاً دنيوياً إنما يأمرني بما ينفعني من طاعة ربي.

{قلت} وكان {الحسن انجاي} من بقية الصالحين صَوَّاماً قَوَّاماً لا يفتر عن القرآن دائم الاعتزال كثير الأتباع المريدين من أقدم من اتبع {شيخنا} وعاش معه ما يُنيف علي الأربعين كان ذات يوم أرسل إليه أخو شيخنا {مَمَّرُ جَارٍ} الكثير الصلاة والتلاوة أحد فرسان الليل وكان ورده مائة ركعة كل ليلة أرسل إلي أخيه في طريقة {شيخنا} {الحسن انجاي} وأخيه أيضا في التبتل أن طال عهدي بك فلم لا تزورنا؟ فرد إليه الرسول وقد نزع شيبة من رأسه يقول له هذا الضيفُ أزعجني عن كل شيء كنت أريده من أمور الدنيا.

فلنرجع إلي ما كنا بصدده لئلا يُخرجنا تعدادُ مثل هؤلاء من تربية {شيخنا} عن ما كنا فيه من ترتيب الحوادث وإنهم لمثال صدق من قومه الحقيقيين الذين وفوا معه بعهده واقتدوا به وإن لم يشقوا له غباراً فعلمت أن {الشيخ إبراهيم} أبقى {لعبد الرحمان} رسم إقراء

القرآن وعصده بجمع المتعلمين عليه وقام بلوازمه وكذلك قام الشيخ الجليل {أحمد نُمبِ} بتفقد المريدين وإحاثهم علي مواصلة السير في طريق الشيخ المرسوم لهم تربية وترقية وهو التعلّم لمن تأهل له علي {الشيخ إبراهيم} والخدمة والارتياض عنده [93] أيضا والزيارة والاستفادة منه والقيام بالمصالح فهو من أكابر المتصدرين المقيمين مع العيال عند النوائب المفحّم فقام كل بما نيّط به وسدّدوا السلوك وجددوا الطريقة وقام بالمسجد {الشيخ إبراهيم} كقيام مُستخلفه فهذا استدام السير علي ما خطه {شيخنا} وتجددت الطريقة وكثر المريدون وكان {الشيخ إبرَ قَالَ} في {اندَرُ} يبحث عن شيخنا وعن أي بلد هو فيه ويكلم الدولة ويبين لهم حقيقته وأنه واثق بأن لو علموه لما اصغوا للوشاة وهو مع ذلك يرسل الهدايا الكثيرة للشيخ إبراهيم وذلك أن شيخنا أوصاه بمعونة العيال عند الشيخ إبراهيم وبصلة من كان تلزمه صلتهم من الأقارب وأصدقاء الدين فبَرَّ هو أيضا فيما جعل فيه فإني لم أزل أتذكر تلك الأحمال الثقيلة التي كان يرسلها إلي {امبِكِ} وجلائل هداياه {للشيخ مَمَّرُ جَارُ} للصلة والبر بالنيابة عن شيخنا وعطاياه الجزيلة للفقراء المنقطعين المهاجرين أوطانهم للرباط في إقام الدين وإعلاء كلمته من عيال {شيخنا} الذين فقدوا بفقده مُمَوِّتَهُم وما أكثر ما ناله من الإذاية في {اندَرُ} والسعاية لكثرة مريديه وكثرة مجاذيبهم في جمع لا يعرفون إلا المظاهر الكيسة والرفق واللين وما أعظم صبره لهم واحتماله وما أكثر فوائده عليهم وبذله لهم علي أنه جاثم علي شيء عظيم [94] من مراقبة مولاه خوفا وإجلالا ولم يلبث أن تكاثرت مريدوه وأتباعه كثرة فائقة وقام بتهديبهم

أتم قيام وراضهم بالعمل والآداب فاستقاموا عليها
وكان من تجسسه لحال الشيخ تبينت الحكومة الأندرية
ما كان لبسه عليها الوشاة من أمر شيخنا فأمنوا شره
وعلموا أنه لا يريد عرض الدنيا فصاروا يصغون له إذا
لفتهم إلي البحث في أمره حتى أدي ذلك إلي ترداد
النظر في آثاره فلم يلبث أن زال الشك في كونه
ربانيا لا يعرج علي الدنيا فهان عليهم ما كانوا
يستثقلونه حتى ترتب علي ذلك **بعد الای** قدومه رضي
الله عنه عام كسش 1320 بقضاء الله وقدره يوم
العشرين من شعبان من الجزر فتقدمت البشرية إلي
التلامذة وعين لهم يوم النزول في {دَكَازُ} فذهبت
أكابر التلامذة والأشياخ لتلقيه وقد تكرمت الدولة بفتح
الأبواب لهم وفسح في المجال وبثت في وجوههم
بشاشة أنستهم ما سلف من الأشخاص القساة
المتهورة قبل فحملته في السفينة من {كَابُونُ}
محفوا بالإكرام وجميع أمتعته وهي كثيرة شكرا لله
علي مواهبه وخفي لطفه فإنه ذهب فقيرا وحيدا إلي
بلد مظلم بين قوم هم أخط الناس عقولا وأرذلهم
أحوالا لتهمة لطفه بها أشخاص أدنياء حجبوا الدولة عن
محاسنه الجمة بخدعهم ومكث تلك المدة الطويلة لم
[95] يتسبب ولم يقبض من الحكومة فلما واحدا بل
منقطع إلي الله لإقام العباداة والكتابة في خدمة رسول
الله صلي الله عليه وسلم بإحياء سنته عملا وقولا ولم
يزل الله يقيض له حيث كان من يرغب في نصرته
ويسخوا له بخيئته مصداق قوله صلي الله عليه وسلم
{من كان لله كان الله له} وهو يختص برحمته من
يشاء وبعد أربعة عشر يوما رست السفينة بـ{دَكَازُ}
في التاريخ لمذكور وقد غص المصر بالمريرين ووفود
القبائل لتلقيه والابتهاج به وتحركت {سِينَعَالُ} من

أقصاها إلي أقصاها من السرور والفرح بقدومه فنزل
مكرما ثم ركب إلي {اندر} سفينة البر وامتلات من
مشييعه إلي أن وصل وبقي فيها أياما وهي تموج
بالزوار ثم أذن له في الذهاب إلي قراه فركب منها
إلي {لوكة} ثم منها إلي {دار السلام} خلوته الأولى
في {بؤل} وقد ظهر أمره بمظهر جديد نسبة ما قبله
إله نسبة الواحد إلي المائة من الحث علي الإسلام
وتجديده والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحياء
سنة رسول الله صلي الله عليه وسلم وذكره ونشر
القوائد الرائقة قلائد عقيان في مدحه صلي الله عليه
وسلم والثناء علي الله بمناجاة رقيقة تتضمن بوجهة
أخرى علوما جمة دقيقة وأحوالا باهرة عظيمة
فتضاعف انجذاب القلوب إليه وإقبال الخلق [96] وأخذ
الأكابر عنه والرتع بيانع روضة الغض بما تجدد له من
الحقائق والشريعة علي لسانه صلي الله عليه وسلم
تقريراً وإذنا خاصا ضمن الأمر العام بلا ابتداع ولا
تشويش آمن أخذ عن تقليد كمن أخذ عن معرفة
وبصيرة لا ولا قريبا منه فعمل علي نور من ربه خلوا
من ربقة التقليد إلا ما أتاه من رسول الله صلي الله
عليه وسلم فكان تابعا مقتديا لم يمل ولن يميل بكتاب
الله وسنة رسوله صلي الله عليه وسلم وإجماع أمته
باختياره صلي الله عليه وسلم فصارت طريقته
مستقلة لا تستند إلا إلي مخدومه صلي الله عليه
وسلم بلا واسطة سواء مما رتبته مما لم يسبق فيه
أحد أو اختاره له وقد سبق في وضعه أحد بأمره إذ
الطرق الصادقة كلها صادرة عنه وراجعة إليه وهو
صاحب المقام بالإضافة الحقيقية أما لغيره فمجازية
وأعني بالطريق المصطلح عليها عند الصوفية وهي
المعبر عنها بالورد لا الطريق الشرعي المتعبد به

فذلك هو الذي خلق لأجله وجبل عليه وانتصب له
وعليه اندرج معه تابعوه وهذا المعني هو المتحرر عنه
بقولنا ضمن الأمر العام بلا ابتداء ولا تشويش فقد
استحكمت الشريعة وغيرها ردُّ علي صاحبه فعليها درج
وبها قام وفيها مضي وجعلها كلمة باقية في عقبه
{ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك علي كل شيء
قدير} فبهذا أخرج [97] للمريدين ورده الخاص بإذن
من الله تعالي بواسطة رسول الله صلي الله عليه
وسلم ولا يد لأحد فيه إلا الله ورسوله ولا مئة وسيأتي
إن شاء الله تعالي ذكر أوراده وأحزابه وبعض وصاياه
في الكتاب بعد سرد أمهات الحوادث في سلسلة
الحياة الأولى فتري أنه أتى لخلوته {دار السلام}
ومكث فيها شهرا ثم انتقل إلي داره {دار المنان}
فمكث فيها أشهراً لا تزال فيها الناس يموج بعضهم
في بعض فطرق الجهات إليه ملئاً ليلاً ونهاراً للقادمين
والصادرين حتى كاد سير النظام يتعطل من اشتغال
الخلق بأمره لعمومه وتفاقمه مما لم يتسبب فيه
بأدنى سبب خفي أو جلي إلا الظهور لنصرة الدين
والاستقلال بالسنة ونبذ الدنيا وراءه ظهرياً وبذل
مصالحها المتدفقة عليه لروادها والمستحقين لها
فكانما كانت هذه المحن السابقة مقدِّمة لما سيفتح له
في المستقبل من المزايا الجليلة والخير الضافية كما
كانت غربة {يوسف} عليه السلام وسنوه مقدمتي
فتح وملك وتمكين وكما كان التضييق والإيذاء والمكر
مقدِّمة فتح مبين ونصر عزيز واستخلاف وتمكين وأمن
لمخدومه الأسني وسيده الأكرم سيد الوجود صلي الله
عليه وسلم وأصحابه البررة الكرام {وعد الله الذين
آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض
كما استخلف الذين من [98] قبلهم وليمكن لهم دينهم

الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا { ما ترك لوجه الله أخلفه الله إلا أن كل ذلك لم يكن ليثني عزائم الشرار الفاسدين عن التهويل والتخويف منه جهلا بصنع الله الذي أتقن كل شيء فحركوا كل ساكن في {سِينَعَالٍ} وأقاموا الدولة وأقعدوها بافتراءات هي أعظم من ذي قبل وأنهوا إليها أن دياره ممتلئة من آلات الحرب وأن الناس حتى بعض أركان الدولة من السودان وجميع مشايخه الكبار وكل مريديه وهم أكثر من ثلث أهل القطر تعاقدوا سرا وتعاهدوا علي الثورة والحرب وأضافوا إليه شبهة ثانية في عدم إتيانهم حين أرسلوا إليه وبطئه لأمر بينه وبين ربه من التوقف في الأمور إلي أن يرد إذن خاص وتموج الناس أفواجا كالفراش المبتوث أضف إلي ذلك صفة المدير المتسبب في التغريب أولا صفة الجرأة والإيمان بنفسه والتهوُّر والاستشاشة فأمر بتعبئة الجيوش الجرارة وحشد الجنود من كل جهة فيالق وعساكر كل هذا وهو غفل عنهم لم يبلغه شيء عن نياتهم ولم يستفزه شيء من حركاتهم مكب في خدمته لرسول الله صلي الله عليه وسلم والعكوف بالعبادة إلي أن أذن له ربه علي لسان نبيه مخدومه صلي الله عليه وسلم بالرحيل [99] إليهم مع الإيقان بأنه لا يفسد شيء أمام ووراء فخرج رابع عشر من ربيع الأول عام أكسش 1321 وقد قال له بعض أمنائه من المريرين أولي الجماعة الكثيرة إنا نلتمس منك لوجه الله تعالي أن لا تتركنا وراءك إلا أن نحتشد للجهاد حتى نموت أو نتصر وهم إذ ذاك ليسوا بدون من جنود الملك مع أن جل عسكريه في قلوبهم الخيانة لينصروا الشيخ وأجابهم بكلمته الذهبية {إِنِّي لَمْ أَرْجُ صَدِيقًا وَلَمْ أَخْفُ عَدُوًّا وَزَمَامِي بِيَدِ اللَّهِ} فما أجدره بقول أبي تمام

*

*

ثم قال إن هذه الحركة مع كثرتها وتشعبها لن يفسد لنا منها شيء ولو قل فكان كما قال فإنه ساعة ما رآه أحد رِسل الأمراء لم يتردد في القطع بأن الشيخ بعيد مما ظن فيه من أمر الدنيا وحبِّ المُلْك فسقط في أيديهم ثاني مرة ولاستحكام الخزي في أركان الأمر طالبوه بالسكنى في أرض الصحراء الكبرى لا تغريبا وهل ليكون بين المشايخ الكبار من البيضان ليتضاءل أمره بين تلك البيوت العظام أو لأن تلك الأرض في ذلك الحين موضع القلاقل وفساد اللصوص ويشغل الإنسان فيها حراسة نفسه دون محاولة أي أمر أو لوجود [100] أمين الدولة {الشيخ سيدي} بها فيكون بقربه مع ما كان بينهما من أواصر الدين والطريقة من قبل هذا مما يحول في خاطر كل متجسس للخواطر السياسية سواء لأجلها أو لأمر آخر لا يبلغ فكرنا عمق مورده من جهابذة السياسة ورقباء الحركات أمثال {ميرلين} وفلان وفلان ومهما يك من شيء فلم يلبث والحالة هذه أن مضى إلي تلك الأرض مع بعض من تلامذته وأمتعته ومن معه في هذا السفر خالي {مصنوب خر جوب} فخرج من داره {دار السلام} يوم السبت في ربيع الأول عام أكسش 1321 من هجرة المصلى عليه صلي الله عليه وسلم كما تقدم معه بعض من ذكرت إلا {بلَّ امبك} ورجال آخر يحيط بهم الجيش من كل جانب من القواد البيض وصغار الحكام

وجيوش الأمراء كـ {بُورُ سِينُ كُْمَبَ} وهو الذي سبق فيه من الأمراء المحتشدين، حكى علي أحد غلمانه الذين كانوا معه أنه لما اقتربوا من محل الشيخ كان يتوجع من هذا الظلم الموجه إلي هذا المسلم الذي لم ترن عينه قط إلي الدنيا لأمر كاذبة لفقتها الحساد ويقول إنه يعلم يقينا أن الله تعالى لا يغفل عن هؤلاء الفساق ولن يترك عبده ليصل إليه ضرر الظلمة ولو أن يكبهم علي وجوههم قال الحاكي ولم أتعجب من شيء تعجبي يوما من أمر هذا الشيخ ومهابته وتسخير [101] الله له الخلائق فإن {بور سين} الذي أعرف تهوره وقساوته وتكبره وإن كان يستر هذا الخلق بأدبه وكرمه وبشاشته ورفقه ولم يلق الشيخ قط ونحن معه شبان لا نعرف لغير اللهو واللعب طريقا وراءنا جنود {فرنسا} يسوقوننا مما أقلقهم من لسان ذلك النمام الكذوب الحاسد علي ما آتاه الله هذا الشيخ من الإقبال والعفة حين وقعت أعيننا علي الشيخ وهو خارج داره يقيم سبحة الضحى ليس معه إلا واحد أو اثنان وهو يريد تلقي الحاكم دخل فينا من الرعب والخوف منه ما لا يُعَبَّرُ عنه وفي مقدمتنا {بور سين} فلم نعلم إلا وهو جاث علي ركبتيه وقد نزع خفيه وقلنسوته وسلم عليه فقال له الشيخ من أنت؛ فقال له أنا {كُْمَبَ جُوفُ} الذي يقال له {بُورُ سِينُ} ومعناه أمير {سين} فكلمه الشيخ كلاما وجيزا فلاطفه الأمير في أن يذهب معه إلي الحاكم جنوب قريته دار السلام وامبك بول قريبا منهما فقبل له حتى أتياه وأخبر الأمير الحاكم خبر الشيخ وما عرف من أمره من أنه خال من كل ما نسب إليه فارتاح الحاكم لما قال له فالتمس منه أن يذهب معه في الحال إلي {انجربل} حيث يوافقهم جواب أمير {اندر} عن معلومات الحاكم مما

عائنه وأرسل رسولاً إلى قواد الجيوش القادمة من الجهات للحرب الموهومة أن النمام ذلك الحاسد صاحب {انجربل} مختلق كذاب [102] وأن نيران الحرب لم تجاوز حدود صدره فخان الحكومة وأفسدت من الأموال والأقوات ما لا يُعَوِّض فذهبت تلك الإشاعات أدراج الرياح، حكى علي أحد المريدين حاملي الأمتعة مع السيخ أنه لما أظلم الليل وهم علي الطريق فرق الحاكم بين الطوائف المشاة والركبان من ينادون بالسلام والأمن لشدة تحفزهم للقتال ومخافة أن يدسَّ الحاسد وقد استقبل يوم خزيه وافتضاحه من انتقاض افترائه من يرمي شرراً يؤمل منه وقوع اشتباك يُتذرع بها لإيقاد الفتنة ولكن {كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله} قال لي أحد المريدين أنهم في تلك الليلة بين الجنود لم يفتر السيخ عن التلاوة والصلاة كلما ازدلفت طائفة من الليل والجيش يسير بسيره ويقف بوقوفه وقد صدر من حاكم الفرق أمر بالسكوت التام فلا تسمع إلا همسا فأتذكر من هذا صدق الصالحين وقيام المخلصين قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما تركتها ليلة قيل له ولا ليلة صفيين قال ولا ليلة صفيين وأصل الحديث في الصحيح قال حدثنا علي أن فاطمة اشتكت ما تلقى من الرحا في يدها وأتى النبي سبي فانطلقت فلم تجده ولقيت عائشة فأخبرتها فلما جاء النبي صلي الله عليه وسلم أخبرته عائشة بمجيء فاطمة [103] فجاء النبي صلي الله عليه وسلم وقد أخذنا مضاجعنا فذهبنا نقوم فقال النبي صلي الله عليه وسلم مكانكما فقعد بيننا حتى وجدت برد قدمه علي صدري ثم قال أعلمكما خيراً مما سألتما إذا أخذتما مضاجعكما أن تكبرا الله أربعاً وثلاثين وتسبحاه ثلاثاً وثلاثين وتحمداه ثلاثاً وثلاثين فهو

خير لكما من خادم قال علي ما تركت منذ سمعته من النبي صلي الله عليه وسلم قيل له ولا ليلة صفين قال ولا ليلة صفين علي أنه حكى في التاريخ أنه سمع تلك الليلة منه أربعمئة تكبيرة، فأتوا لـ {انجربل} فنزلوا بقرب دار الحاكم منزلا ضيقا قال خالي {مَصْمَبَ خَرٍ} إنه لما عسعس الليل أخذ رؤساء الجيوش من قِبَل الحكومة يتسللون للسلام علي {شيخنا} والتبرك به وهذا مما ينبئك بمكانته في قلوب الجميع خص بالذكر كبيرهم وأجلهم من أهل {كجور} {مَيْسَ امْبِي بن دَمَبَ وَارٍ} قائد أمير {كَجُورٍ} {لَتَجُورُ} سابقا ومن ولاة فرنسا الأرض بعد قتل أميره المذكور ولما مات خلفه ميس هذا في مقامه عند الحكومة، حكى علي الخال أنه لما سلم علي شيخنا تبركا به صادف رحيلهم فتحزم وجعل يشتغل في إصلاح الأمتعة مع المريرين كأنه واحد منهم وقس عليه أمثاله وممن خانوا الحكومة في هذه الحركة [104]

{ شرح مقامات اليقين التسع }

فلنبسط هنا شيئا مما نشره القوم من ذلك **الملاء** المزين بدوائر رموز الأحوال وطراز المقامات تبركا به واستئناسا للقارئ الكريم راجين من الله تعالى أن يكتبنا في ديوانهم ويحشرنا بلطفه في زميرتهم ويجعلنا معهم رفيقا اللهم أمين أيد الأبدية في الدارين فنقول: إن العلماء المتصفين بخشيته تعالى الملتزمين لكلمة التقوى بمنته أثر أهل التعليم منهم عن أحوالهم أن مقامات اليقين تسع تُرَدُّ إليها فروغ أحوال المتقين والفرق بين المقام والحال ما أشعرت به العبارة فالحال سمي حالا لتحوله واختلافه والمقام مقاما

لثبوتة واستقراره فالحال عند أكثر الشيوخ مواهب لا كسب فيها للعبد إلا من حيث انتظار الفرج للمريد السالك والعناية الأزلية للمراد المجذوب وهو عبارة عما يلوح للمريد فجأة من الفهم والوجدان موهبة من الله تبارك وتعالى فُتَحَّرِكَ رَغْبَتَهُ مِنْ هَذَا الْإِنْتِبَاهِ إِلَى التَّرْقِي لِلتَّمَكُّنِ مِنْهُ وَدَوَامِ الْإِسْتِلْذَازِ بِهِ فَلَا يَزَالُ يَعَاوِدُهُ بِحَسَبِ تَوْفِيقِهِ وَاجْتِهَادِهِ إِلَى أَنْ يَسْتَدِيمَ عَلَيْهِ فَيَصِيرُ مَقَامًا فَالْأَحْوَالِ مَوَاهِبَ تَرْقِي إِلَى الْمَقَامَاتِ وَالْمَقَامَاتُ مَكَاسِبُ مَادَتِهَا الْإِيمَانُ وَالْإِتْبَاعُ لِأَنَّ الْعَمَلَ هُوَ الَّذِي [105] يَثْمُرُ الْأَحْوَالَ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ هُوَ قَرَعَ الْبَابَ وَانْتَظَرَ الْفَرْجَ وَالْمَخْرَجَ قَالَ تَعَالَى { وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ } وَقَالَ { إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فِرْقَانًا } وَقَالَ { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } وَالتَّقْوَى هُوَ شَعُورُ الْقَلْبِ بِعِظْمَةِ الْمُتَّقَى فَإِذَا تَمَكَّنَ هَذَا الشَّعُورُ يُحْدِثُ فِي النَّفْسِ بَدِيهَةَ الْخَوْفِ مِنْ مَخَالَفَتِهِ وَإِذَا نَبِهَ الشَّارِعُ أَنَّ هُنَاكَ مَضَارًّا إِذَا اجْتَنَبَهَا يَأْمَنُ مِمَّا يَخَافُ فَبَدِيهَةَ لَا يَغْتَرُّ بِهَا بَعْدَ مَا دَامَ عَاقِلًا وَمَنْ حِيلَتْهَا بَعْدَ الْإِعْتِصَامِ بِمَا يُؤْمِنُ وَلَا بَدَّ مِنَ الْإِسْتِطَابَةِ لِمَا يَلَائِمُهُ طَبَعًا فَيَفِيدُهُ الشَّارِعُ أَيْضًا أَنَّ هُنَاكَ جَمِيعُ مَا يَنْفَعُهُ فَيَحْرُسُ عَلَيَّ إِحْرَازِ مَا يَنْفَعُ كَمَا أَمَعْنَ فِي الْهَرُوبِ مِمَّا يَضُرُّ فَبِهَذَا تَرَى أَنَّ الشَّعُورَ يَتَقَدَّمُ عَلَيَّ الْعِلْمِ فَتَفْهَمُ شَيْئًا مِنْ مَعْنَى تَقْدِيمِهِ تَعَالَى التَّقْوَى عَلَيَّ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ } فَإِنَّ الْجُمْلَةَ اسْتِثْنَائِيَّةً لَا تَرْتَبِطُ بِمَا قَبْلَهَا وَلَوْ كَانَ جَوَابًا لِلشَّرْطِ أَوْ جِزَاءً لَكَانَ مَجْزُومًا كَمَا تَقَرَّرُ فَإِنَّكَ تَرَاهَا فِي أَنَّ تَقْوَى اللَّهِ مَجْزُومًا وَكَذَلِكَ فِي الْآيَتَيْنِ قَبْلَهَا هَذَا وَلَا **مُشَاحَّةً** فِي أَنَّ الشَّعُورَ نَوْعٌ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا أَنَّهُ مِنْ دَقَّتِهِ وَانْتِفَاءِ الْكَسْبِ لِلْعَبْدِ فِيهِ قَدْ يُسَمَّى هِدَايَةً وَرَشْدًا وَقَذْفَ نَوْرٍ وَكُلَّهَا مُتَقَارِبَةٌ وَهَذَا التَّعْلِيمُ الَّذِي

التزمه الله لعباده هو الذي يبين لنا علي لسان الشارع عليه صلوات[106] الله وسلامه كيف نتقي ما نخاف ونصل إلي ما نحب وهذا العلم هو العلم النافع الذي فيه يتنافس الكرام وبه ارتقاؤهم لقرب الملك العلام وبه تتفاوت درجاتهم ولكل عنده مقام فاعلم أن أول مقامات المريدين التوبة، فالصبر، فالشكر، فالرجاء، فالخوف، فالزهد، فالتوكل، فالرضا، فالمحبة الخاصة، وبعضها يثمر بعضا فإذا صح مقام التوبة النصوح ترد علي صاحبه أحوال لذيذة تباشر برودتها القلب فتترفع همة التائب بالاتصال بها كما مرَّ فإذا تمكن منها ترد إليه ما فوقه ثم كذلك إلي أن يصل إلي أعلي المقامات وهي المحبة الخاصة فتكمل المقامات فتبقي الأحوال تختلف عليه ما دام العمل عناية من الله لتكثير الثواب واستمرار القرب والحظوة علي ما يليق به سبحانه وتعالى إنما يُسَلَّم به ولا ينكر ويُعلم ولا يُذكر قال:

*

وفي صحة مقام التوبة تتقدم المجاهدة والمحاسبة والمراقبة والرعاية فيدخل فيه حال الصبر ومقامه وحال الرضي ومقامه لأن من لا يصبر في المكاره لا يثبت له قَدَمٌ في المجاهدة لأن الجهاد مشتق من الجَهْد وهو المشقة فالمجاهد من يدافع ما يُفسد عليه ومن يُفسد وأقرب المفسدين العدو الملابس وهو النفس[107] الأمانة بالسوء ويلها العدو المجاور وهو الدنيا بغرورها ويلها العدو الشريك وهو الخلق وأشد الكل وأثقله وأبصره بالشر وأمكره الشيطان الغرور فلا بد للمريد المقاوم لهذه الأعداء من التشمير والجد والمخاطرة بعظيمته واليقظة التامة فيما له وما عليه

فإن هذا الجهاد أشد وأكثر بكثير من جهاد السيف فإن صاحب السيف إما أن يُقتل أو يُقتل وفي كلا الحالتين له الراحة إما في الدارين أو في الدار الجزاء قال الله تبارك وتعالى {هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين} وقال عليه الصلاة والسلام {تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة} رواه الشيخان إلا أنه لا يكون هذا الوعد لأحد إلا من انتصر في الجهاد الأول وكل شيء بعد هين انظر حين سألوه من قاتل لَحْمِيَّةٍ ومن قاتل لكذا فقال {من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا} هل تتكامل هذه العقيدة في من لم يقمع أعداءه حتى أسلموا وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وهل تكمل في أحد لم يسترح من رؤية نفسه بالمرّة وأسلمها لباريها علي الصراط المستقيم وناصب شياطينه [108] الأعداء فظهرت عليه براهين الكتاب والسنة وحقائق الأحوال ودقائقها حتى سد جميع المنافذ التي يُتصور دخولها منها فعامل أفراد الخلق كلا بما أمره الشارع أن يقف عليه علي غرضه هو لا علي أغراضهم وأسقطهم وهو معهم عن أي تأثير في النفع والضرر ويستوي عنده المدح منهم والذم ويحسن الظن بمحسنهم تمسكا بوعده تعالى للمحسنين ولا يُسيء الظن بمُجرمهم وقوفا علي قصوره في معرفة العقبي ولا يحجر واسعا وقد قال تعالى {لا تقنطوا من رحمة الله} بل بالتغيير بحسب الإمكان علي حد قوله في الحديث {من رأى منك منكرًا} إلخ وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علي حسب ما اقتضاه الشرع {فيسلم المسلمون من لسانه ويده} ويسلم هو من تبعات ما هم عليه فإنه

سبحانه لم يجعل الرقابة عليهم لغيره قال {إن الله كان عليكم رقيبا} ويتجافى عن الدنيا ويسقطها من عينه بالمرّة ولا ينسى نصيبه منها وهي مطية الآخرة والوازع في كل هذا الشرع ولا يتحقق بالوقوف معه أحد في الحقيقة إلا الورع المراقب المحاسب نفسه علي النقيير والقطمير ففي الحديث {الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات إلخ} فحققت من هذا أنه لا يكمل المقام إلا بهذه [109] الثلاثة فتصدق عليه الإنابة وهي كمال التوبة النصوح لأن شروطها الإقلاع والندم والرجوع إلي المَرَضِيِّ فظهر لك أنه لا يصح مقامها إلا بكمال الصبر بأنواعه الثلاثة علي الأوامر وهو حبس الجوارح عليها ومحاسبة النفس علي كل تقصير ومراقبة القلب للخواطر ومراعات الوقت أن يضع فيما لا يعني لأن الصوفيّ ابنُ وقته وهذا حال الخوف فإذا استقام عليها فهو مقامه والصبر في المصائب والبلايا عن الكون إلي الخلق بانتظار الفرج من الحق وهو حال الرجاء فإذا استقام عليها فهو مقامه والصبر عن الموجبات للنقص ككل ما زاد علي الضرورة من شهوات المأكول والمشروب والمنكوح وحب الجاه والتكالب علي طلب المال وحب الظهور والكبرياء ونحوها من الشاغلّات عن السير إلي الله تعالي والمهلكات وهذا هو عين الزهد وحبس نفسه وتوطئتها علي هذه حتى تسكن هو مقام الصبر جملة هذه الأحوال المختلفة علي المرید في قطع هذه العقبات الباطنة لانسحابه علي جميعها لا يتخلف عن واحد منها لأن عادم الصبر لا ترسخ قدمه في مقام ومن لم يثبت في مقام لا يتأتى عليه حال لأن الأحوال تختلف علي أهل المقامات لترقية همهم [110] إلي أعلي فالأعلى والمقامات هي موضع انتظار الفرج

ومظهر الفقر والذل لرب العزة وفي تمكنه في مقام الصبر يختلف عليه الرضى إلي أن تطمئن نفسه ولا تطمئن النفس حتى ترضى وهي النفس الراضية قال تعالى {يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلي ربك راضية مرضية} ودوام الرضى هو مقامه وهو ثمرة التوبة النصوح والإنابة فالرضى بالعبودية هو الذي يقوم بها ويُعدّل أركانها فيصرفَ النعم التي أولها نعمة الإيجاد ثم الإيمان ثم سائر النعم في طاعة المنعم وهو حال الشكر وباستدامته له يتمكن منه فيصيرَ مقاما وهو مقام عال قال عليه الصلاة والسلام {أفلا أكونَ عبداً شكوراً} ولا يصح للعبد أن يقوم بأعباء الشكر إلا بعد تحققه بمعرفة المنعم والإقبال إليه بالكلية والإعراض عما سواه وهو الزهد ولا يتأتى له ذلك إلا بالصدق والاعتماد علي الله تعالى وإسقاط غيره من العين وهو التوكل ولا يذوق في الحقيقة أحد حلاوة نعم العبادات ويبتهج بفضل المنعم بصوالح العادات إلا من تحقق بهذا المقام فيثمرَ له حالَ المحبة فبدّل خوفه أمنا وصبره شكرا وزهده فناء عن رؤية أثر ما فيما زهد فيه ولا يرى إلا ربه ويصير صبره شكرا علي ما كان يصبر عليه فيكونَ رضاه إنسًا به تعالى وتوبته خشية وإجلالا من هيبة رب العزة [111] وتوكله تمكنا وصارت أنفاسه قربات من فنائه في الله وبقائه به فكان أهلا لمحبتة الخاصة تبارك وتعالى فيتولاه تعالى في الأمر والنهي والامثال والاجتناب فيدرك بالحق مع الحق وهو مصطنع له تعالى لا رؤية لنفسه فضلا عن غيره فيمدحه تعالى ويثني عليه بما هو مدح لفعله فيلهمه المحامدَ له تعالى في كل أحيانه فكان طعامه وشرابه وبها قوامه كما ينبه صلي الله عليه وسلم قال

في حديث {يُطْعِمَنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي} ألا إلي الله تصير الأمور

{الباب الأول في مقام توبة شيخنا رضي الله عنه}

هذا ولما كان لا يمكن شرح أحوال الشيخ إلا بذكر مقامات اليقين التسع وأحوالها لأنه لم يعيش إلا عليها ولم يعمل إلا بها شرحت ما أكتب عنه فيها بعد تمهيد قليل للمقامات والأحوال كما اصطلح عليه القوم واخترت ترتيب {الشيخ أبي طالب المكي} في {القوت} لكون كتابه أم الفن وأول ما شرح به التصوف علي الإطناب.

فأقول إنه كان رضي الله عنه من أول نشأته مجبولا علي محبة مُجِدِّهِ مما عقل عليه من حديث الصالحين فتعرف ذلك [112] منه بأنه كان يتكلف قيام الليل وهو لم يدخل في المكتب ولم يكلف بالعبادات صبيًا لما سمع الشيخَ الوالدَ يقول إن من دأب الصالحين قيام الليل فكان يقوم الليل إذا نام الناس لا يعرف ما يقره ولا أن المقصود منه الصلاة من صغره فهذا الحب لوصلة الحبيب نشأ عليه وعقل فبديهة يرغب فيما يقربه إليه ويخاف مما يبعده وانتبه علي أن المعاصي مبعدة عن الله والطاعات مقربة إليه تبارك وتعالى فأعرض عن المعاصي وأقبل علي الطاعات أول أمره فكان هذا الإعراض أول توبته وهذا الإقبال فاتحة استقامته قال {الغزالي} في {الإحياء} اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة علم وحال وفعل ثم قال بعد كلام فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخيرات وأعني بهذا العلم

الإيمان واليقين فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سُوموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكيد التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه علي القلب فيشير نور هذا الإيمان مهما أشرف علي القلب نار التألم فيتألم معها القلب حتى يُبصر بإشراف نور الإيمان أنه صار محجوبا عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع [113] سحب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد أشرف علي الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبعث تلك النيران بإرادته الإنتهاض للتدارك بالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول فيطلق اسم التوبة علي مجموعها وقد رأيت أن {شيخنا} رضي الله عنه ولد مؤمنا فكان أول دلائل إيمانه حبه لأهل الخير وتطلبه لأعمالهم وهو في العشر الأول من عقد حياته جعله الله تعالى فيه طبعاً ولما يكمل التعقل ولما عقل عقل عليه فكان ينشط للخير ويظهر ذلك منه من لزومه لمجلس والده موضع التعليم والتدريس وانكماشه عن أقرانه من الغلمان والولدان حتى أيفع وراهق وقد حفظ القرآن ثم انقطع إلي العلم وأهله وباعد الأقران واعتزلهم وأية ذلك دوام اختلائه في كل منزل نزلوه أو مسكن أقاموه في موضع يخصه للاشتغال بالقراءة والتخلي عن الجماعة والبعد من اللهو واللعب وإتقانه الشديد لكل ما تعلم وترداده للعلماء ومجالس الشيوخ حتى أنه في محلهم في {ابْرُخَانُ} من قرى {سَالِمُ} سكنه الشيخ الوالد في أيام {مَبَّة} مع كثير من الأعيان و {شيخنا} دون العشرين من عمره بكثير اتخذ شجرة كان يختلي تحتها بلوحه حتى [114] عرفت به وهي الآن قائمة معروفة

وحين بلغ العشرين وقد ضرب في أكثر فنون العلم
بسهم وافر جدد توبته **لا أشرف** عليه من نور العلم
وانكشف له عن غرور الدنيا ومتاعها فزهد فيها وقد
اتقدت نار تألمه وندمه علي ما لابس من الحياء من
إظهار مقاطعتها وكل من تلبس بها فكان ذلك أول
توبته وحظه من الندم والإقلاع وأعظم بها درجة من
درجات التوايين توبة العارف من التقصير في الطاعات
والغفلة في كل طرفة ونفس فاستقل علي الطريقة
وأناب إلي الله سرا وعلانية وجاهر بما كان بعضه كامنا
في الصدر وذلك حيث يجاهر لتلميذه المقارب له في
السن {مَصْنَبَ جُوبٍ} أنه لا بد أن يفارق {الشيخ
الوالد} إذا لم يفارق القضاء ومجالس الأمراء وحيث
جانب كل ما إلي الأمراء حتى قال الأمير {لتجور}
يوما وقد أرسيله الشيخ الوالد لفصل في أمر عند
الأمير ولما بلغهم عن الشيخ الوالد وهو أمامهم مطرق
انزوى إلي جانب خال ريثما ينتظر الجواب قال إن هذا
الصبي سترونه حجرا صلبا علي طريق تغلب الملوك
ولكن نذره جانبا فلا تتضرر به وحيث يقيم لأكابر
العلماء المتساهلين اللحون ولا يهاب.
حكى علي أنه وقف علي جثته {محمد — فاطم}
{وعال لوا} وهما رجلان من أهل {انجَابُور} من
بيوت [115] الرئاسة والعلم قتلها الأمير صبورا لأمر
نفساني فيه قال {شيخنا} رضي الله عنه لما وقفت
عليهما مَلَقِيَّين تحت شجرة أقيت ما بقي عندي من
الدنيا ثم وهل كانت في قلبه دنيا ما علمنا وما بلغنا
ولكن التوبة واجبة علي كل إنسان علي الدوام وفي
كل حال قال في {الإحياء} وأما بيان وجوبها علي
الدوام وفي كل حال فهو أن كل بشر لا يخلوا عن
المعصية إذ لم يخل عنها بالجوارح فإن خلا في بعض

الأحوال من خطايا الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب
بالقلب فإن خلا في بعض الأحوال عن الهم بالذنوب
فلا يخلو عن وساوس الشيطان بإيراد الخواطر
المذهلة عن ذكر الله فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة
وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص
وله أسباب وترك أسبابها بالتشاغل بأضدادها رجوع
عن طريق إلي ضده والمراد بالتوبة الرجوع ولا يتصور
الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص وإنما يتفاوتون
في المقادير فأما الأصل فلا بد منه ولهذا قال عليه
الصلاة والسلام {إِنَّهُ لِيَعْنَانَ عَلِيَّ قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفَرَ
اللَّهُ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً} ولهذا أكرمه الله بقوله
{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} انتهى،
فإسقاطه رضي الله عنه الدنيا عند ذلك المشهد دلالة [116]
عظيمة علي ترق عظيم في مقاماته وهو الإنابة
والتوبة النصوح عن الركون إلي الخلق والانقطاع إلي
الحق قال في {القوت} في تفسير التوبة النصوح
فنصوحا من النصح جاء علي وزن فَعُول للمبالغة في
النصح وقد فُرات نُصوحا بالضم فتكون حينئذ مصدر
نصحت له نُصحا ونُصوحا فمعناها خالصة لوجه الله
تعالى وقيل اشتقاقها من النَّصاح وهو الخيط أي
مجردة لا تتعلق بشيء ولا يتعلق بها شيء وهي
الاستقامة علي الطاعة من غير روغان إلي معصية كما
تروغ الثعالب وأن لا يحدث نفسه بعود إلي ذنب متى
قدر عليه وأن يترك الذنب لوجه الله كما ارتكبه لأجل
هواه مُجْمِعاً عليه بقلبه وشهوته فمتى أتى الله بقلب
سليم وعمل خالص مستقيم علي السنة فقد ختم له
بحسن الخاتمة فحينئذ أدركته الحسنى السابقة وهذا
هو التوبة النصوح وهذا العبد التواب المتطهر الحبيب
وهذا إخبار عن سبقت له من الله الحسنى ومن

تداركته نعمة من ربه رحمه بها من تلوث السوأي وهو وصف لمن قصده بخطابه إذ يقول في كتابه {إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين} أو كما قال صلي الله عليه وسلم {التائب حبيب الله} {والتائب من الذنب كمن لا ذنب له} انتهى، فبهذا يتبين [117] لك ما أشرت له من علو مقام {شيخنا} رضي الله عنه في قوله إذ وقفت علي المقتولين سقط ما بقي عندي من الدنيا ثم قال {سري السقطي} من شروط التوبة أنه ينبغي للتائب المنيب أن يبدأ بمباينة أهل المعاصي ثم بنفسه التي كان يعصي الله بها ولا ينيلها إلا ما لا بد منه ثم الاعتزام علي أن لا يعود إلي معصية أبدا ويُلقي عن الناس مؤنته ويدع كل ما يضره إلي جريرة ولا يتبع هوى ويتبع من مضى من السلف ثم قال بعد كلمات ولا يقوى علي ترك الشبهات من لم يترك الشهوات، فمنظر القتيلين مع ما كانا عليه من العلم والرئاسة ولم يُصرغهما ذلك المصراع إلا النزاع في الدين والسياسة والله أعلم رماه بمرة إلي رتبة التجافي عن دار الغرور والإنابة إلي دار الخلود وذلك أن الإنسان قد يزهد في الدنيا ويُعرض عن مفاسدها ويُقبل علي الله بطريق العلم والجهاد مثلا فيدخل الشيطان عليه من الاغترار دَخَلًا في النية أولا وإن سلمت النية فيوسوس له في أثناء العمل أو يُطريه علي أفواه الناس ليري عمله ونفسه في عبادته فيدخله الشرك الخفي وفي مشاهدة هذه الأمور المُتَفَرِّقة والبعثة المفجعة قد ترنو نفسُ الموفق بعين الاعتبار وتبصره بالأشياء كما هي فيلتحق بالمفردين المستهزئين [118] كما ورد في الحديث فمجاهدته رضي الله عنه ومحاسبته ومراقبته من نوادر الزمان يراعي الشبهات حتى لا يُدخل في جوفه إلا الحلال الصريح وقد يطوي أياما وليالي

والطعام مبدول بفنائه للقانع والمعتز، فقد أتى مرة لـ
{مَجْحَة} ضيفا وهيا له طعاما لا يُصلحه إلا السكر
فسمعه {شيخنا} رضي الله عنه يذكر السكر فقال له
إن كنت تريده للطعام فأت به فإن معي سُكَّرًا فقال
{مجحة} إذا فأخرجه ها هو الطعام قال {شيخنا}
رضي الله عنه ووضعه يده علي بطنه هاهنا يُشير له أن
الطعام للجائع أحسن موقعا من السكر لغير الجائع
فلقد صدق {سري السقطي} في قوله لا يقوى علي
ترك الشبهات إلا من ترك الشهوات فتوبته رضي الله
عنه مما مر عليه من عمره وهو في إيمانه الفطري
وحبه للموجد القديم من شعور في عاطفته وميله إليه
في طبعه دون أن يأخذ العقيدة من طريقه التكليفي
ويؤثر مولاه من شهوده المنة منه لا من الطبع الموفق
وحده وتأسفه مما مضى منه علي غير هذا التعبد
المخلص فيه النية كما طلب من الجن والإنس هي ما
أدام حُزنه وأكثر تلهفه أما جرما ارتكبه أو إثما اقترفه
فليس مما في مدارك إنسان قريبا أو بعيدا هذا في
أول سن التكليف فتقف علي أدلة ذلك في [119]
منظومته {ملين الصدور} ونظم به {بداية الهداية}
للغزالي ثم في قصيدته التي هي أول ما أعرب به عن
مطلبه ومرمي طرفه ومطمح عينه وهي توسلاته إلي
الله تعالي بسيد الوجود صلي الله عليه وسلم
وبالأنبياء وبالملائكة وبالآئمة المقلدة في الشريعة
بالإجماع بأسمائهم جميعهم هل رأيت من أهل البدايات
من ترقى همته إلي التمسك بهؤلاء ومَن دونهم من
أسماء الأولياء والأكابر رقاها الجذب من الله إليه تعالي
علي النور المحمدي فطوى له بُعد مسافة ما بين
المقامات وزوى له دُرَج السلوك ليكون علي بينة من
ربه ويتلوه شاهد منه ثم دنا فتدلى إلي أول قدم

السالک فتراه ينظم ترتيب أسماء أهل السلسلة
القادرية ويدور علي المشايخ ليأخذ عنهم من شاذلية
وتيجانية حكمة من الله لإكمال درجاتهم وإسباغ نعمه
عليهم من اقتفاء آثارهم لاستحقاق مواهبهم وللاستئان
بسنة محمد صلي الله عليه وسلم مع الأنبياء قبله قال
تعالى { أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده } فأحيا
رضي الله عنه طريقهم بإحيائه التصوف والسلوك
فألف { مسالك الجنان } نظم به { خاتمة التصوف }
للبيدالي وشحنها بالقواعد والنصائح في إجمال
وتفصيل [120] يُعلم منه أنه ظهر أنه نظم الخاتمة
احتراما لمؤلفها الكريم أما أن ما أتى به في النظم
أكثر مما أتى به الناثر أضعافا ولكن الأدب منعه من أن
يفصلها عن الخاتمة فلا يصدق عليها من ذلك الاسم
وعلى هذه اللطيفة أعقل جميع ما ظهر من الأوراد
والتقديم وأرشدك إلي مطالعة أنظامه الأولي
{ كمسالك الجنان } { ومغالق النيران } { ومواهب
القدوس } { والجوهر النفيس } لترى كيف يُفحم في
خلال نظم الأصل ما ينبعث عن إحساسه القوي ومدده
الفائض عن حياة قلبه من التزهيد في الدنيا والترغيب
في الله تعالى والدار الآخرة وما ينشره من الفوائد
والفرائد ويرشد إليه مما يعين السالك ويجذب الناسك
فهاك نظما في أول سن التكليف مما عبر بقلمه عن
وجدانه وذوقه من الانجذاب بقصيدته:

{

من أول عشرين إلي الثلاثين ثم نظمها من أول
السلوك اللدني ليمر علي الآثار قال تعالى { أفلم
يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها } من
نظمه { ملين الصدور } ثم { مسالك الجنان } بعد ثم
التوسلات ومدح رسول الله صلي الله عليه وسلم من

عمره الثلاثين وريادة قليلة بعد وفاة الشيخ الوالد إلي
قرب الأربعين افتتحها {بمسالك الجنان} [121]
واختتمها {بتأيته} في وصف القوم وذكر مناقبهم
ووصف طريقتهم وسرد مزاياهم وفي العام التاسع
والثلاثين أو الثامن والثلاثين تجرد لخدمة الرسول صلي
الله عليه وسلم وأعرض عن كل انتساب إلي غيره
عليه الصلاة والسلام بالصلاة والمدح فما استقل بها
سنتين حتى وقع البلاء الذي تصدى له من رمز تصديق
قوله تعالي {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم
والصابرين} {أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا
وهم لا يفتنون} وأي البلاء تجانس مطمح نفسه وقوة
يقينه من الأنواع التي عد {الغزالي} في {الإحياء}
فلا تظن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذي
ينزل بالبدن فإن بلاء نوح عليه السلام من البلاء
العظيم إذ بلي بجماعة لا يزيدهم دعاءه إلي الله إلا
فرارا ولذلك لما تآذي رسول الله صلي الله عليه
وسلم قال {رحم الله أخي موسى لقد أوزي بأكثر من
هذا فصبر} والحديث في {البخاري} ثم قال
{الغزالي} فلا تخلوا الأنبياء عن الابتلاء بالجاهلين
ولذلك قلما ينفك الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع
البلايا بالإخراج من البلاد والسعاية بهم إلي السلاطين
والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين وواجب أن
يكون [122] أهل المعرفة عند الجاهلين من الكفار كما
يجب أن يكون **المُعْتَض** عن الجمل الكبير جوهرة
صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المصعفين وفي
الترمذي {البلاء موكل بالأنبياء ثم الأمثل فالأمثل}
وصححه فنقول ما بقي من أنواعه نوع إلا أصاب منه
رضي الله عنه إلا الشهادة عليه بما يخالف دين
الإسلام فإننا علي كثرة الاختلاف في الناس ما عثرنا

علي من أساء الظن به فضلا عن اتهمه بأمر ما من
أمور الدين ولا يتأتى ذلك لمن عرفه اللهم إلا من
عرفه داء الحسد فإن الحسود يعاند الله في خلقه
وأمره والله يعصم منه ويعيذ ولم نقف عليه ولم يبلغنا
أما من لم يعرفه كل المعرفة ولم يتحقق أمره فلا
أضبط أمره لأن المتحكم قد فك عن رقبته ربة العدل
وأطلق نفسه من قيد الحق إن حكمت عليه فأنا إذا
نظيره في التحكم والظن أن لم يكن وإن كان فويل له
قد خسر خسرا مبينا وأذنه الله بحربه {وسيعلم
الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون} وإن كان ذلك كذلك
فأنواع البلاء تعاقبت عليه من قلة الصحة وكثرة
التضرر بالماء فجاهد نفسه واتهم الشيطان يتطهر
بالماء ويتداوى من ضرره بحسب السنة في التداوي
حتى تغلب عليه وصار الماء شفاءه فذلك نصيبه من
بلاء {أيوب} عليه السلام [123] مع أمراض مضمية لا
تنفك عنه غالبا في أيام دهره فيصبر عليها ويشغل
بخدمته معها فلا يعرفها فيه من لم يعرفه أما الإخراج
والسعاية فأمرهما أشهر من أن يذكر وله في الإخراج
إنس بحديث الوحي إذ قال {ورقة بن نوفل} له صلي
الله عليه وسلم

*

إلي أن قال له صلي الله عليه وسلم {أَوْ مُخْرِجِي هُمْ} فقال له نعم لم يأت أحد بمثل ما آتيتهم به إلا أخرجوه فقد مر بك مما مر من هذا الكتاب تلك الكارثة من الإخراج والتغريب وما يدريك لعل الله ادخر له هذا المقام من أقدامه صلي الله عليه وسلم علي أيدي قوم ما نعموا منه إلا ما نعمته قريش عليه صلي الله عليه وسلم من الظهور بأمر الله والسُّوق إليه وتزايد المُقبلين فما علمنا من الأكابر من جازف بنفسه دون مُدارات ولا مُؤاربة لإعلاء كلمة الله كهو ولقد نفي شياطين البغي عن أحزابه الكثيرة وقمع نفوسهم عن الانتقام لأنفسهم فبقيت أنواره في أفئدتهم حية تفعل في الصدور فعلة يعملون علي الصراط المستقيم كما مهد لهم سلوكه وأجلى مظهر لذلك إخراجهم من بينهم وهو أعز عليهم من مهجهم وفتنتهم إياهم من بعده فصبروا صبر الموحدين [124] الصادقين حتى خفض الله أعداءهم ورفع أقدارهم من بينهم فكان من أمرهما كان مما تظهر علي بعضه في قصائده البحرية حين اختلي بربه واختص بنبيه صلي الله عليه وسلم قلبا وقالبا أما بلاء نوح في دعائه الصم فقد أناخ عليه بكلكله مما تظهر عليه في جداله ووعيده وإهراجه من قصائده المذكورة فحظه رضي الله عنه من التوبة يبتدئ من الدرجة الرابعة من أقسام التوبة لأن التوبة كما قال القوم سبع مراتب وقد نظمها رضي الله عنه في وصيته {منور الصدور} وهي التي جدد بها منظومته الأولي {ملين الصدور} الذي هو أول ما قرر في التصوف وأول ما تَلَأَّت فيه وجهته ومطمح همته لعبت بها أيدي التلامذة حتى فقدت صحتها فصبتها في قالب هذه المنظومة {منور الصدور} لم تختلف عن الأولي إلا في نقط قليلة لاختلاف المقامين لأن الأولي في البداية والثانية في النهاية أما التعريرات والحدود

فلم تختلفا فيهما وتلك النقط التي اختلفتا فيها هي ما
يهمنا في تفهيم أول سلوكه من انجذابه وهو ظاهر في
خطبته الأولي أعني مقدمتها ناتي بها إن شاء الله بعد
سرد مراتب التوبة من المنور قال

[125]

*

*

*

*

*

*

*

إلي آخره قال {أبو طالب المكي} في {القوت} بعد
كلام في التوبة ثم يفترض علي العبد إذا عصاه الرجوع
إلي مولاه وهو التوبة عقب وقوفه مع نفسه وهو
موافقة الهوى علي الخطيئة فتأخيره بالتوبة وإصراره
علي الذنب ذنبان مضافان إلي الخطيئة فإذا تاب من
خطيئته وأحكم التوبة منه اعتقد الاستقامة علي

الطاعة ودوام الافتقار إلي الله تعالى في العصمة ثم يتوب أبدا من الصغائر إلي الهم والتمني ومن الخوف والطمع في المخلوق وهي ذنوب الخصوص إلي **الطرفه** والنفس والسكون إلي شيء والراحة بشيء وهذه ذنوب المقربين حتى لا يبقى علي العبد فيما يعلم مخالفة وحتى يشهد له العلم بالوفاء فتبقي حينئذ ذنوبه من مطالعة علم الله تعالى فيه لما استأثر به عنه من علم غيبه يكشفه به فيكون هذا الخوف مثوبة له لما [126] فزع من علم نفسه إلي ما لا يمكن ذكره ولا يعرف نشره من ذنوب المقربين التي هي من صالحات أصحاب اليمين لفقد مشاهدتها وللجهل بمعرفة مقاماتها عند العموم فيكون حال هذا المقرب الإشفاق من البعد في كل طرفه و نفس إلي وقت اللقاء والخوف من الإعراض والحجب في كل حركة في هذه الدار إلي دار البقاء.

قلت وهذا تفصيل ما أجملوه لأن المفترض علي العبد إذا عصى مولاه الرجوع وهذا عام لجميع المراتب بنسب المقامات، والتوبة عقب الوقوف مع النفس وموافقة الهوى والإصرار هي توبة الكافر من كفره إلي دين الإسلام لأن النفس أمارة بالسوء والهوى مضل عن سبيل الله والمصر ناس لربه قال تعالى {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ} وقال {إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (26)} وقال في سب المنافقين {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} فتوبة من هذه أوصافه الرجوع إلي مولاه بذكره كلمة الإخلاص لا إله إلا الله بلسانه والعمل بالطاعة بجوارحه بعد الإيمان بقلبه وهو نفس الرجوع إلي المولى جل ثناؤه ثم إن أحكم التوبة واعتقد الاستقامة علي الطاعة ودوام

الافتقار إلى الله تعالى [127] في العصمة فهو مخلص
سالك سبيل الرشاد ثم يجتنب الصغائر ويراقبها ولا
يرتكب شيئاً منها استخفاً واستصغاراً فتصير كل
مخالفة في حقه كبيرةً فهو عدل وتوبته العدول ثم
يدفع نفسه عن الهم والتمني ويصرف قلبه عنه خوفاً
واستعظاما لجانب من يراه وإن لم يره هو فهي توبة
العباد ثم إن انتفض قلبه عن خوف كل مخلوق وطمع
فيه ويعد رؤية الخلق شركاً فهي توبة السالكين
الصادقين الذين صدقوا في الزهد في غير مرادهم جل
وعز ثم إن حاسب نفسه في كل طرفة ونفس أن
يذهب سدي فهي توبة الورع المحاسب الأواه المنيب
ثم إن انقطع إلى مولاه وارتاح لجماله وهرب من
سكون لشيء ونسي كل راحة بشيء وبيري كل شيء
من هذه أعظم خطيئة في حقه من عظمة مولاه
ودوام حضوره فهي توبة المشاهدين وتلك ذنوب
المقربين حتى لا تبقى عليه مخالفة ويشهد له العلم
بالوفاء كما قال {أبو طالب} فتبقى ذنوبه من مطالعة
علم الله فيه فهو أبداً بين مشاهدة عظمة الجلال
فتعظم خشيته لتغلغله في العظمة قال تعالى {إنما
يخشى الله من عباده العلماء} وبين مشاهدة الجمال
فيرتاح له ويبتهج قال تعالى {ألا إن أولياء الله لا خوف
عليهم ولا هم يحزنون} [128] فلنات **برمزة** تُوضِّح لك
ما كان عليه رضي الله عنه من دوام التوبة وآياتها من
المحاسبة والمراقبة والمجاهدة من لطيفة واحدة وهي
أنه كان يعتاد في جميع حركاته ثلاثة أمور: تقديم النية،
ثم التسمية بلفظها، ثم التيامن، قال صلي الله عليه
وسلم {إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى}
كما في البخاري فترى ما في تقديم النية في كل عادة
وعبادة وإخلاصها للمولى تعالى لتسلم العبادة من

الإشراك كما قال تعالى {ولا يشرك بعبادة ربه أحدا} وتكون العادة مطية العبادة لإقامتها واستدامة القوة لها من فرط المراقبة ودوام الحضور والمحاسبة والمجاهدة فإن الجسم إما متحرك أو ساكن والكل إما عن اختيار أو اضطرار وعلي كل فللنية فيه مدخل أما في حال الحركة الاختيارية فبديهة وأما في حال السكون ففي الرضى بالحال الواقع والتوكل والتفويض لأن الرضى بالقضاء إنما يكون عن الإخلاص في العبودية وهو النية أو النية مبدؤه وهو تمامها كما قال {سهل بن عبد الله} رضى الله عنه إنه الهاجس والسبب الأول في حدوث الهم والإرادة والعزم والقصد وعلامة الرضى الطمأنينة وهي السكون فعمل النية فيه أيضا ظاهر أما الحركة الاضطرارية [129] كالعاديات والانفعالات فمتعلق النية بها حسن الظن بالله وصدق الرجاء له وهما أساس التوكل والتفويض ممن صحت معرفته بالله وصدق يقينه ذكر الله تعالى في الضراء والسراء وشكره كما اقتضته العبودية فلزومه الذكر وقيامه بالشكر لا يكون إلا عن إخلاص تام ولا يتم ذلك إلا بصدق العزيمة علي أداء الواجب لجانب المولى عز وجل وهو تمام النية فترى من هذا أن لا يلزم النية في جميع الأمور والأحوال إلا دائم المراقبة لاطلاع الله تعالى الرقيب علي جليه وخفيه المحاسب أنفاسه ليلا تنقلب ذرة منها إلا إلي ما خلقت له ولا يتمرن عليها حتى تصير عادة مألوفة إلا من جاهد في الله حق جهاده حتى انتصر فهداه سبحانه وتعالى سبيله فكان معه {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين} ولهذا المقام قرائن وشهود في ظاهر صاحبه أولها إخلاصه الدينَ لربه تعالى وقصد وُجْهَةِ الرضى في جميع الحركات

والسكنات ودليله عمارة باطنه بالمراقبة وبعده عن الغفلة والفضول فلا تجده إلا عاملاً أو ذاكرة رهبة بالذكر ورغبة بالشكر لا فضلة فيه فهذا هو حاله رضي الله عنه فقد أتاه ذات يوم صديقُه العزيز {سيد المختار بن الشيخ سيدي [130] الكبير} وبَشَّ شيخنا في وجهه وفرح به وتلقاه بأنواع الإكرام فجعل الشيخ سيد المختار يكرر من الانبساط كما عُرف من حسن خُلُقِه لفضة كيف الحال فصرف شيخنا رضي الله عنه الوُجْهَة إلي ما يعنى فقال له حالنا ترك ما لا يَعْنَى ممازحا له بالحق وتبسم إليه وكذلك متبوعه صلي الله عليه وسلم كان يمازح ولا يقول إلا حقا وأتاه ذات يوم مريدٌ يباسطه بالسلام وجعل يقول كيف حالك وكيف عافيتك كما هي العادة عندهم فقاطعه شيخنا رضي الله عنه لأنه من أهل تربيته ثم قال له أتعرف العافية؛ العافية هي الإيمان والإسلام والإحسان والدوام عليها، وقد قال لي رضي الله عنه يوما داري هذه ما وضع شيء منها ولا من أمتعتها علي سعتها وكثرة ما فيها من أصناف الهدايا إلا وهو قائم بالتسبيح والحمد زيادة علي ما جُبِلَ عليه الأشياء من قوله {وإن من شيء إلا يسبح بحمده} وذلك أنه لا يضع شيئا ولا يرفعها إلا بنية صالحة فيسري القبول من الله تعالى لنيته إلي الهيئة المخصوصة لأجل همته رضي الله عنه والنية إكسير الأعمال كما في الصحيح {إنما الأعمال بالنيات} فلم يبق بعد هذه الكلمة الصادرة من الشارع مرية في قوتها العاملة إن صدرت من المخلصين [131]

الصادقين وما أعزه من وصف لا يقوم به من له أدنى حظ مع مخلوق، حكى علي مريده الكبير {الشيخ إبراهيم فال} وهو من فرسان النية تلو شيخه قال لي إن أول ما عاقدت عليه الشيخ رضي الله عنه من

العهد والبيعة قلت له إني لم يخرجني من بيتي إلا طلب شيخ موصِّل أجد من حاله نور حق تندفع أمامه ظلماتُ الخلق وتنجلي به آيات الحق لو لم أجد أحدا ممن هذه صفته إلا قبره لبلغني صدق نيتي فيه أملي وإني أبايعك علي أن لا أحظى من الدنيا بشعرةٍ إنما همي الله والدارُ الآخرة قال فقال له شيخنا رضي الله عنه يا إبراهيم أنا لو لم أجد من آثاره صلي الله عليه وسلم إلا منظر هذه النجوم والسماء التي تحققت أنه صلي الله عليه وسلم كان ينظر إليها لوثقت بأن نيتي فيه ومحبتني كفيلتان لي بقضاء الحاج والأخذ باليد عن سابقة الحسنى من الله تعالى لمن رزقه الإيمان به والحبِّ فيه علي أني أبايعك علي الامتثال والاجتناب وترقية الهمة إلي الله ولا ترج مني في الدنيا عريشا يظلك فضلا عن أهل ودار، وكذلك مریده الكبير {آدم كي} حين أتاه يبايعه قال له إن كنت تريد ذلك فشمّر عن الأهل والمال وأعرض عن الدنيا وأقبل إلي الله والدار الآخرة ففعل وما لازمه زمنا يسيرا حتى [132] انشرح صدره فانجذب إلي الله وهو ممن كوشف له في العوالم كان كثيرا ما يُظهر ما أخفي عنه ويزجر تلامذته عن الغيبة وهم بعيدون عنه وكثيرا ما يرسل لأحدهم ينهاه عن أمر كان لابسه خفية عن الناس ويخبرهم بما ادخروا وما أكلوا في بيوتهم وكثيرا ما يُظهر مكائد نصبت له عن ظهر غيب وكان مؤتى له في شفاء الأسقام والأوجاع بمجرد اللمس واللمس. حكى علي بعض أهل كجور أن {صنب لوب} الأمير حين أسلم نفسه إلي الفرانسة في اندر وأخذوا سلاحه وخيله وهو في الجزيرة لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا دُلَّ علي هذا الشيخ المرید {آدم كي} ليتوجه في استخلاصه بالدعاء فقال لهم آدمُ ذلك هين علي الله

اثنوني بتراب من كجور وأتوه به فبات معه فلما أصبح قال لهم تَمَّ أمركم فقد حصل مرغوبكم فسترجعون بالإمارة من عند هذه الدولة فما مضت أيام حتى صالحتهم الدولة ونصبوه أميراً فقال له بعض إخوانه من المريدين بم حصلت لهم علي هذا؛ فقال لا من شيء إلا أني وضعت التراب أمامي واستحضرت باطن شيخنا رضي الله عنه مخاطباً له يا سيدي رد هؤلاء إلي أرضهم بالإمارة فكان ما كان وما أصبحت حتى لم أشك في قضاء الحاجة ببركته، وكذلك [133] {إبراهيم قال} لم تمض علي مبايعته له سنون حتى اجتمعت في أمره ونهيه علي التربية ألوف من المريدين السالكين علي يده وعشرات ألوف وأسلم بسببه ألوف من فساق {كجور وبول وسين} من بيوت الأمراء وأتباعهم فسبحان من يعطي ما يشاء لمن يشاء رغبوا عن الدنيا فطوعها لهم ورغبوا في الله فأفناهم عن أنفسهم وأبقاهم بمعرفته، فلقد عرفت من هذين اللذين هما أول المريدين ما فُتِحَ لهم به من الدنيا والثروة والغني إنما هو فضل من الله تعالي لا طلبا منهم فبذلك وُفقوا للقيام بشكره تعالي به من الإنفاق وأعمال البر والسخاء وإصلاح ذات البين وهدايا الصالحين ما لم يوفق لمثله أحد بعد الصحابة والتابعين قال عليه الصلاة والسلام في الإمارة {من طلبها وُكِلَ إليها ومن لم يطلبها أعين عليها} فلنمسيك عن ذكرهم القلم إلي أوانه ونرجع إلي شرح بعض أحواله في مقاماته رضي الله عنه فنقول: ومن دلائلها ملازمة الذكر باللسان في جميع حالاته كما كان حاله صلي الله عليه وسلم فقد صح من حديث عائشة رضي الله عنها أنه صلي الله عليه وسلم كان يذكر الله في كل أحيانه وقال تعالي {الذين يذكرون الله [134] قياماً

وقعودا وعلي جنوبهم} فظهرت القرينة جلية من حاله رضي الله عنه فإنه لا يغفل ولا يتساهل عن التسمية في كل حركة وتصرف يتلفظ بها مرادفة للنية يعرفه المشاهد والمشاهد يري ما لا يري الغائب فتري بِشْرَةَ وجهه تنبسط وتنقبض من أثر شهود الجمال والجلال عند كل تصرف ويمد بتعظيم وهيبة لام اسم الجلالة مدا ينبئ عن هيبة المذكور وعظمته في قلب الذاكر فإذا تم العمل ينشرح وينبسط انبساط من ارتاح بقرب محبوبه وتحصن في **مقنط** من عدوه فكان رضي الله عنه يصرف كل من لم يسم عليه حتى يجعله في هَيْبَة سمي لها كأن تضع عنده شيئاً أو فرشت له فراشا أو صببت ماء أو صنعت طعاما إذا لم يسم عليه في التصرف يرفعه إلي أن يرده بتسمية فإني قد حضرت ذات يوم أتاه مريد بطعام من صنع من لم يمارسه حتى يعرف عادته فقال له رضي الله عنه إلي الآن تأتيني بمثل هذه الأطعمة التي هي عندي كالميتة أما تعلم أن ما لم يُسَمَّ اللهُ عليه فهو كالميتة عندي ثم تبسم إليه وكان هذا منه رضي الله عنه تربية وحرصا علي الحمل علي السنة أما لأنه لو لم يكن الرجل ممن ائتمنوه علي دينهم [135] وصار هو المسئول عن إرشادهم لما صرح له فضلا عن التأنيب فمراعاته للتسمية في كل تصرف وعمل دليل قائم علي قيامه بالسنة فإن التسمية مشروعة في كثير من العادات والعبادات انظر حديث البخاري {إذا **استجنح** الليل فكفوا صبيانكم} إلي أن قال {اغلق بابك واذكر اسم الله واطفاً مصباحك واذكر اسم الله **وأوك** سيقاءك واذكر اسم الله وخمّر إناءك واذكر اسم الله} مما هو مشير إلي أهمية التسمية في التصرفات كما هو معروف من أحوالهم رضي الله عنهم من مراعات

الأدب من شهود المقام ومتابعة السنة وتحريها في جميع الأعمال فكان رضي الله عنه يتحرى السنة علي الدوام ومنه ملازمة التيامن كما في حديث البخاري { كان صلي الله عليه وسلم يُعجبه التيامن في تنعله وترجله وطهوره وشأنه كله } فلا تصدر منه رضي الله عنه لفظة ولا حركة إلا وتحري التيامن فيها أتيته ذات يوم وفي جيبى هدية أرسلها إليه معي مریده المجتهد العابد { محمد فال } فلما أتيته أدخلت يدي اليسرى في جيبى لأن شق الجيب كثيرا ما يكون في ذات الشمال ولما أخرجتها له انتهرني وسدّ النظر إلي [136] وقال أكذلك فارتعبت لأنني كنت شديد الحياء منه والهيبة له كما هي عادة قومه معه ثم قال ذات الشمال أي تعمل بها فحولتها إلي يميني وعلمت أن ما بقي من أدبي واستناني أضعاف ما حصل، ومن شواهدنا تنبهه وتنبيهه في كل طرفة إلي إيثار الأعلى فالأعلى والأفضل فالأفضل من إقامة العبادات والتشدد في الورع فإنه لا يفتتح مناجاة من مناجاته إلا بالاستغفار ولا يمضي عليه يوم إلا ويبعده حسرة من استحقار ما يحمله ظرف ذلك اليوم من الأعمال تغرب عليه الشمس كل يوم وهو في تأسف من قصر النهار من كثرة ما يحمله من القربات تلك الفرائض بشروط صحتها وكمالها وفضائها وتلك الرواتب في ذرى مواقعها قبل الفريضة وبعدها وتلك الفضائل من سبحة الضحى والمصحف فيما بينها فالمناجاة في القلب ثم باللسان ثم بالقلم من الصلاة علي سيد الوجود صلي الله عليه وسلم يرتدف عليها الاستغفار ثم الطلب والدعاء بكل إنابة وخضوع ثم فترات في حاجات المسترشدين والزائرين ينتقل بين هذه المراحل ولا يدخل في مرحلة إلا منيبا متأسفا لما يُفتح أمامه من

أبواب المراضى في تلك الفضيلة فيعد ما كان فيه عبثاً
مما استقبل فتجاذبه [137] مزايا بعض الفضائل وتكرُّر
عليه دواعيها من كثرة تردادها في الآي والسنن فتفتق
نُهْمَتُهُ نحوها ولا يغشاه الليل إلا وقد طال انتظاره له
حرصاً على إحراز فضائل فيرسانه فيقومه أجمع بين
صلاة وتلاوة وتسبيح وكتابة في منحى هذه من الصلاة
ومدح النبي صلي الله عليه وسلم إعظاماً لجانب
المولى سبحانه وتعالى من ظهور قدوته باصطحاب
إرادته على كمال أول الخلق وإكرام نبي للحق عَرِفاً
في بحر محبته صلي الله عليه وسلم فما التوبة
النصوح في حقه رضي الله عنه إلا تنقلاته من كراسي
الفضائل من بعضها إلى بعض ثم تزداد في أوساطها
توبة لا يقف على كنهها إلا من يطلعه الله من غيب
علمه كل لحظة توبة تقاعس عنها حظوظ العارفين
فيترقى في مقامات وأحوال المكانة والقرب الزلفى
إلى ما لا نهاية له من خزائن مزيده تعالى الذي لا
يستغني عنه نبي مرسل ولا ملك مقرب قال تعالى
مخاطباً لسيد الخلق {وقل رب زدني علماً} وقال
{لئن شكرتم لأزيدنكم} ولم يستغن عنه أصحاب
الفردوس {في روضات الجنات لهم ما يشاءون فيها
ولدينا مزيد} ألم تره في أول بدايته يقول في {يالله
بالمصطفى} التي ذكرت لك أنها أول الانجذاب [138]
بعد سرد من توسل بهم إلى الله من أسمائه واسم
نبيه خاتم النبيين وإمام المرسلين عليه الصلاة والسلام
وسرد أسماء الأنبياء وأئمة مذاهب الفروع الإسلامية
بعد الملائكة المقربين ثم بالأولياء والصالحين تفصيلاً
وإجمالاً فتراه في هذه القصيدة يقدم الاستغفار ثم
طلب كفاية القطاع عنه دون الوصول فصل فيها
وأجمل أليست هذه المنظومة تمهيداً لما سيحظى به
من الكمالات والتحصين أنظر كيف يقسم على الله

تعالى بسيد الوجود وبالأنبياء والملائكة والصالحين
ويقول

*

إلى أن قال

*

ثم يقول

*

انظر كيف يُوَجِّد همومه ويصح نيته على العبادة
بالصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم كما
أمر به فإنه لم يترك شيئاً مما يُتوسل به إلى الله من
كتبه ورسله وملائكته إثباتاً لأسباب معرفة منه وجرباً
على مقتضى حكمة الباري وحمله الكل على السبيل
المرضية عند الله تعالى [139] تخلياً عن نفسه وتحلياً
بكلمات ربه انظر كيف أظهر الفقر والعجز ومد إليه
سبحانه يد الافتقار في إقامة حق العبودية من الامتثال
يدعوه صفياً باسم الجلالة ويتوسل بالصالحين بعد
صلاته على رسول الله صلى الله عليه وسلم إقراراً
بأن الأعمال وإن بالغ العبد في تزكيتها فلا تتأهل للرفع
إلا بكرمه تعالى لعدمية العبد في نفسه فضلاً عن
كسبه فاستشفع ربه في قبول عمله عنده انظر كيف
انجذب عن نفسه ورؤية أثر للغير إلا به تعالى ما ذاك
إلا طي عجيب للمبتدئ ثم يتضرع إليه أن يوفقه
لأسباب السعادات ويكفيه أسباب الشقاوات فيقول

*

*

*

*

فترى كيف وُفِّق إلي هذه الجمل الجامعة التي أجمل فيها جميع المطالب ثم بعد هذا يفصل كما هو المختار في آداب الدعاء عند العلماء كما في {زرروق} فإن أول ما طلب العافية [140] وهي أول المطالب وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم علم عمه العباس الدعاء فقال له قل {اللهم إني أسألك العفو والعافية} وفيه {اللهم إني أسألك العافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي} فقله رضي الله عنه {وأسبلن علينا رب عافية} أراد بلفظ أسبل تمام العافية وعمومها علي الأهل والمال في الدنيا والدين كما في لفظ الحديث وهو في النسائي وابن ماجه قال ابن حجر وصحه الحاكم {اللهم أستر عوراتي وأمن روعاتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن اغتال من تحتي} قلت وهو بهذا اللفظ بكماله في الدعاء الكبير لشيخنا رضي الله عنه نبذة نفيسة من غوالي نفائس الدرر من مجموعاته في الأدعية الماثورة فإن في

إسبال العافية أكبر نعم الحياة لأن عافية الدين
السلامة من العاصي ولامة العقيدة صحتها وسلامة
الصدر السلامة من الابتداع والنجاة من جميع آفات
القلب والجوارح وعافية الدنيا السلامة من وبالها
والنجاة من شرورها ومصائبها وفي الأهل والمال
السلامة من الخوف والنقص وسوء العُشرة وكل ما
يشغل القلب من الآفات فمن أتم الله عليه العافية
وأسبلها فقد تهيأ له أكثر [141] أسباب النجاح إن وفق
لهمة عالية ونية صادقة وإخلاص تام فلذلك أردفها
بطلب القصد وهو الاستقامة علي السبيل الأقوم قال
تعالى {وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر} فجعلها
مقابل الجائر ونقيضه وقال {واقصد في مشيك} وفي
الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم {لن ينجي أحدكم
عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن
يتغمدني الله برحمته سددوا وقاربوا والقصد القصد
تبلغوا} قال في الفتح بالنصب علي الإغراء أي ألزموا
الطريق الأوسط المعتدل وقريب منه السداد وقال
البخاري سدادا صدقا وسددوا أقصدوا السداد أي
الصواب والمقاربة كذلك أي لا تفرطوا فتجهدوا
أنفسكم فيفضي إلي الملل والتفريط ومعنى الكل
يرجع إلي الاقتصاد والدوام ومجموع ذلك هو الاستقامة
فلذلك قالوا في قوله صلى الله عليه وسلم لمن طلب
منه الوصية {قل أمنت بالله ثم استقم} إنه من جوامع
كلمه صلى الله عليه وسلم فقال رضي الله عنه
{وهب لنا القصد في الدارين} يعني الاستقامة في
الدنيا بإقامة العبادة قلبا وقالبا وفي الآخرة بثمرتها في
قوله تعالى {تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا
تحزنوا} [142] وقال {الغزالي} ما معناه أن تعوّد

السير علي الصراط المستقيم في الدنيا يسهل المرور
علي الصراط الممدود علي جسر جهنم من العادة
الأولى ثم قال شيخنا رضي الله عنه { وافتح لنا كل
باب كنت فاتحه * للصالحين من الخيرات يا الله }
طلب من ربه تعالي أن يأخذ بيده وَيُسَيِّرَهُ لليسرى
فإنه لا يُجدي العبدَ كسبه وإن كثر ما لم يرحمه الله
تعالى ويوفقه بلطفه كما قال صلي الله عليه وسلم
في دعائه { اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما
منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد } فجرى علي الأدب
المطلوب الرائق علم أن الله قادر علي أن يُعطيَه ما
أراد بلا عمل ولكنه إنما كلف الله عباده بالأعمال فترك
العبد القيام بتكليفه مع رغبته فيما عنده جهل وسوء
أدب فطلب التوفيق للعمل المقبول لِيَسَعَى بتيسيره
تعالى إليه سعيًا مشكورًا ولكمال معرفته بعظم كرم
الباري عظم الرغبة كما في الحديث { لِيُعْظِمَ المسألة
وليُعْظِمَ الرغبة } فقال رضي الله عنه { كلُّ بابٍ } ثم
قيد فقال { من الخيرات } لأن هناك أبوابا هي خير
محض وأبوابا هي أيضا خير لكن باعتبار الغاية وقد
تكون في الصورة ابتلاء وفتنة فكان الله تعالي أسرَّ
إليه ما سيواجه به من البلايا والفتن فألهمه التقييد ثم
الاعتصام به وطلب [143] الدفع عنه فإن الدعاء لا
يضيع كما في حديث الإمام أحمد بن حنبل وصححه
الحاكم { إنه لا يضيع الدعاء بل لا بد من إحدى ثلاث إما
أن يعجل له دعوتَه في الدنيا وإما أن يدخرها له في
الآخرة وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها } وهو
تعالى يقول فيما أتى في الحديث الصحيح { أنا عند
ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني } فلذا أكثر منه فما
علمنا وما بلغنا ممن سلف من الصالحين أكثر منه
طلبًا ولا أوسع منه رغبةً ولا أعظم أملا أولا ولا آخرًا

وقد استُجيب له فما بقي شيء يجوز وقوعه في الدنيا
أو وقوع دلائله إلا وقامت لنا براهين صادقة وأعيان
قائمة منه فكانت له قرائن أحوال ودلائل تُرَجِّح لنا
إجابته فيما مقتضاه الآخرة وإن كانت كلها مألها إليها
عند النظر لذوي الألباب ثم قال رضي الله عنه
{واسلك بنا نهج رسل واكفنا زللا* واطرد لنا الجن
والشيطان يا الله} طلب من الله أن يُرشدَه لأن
السالك مِلاك أمره الرشد وفتحته قال تعالى {ولقد
أتينا إبراهيم رُشده من قبل} وقال حكاية عن أصحاب
الكهف {ربنا أتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا
رشدًا} فأول ما يهم السالك الرشد ولا يوفق له إلا
الله وبعد الرشد قد تعرض الآفات والزلات من مضلة
عن الطريق ومي مانعة من الوصول [144] فقال
{واكفنا زللا} نكره ليُعَمَّ في سياق النفي والزلل غيرُ
القاطع ولكنه عائق ومنه الفتور والكسل والتذبذب
ورؤية العمل والعجب ونحوها من المهلكات وطلب
طرد الشياطين فذكر الجن والشيطان وإن كان إبليس
من الجن لما كان من الجن من هم مسلمون لا تصدق
عليهم الشيطنة ولكن فيهم فساق وعصاة كالإنس
وضررهم أخص من ضرر الإنس لما يحدث عنهم من
الخيال في العقل والجنون والصرع وما أعطوا من
التكيف والتسلط علي الخيال خصوصا مع أهل
الرياضات لاشتراكهم مع الملائكة في التروُّحُن وما لهم
من التلبيس في ذلك فالناشئ علي المعارف الباطنية
المَحَدِّث عن الوارد الإلهي إما بمعزل عن المَلِك وإما
عن ملك يستحق له أن يستعيز من ضرر الجن
والشيطان وتلبيسه وحين استعاذ بربه من العوائق
والمفسدين بعد الإرشاد طلب منه تعالى أن يُكَمِّل له
ما نحى إليه وما نوى من القيام بأوامره وفوض الأمر

إليه والاختيار فقال { وهب لنا كلما نختار يا الله } فالله تعالى هو المختار أزلا وأبداً إلا أنه نسب لنفسه اختياراً في المصطفى من خلقه وإضافته إليه ليست بإضافة مخلوق لخالقه فقط بل إضافة تشریف أرادته بحكمته وفضله فهذا الاختيار هو الذي يُنافس في الاختصاص به والفوز [145] أهلُ الله وخاصته وهو جار في الأقوال والأعمال والأحوال والأمكنة والملائكة والإنس والجن وبه تكريم بني آدم وتفضيلهم علي كثير ممن خلق تفضيلاً وعموم الاختيار في عموم الخلق سور المطلب بكل يطلب منه أن يجعله من المختارين المصطفين الأختيار وأن يوفقه في كل أمر لخيرته فقد أظهر بهذه العبارة الاستسلام وترك الاختيار والتدبير بأجلى مظاهرها فإنك ترى أنه ما طلب مطالبه إلا لعلمه علي لسان الشارع صلي الله عليه وسلم أنها خيور وأنه تعالى مُرغَّب فيها عباده مما هو معروف في دعائه صلي الله عليه وسلم ودعاء الأنبياء والصالحين في القديم والحديث ثم كرر ثانياً علي بقية الأقران يستنصره تعالى عليهم ليقهّرههم فيصرفون علي النهج القويم وهم النفس والهوى والشيطان والدنيا لأن الطرد إنما يحق علي الشر المحض الذي الشرُّ ذاتي فيه أما ما له وجوه خير ووجه شر وهو قابل للصلاح وإنما يُسخر ويُرأى بالتزكية ونواميس الخير وتخفيض وجهة الشر عنه وتضعيفها حتى تنعدم بالكلية فيصير خيراً محضاً أو يغلب الخير في طبيعته بحيث يسهل الانتفاع به وتجنب شره ونفس المؤمن ليست شراً بذاتها [146] بل هينة لينة مع قابلية الصلاح وإنما يطرأ لها الشر من الجهل والمعاصي والاسترسال في أسبابها فلذلك قال رضي الله عنه { ورض لنا كل ذي صعب ودي حرن * ويسرن كل ذي التعسير يا الله }

فإن النفوس ليست كلها خيرا محضا ولا شرا محضا بل
منها ومنها كما قال في منظومة له وصية.

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

فنفس المؤمن تُراض وتُساس علي الهدى والصلاح
إلي أن تطمئن وتزكو فتفلح وكذلك هواه حتى يكون
تابعا لما يرضاه الرب [147] تعالي وينقاد فيلتذ
بالطاعات والمناجاة بدلا من التكلف وكذلك الدنيا
تُمتطى للآخرة وتُزرع لتُحصَدَ فيها بالأعمال الصالحة
والحلال الطيب من الرزق {قل من حرم زينة الله
التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق} وفي حديث
عمر ابن العاصي في غزوة بعثه إليها صلي الله عليه
وسلم فقال له من جملة ما قال {نعم المال الصالح
للرجل الصالح} فقد رأيتَ هذا الإعراض عما سوى
الله ورسوله والدار الآخرة يستنصر الله في الإعراض
عما سواه ويعزم علي الإقبال بالكلية إليه ثم يستكفيه
القطاع والمفسدين فقال {ودمرن كل أعداء تضر بنا *
قبل الوصول لنا يا الله يا الله} تحصن بالدعاء والنداء
المكرر ليسبق السريعُ بنصره علي الأعداء فيدمرهم
وهي عبارة عن استئصال شافتهم ليؤمن جانبهم
فيتفرغ لما انتصب له بعد أن قال {طول لنا عمرنا
صح لنا بدنا * وهب لنا الرشد والتوفيق يا الله}
عطف علي {ورض لنا كل ذي صعب} لأنه لا يكمل
الأمن غالبا خصوصا لمن هو مثله في الحرص علي
الاستكثار من الخير إلا من طال عمره في الطاعة
فيكثر عمله ويطول قيامه بالعبودية في دار التكليف
ففي الترمذي أن رجلا سأل رسول الله صلي الله عليه
وسلم أي الناس خير فقال {من طال عمره [148]
وحسن عمله} وقال حسن صحيح ولا يتأتى إقامة
أركان العبادات ورسومه إلا مع صحة البدن لئلا تنخرم

عزيمة من العزائم فلا تُؤتي الرَّحْصُ إلا في أمور جزئية
إلا في أمور جزئية إظهارا للافتقار والعجز لا تكاسلا
وقصورا وملاك الجميع الرشد كما تقدم والتوفيق والتوفيق وأول
التوفيق الإيمان والهداية له وكماله الرشد {بَلَّ اللَّهُ
يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ} ومن استهدى إلي
الصراط المستقيم فحر أن يعتصم بالله من العوائق
والقطاع فلذلك أتبعها بقوله {ودمرن كل أعداء.
البيت} {ومن يعتصم بالله فقد هدي إلي صراط
مستقيم} ففي هذا البيت إيجاز عجيب مع جمع عظيم
أما علمت أن المَهْدِيَّ إلي الصراط المستقيم إذا سلم
من العوائق عن الوصول فقد فاز مع الذين أنعم الله
عليهم كما في أم القرآن {غير المغضوب عليهم ولا
الضالين} لأن كل سالك إلي أمر وهو غير منقطع فلا
بد أن يصل وغير المغضوب عليه ولا الضال غير منقطع
فهو واصل وقوله رضي الله عنه {ودمرن} البيت
أجمل فيه ما في الآية ولا يريد غيره ثم أخذ يعتصم
بربه من مصائب الدنيا وبلاياها ما دام حيا لكونه عُرضة
للنوائب إرشادا من الله تعالى ليُرتب عليه الإجابة
فضلا منه وحكمة فقال {وكن لنا عاصما من كل مهلكة
* ونجنا من بلايا الدهر يا الله [149]} تأمل السر في
العبارتين العصمة من الهلاك والنجاة فإن الأولياء
محفوظون من الهلاك لأن حقيقته الفساد والله لا يحب
الفساد والأولياء يحبهم ويحبونه فهما علي طرفي
نقيض فعلمنا أنهم معصومون من الهلاك لأنهم
محبوبون والله لا يعذب حبيبه فبذلك طلب العصمة من
كل مهلكة لأن الإجابة مرتبة علي الطلب وأنواعها علي
أنواعه وطلب النجاة من البلايا لكونهم لا ينفكون عن
البلاء {ليبلوكم أيكم أحسن عملا} ولحديث {أشدكم
بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل} إلا أنه ينجي المؤمنين

{ونجينا الدين آمنوا وكانوا يتفون كذلك تنجي

المؤمنين} فالنجاة أنما تكون بعد الملابسة أو المقاربة
من الرّغْبِ والقَرَعِ والعصمةُ تكون ابتداءً وتمنع
الملابسة أو المقاربة فبذلك عبر عن السلامة من
المهالك بالعصمة ومن البلاء بالنجاة فأعظم به أدبا من
آداب المعرفة ومراعاة لسر القدر ثم فصل بعد هذا
واستطرد أشياء كثيرةً مما يُصاب به الإنسان فقال

*

*

*

[150]

*

*

*

*

سرد هذه الأشياء سردا يستعيز بالله منها إقرارا
بالعجز وإمعانا في الفرار من سوء القضاء والقدر إلي

الله ورحمته وصدق الالتجاء إليه وخوفا من مكره
تعالى مع التعبد بالاتباع في ذكر المخوفات كما ذكرها
الحديث أو أكثرها كما سنبينه قريبا تبركا بلفظ الحديث
لنُكفَى المستعاذ منها به وبلفظ الخديم المقبول.

{ فصل }

ولما فصل هذا التفصيل شرع يستأنف الافتقار إلي ربه
ويقيم شعار التعظيم بالقلم عن القلب فقال

*

وبمثل هذا الإلحاح تعرف **هجيراه** في العبودية
والإلحاح [151] شعار الكمل من الأنبياء والأولياء وهو
حال العبد القائم بأوصافه لما فيه من مغايرة أوصاف
الرب فإنه تعالى الغني الحميد ونحن الفقراء العبيد
وأما عبد من العباد أصدق فقرا إليه وأخلص دينا له
فهو أجدر بالخطوة عنده وأولى بالتقريب ولو لم يشهد
لهذا إلا اختياره لنبيه **وإجاءه** إليه { قل ادعوا الله أو
ادعوا الرحمان أيا ما تدعوا، اهدنا الصراط المستقيم،
رب زدني علما } حتى في دار الجزاء في موقفه تحت
العرش في المقام المحمود يقول صلي الله عليه
وسلم { فأحمد ربي بمحامد علمنيها وفي طريق فأثني
علي ربي بثناء وتحميد يُعلمُنيهِ } لكفى أعدل شاهد

فمن شواهد توفيقات شيخنا رضي الله عنه إرشاد الله له إلي الحاج في الدعاء وإلهامه له ما هو أولى وأشمل من غيره كالمنصوص في الآثار وما فتح به عليه وحاله مع الطلب رضي الله عنه عجيب فإنه لا ينفك عنه حال بدايته وحال نهايته سواء في حال استغاثاته في المجاهدة وحال تحدثه بالنعم بعد الوصول والتمكين مما يدل علي كماله في المعرفة وصدق استيلاء عظمة المولي عليه في حالتي الهيبة والإنس والفناء والبقاء ومن أسني أحواله الأدب العام مع ربه عز وجل في كل شيء ومع رسول الله صلي الله عليه وسلم وإيثاره ويظهر ذلك في آدابه في الدعاء [152] الذي هو أكثر أعماله بعد الذكر المفرد ومفهومه أن الدعاء ذكر كله لأن المدعو مذكور بالضرورة فليس بينهما أكثر من أن الأول نعت **مَوْلِيٍّ** خاص به من حيث أنه الرب تبارك وتعالى والثاني التعت من العبد من حيث أنه مربوب فما ثم إلا ما هو ذكر له بالالتزام وأدب الدعاء استتزال المدعو الكريم بتمجيده والثناء عليه والتقرب إليه بامثال أمره وتقديم ما قدم الأولي فالأولي ورسوله صلي الله عليه وسلم أولي بالمؤمنين من أنفسهم ومن حقه علينا الصلاة وجوبا في العمر ولو مرة وقرية علي الدوام فكان رضي الله عنه يقدم الحمد والثناء ويشني بالصلاة عليه عليه السلامان ثم يأتي بالطلب بلوازمه من التضرع والخضوع وفي الحديث الصحيح {إذا صلي أحدكم فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه ثم يصلي علي النبي صلي الله عليه وسلم ثم يدعو بما شاء} كما في الترمذي وصححه وستظهر علي نمط من طلباته في أنظامه إن شاء الله تعالى وهكذا رتب هذه القصيدة من تجديد الطلب ودوام الاعتكاف والعكوف بالباب

وصدق التوجه وإفراد المهمة قد قلنا لك إنه أنشأها أول ما ظهر للناس استقلاله دونهم إلي بارئه وما نريد منك إلا أن تقف علي بعض ملامح بداية سلوكه وأنه ما عرَّج ولا عوَّل علي شيء ولا علي أحد [153] إلا علي الله تعالي بطاعته وحب رسوله صلي الله عليه وسلم فما تخلل ذلك من الجولان وطلب المشايخ ما هو إلا طلب التحقيق رجاء أن يعثر علي من يأخذ بيده إلي منتهى همته يستعين بكتب القوم أخصُّ الغزالي بالذكر ثم اليدالي أما الغزالي ففي التحقيق ووزن الأمور بميزان الشرع في المجاهدات والسلوك وأما اليدالي ففي التحقيق والتصوف فمن أقدم كتاب في التصوف نظم {بداية الهداية} للغزالي كما مر بك وتعرف في فاتحة نظمه لها {ملين الصدور} مقدار ما بلغ إليه قلبه من مقاطعة الدنيا وصدق العزيمة في طلب الآخرة ترى منه ذلك الانتزاع الشديد من أمر لأمر كيف صدَّره بالافتقار علي عاداته والتعرض لنفحات ربه ثم الثناء علي الله بتقديسه بجلائل أسمائه الحسنی وصفاته العلي قال

*

*

*

*

*

[154]

انظر ما تضمنه هذا التقديس بهذه الأسماء العظام
كيف تجلى فيه جلال الهيبة عنده وعظمة المعبود وما
استحضرت هذه الصفات في قلب ثم يشاركه شيء
من الأشياء فيه البتة كيف لمن نظر إلي مولاه بهذه
العين أن يسكن إلا تحت أمره ويسجد له سجوداً أبدياً
لا يرفع منه من مراقبته تعالى كما قال {سهل بن عبد
الله} وقد سُئل هل القلب يسجد؛ فقال نعم إلي الأبد
قال بعضهم ولقد صدق الشيخ أبو مدين رضي الله عنه
حيث قال ليس للقلب إلا وجهة واحدة متى توجه إليها
حُجب عن غيرها ثم قرن رضي الله عنه التوحيد
بالصلاة علي رسول الله صلي الله عليه وسلم وتلك
عادة نشأ عليها بفطرة الله صلاة ضمنها ثناء بذكر
بعض أوصافه الحميدة وقطعا أول ما يسبق إلي روعه
تلك الأوصاف التي رأي فيها أعظم غبطة ولا يرغب
في شيء رغبته فيها إلا أن صاحب الحاجة أعمى كما
يُقال وحاجته الإقبال إلي الله والزهد في غيره فلذلك
قال

*

*

*

[155]

*

هذه الأوصاف هي أمدح وصف عنده لأن فيها قلبه
وطمعه وفيها صغوه ورغبته قال تعالى {ولتعرفنهم في
لحن القول} ألا تراه يقول عند التخلص إلي نظم
الكتاب

*

*

*

فلنمسك القلم عن سرد القصيدة لأن ما يهمننا أن
نقَهَمَك من أحواله ما تفهم به بعضَ أموره لا أنا نريد
من نقل هذه الأبيات من منظومته أن نعلمك التربية
ولا أن نزيدك علما بالتصوف أو بعلم من العلوم ولكن
لتقف علي مثال شعوره الديني وتأثر عواطفه صبيا
في أول السن من بواعث الإحساس الديني من أعماق
قلبه غريزة لدنية بينها وبين انفتاق نوره القدسي تعالى
هو ما بين اصطكاك السحب لينبثق منها البرق
الخاطف هذا ولم يزل ذلك دأبه وديدنه من المحاسبة

والمراقبة ومجانبة الشبهات إلي أن أدته [156] إلي العزلة الباطنة عن الخلق بالتشدد وفي المخالطة الضرورية فكان من أمره ما كان من التماس الأصحاب والرفقاء من فرسان الطريق وقد أرشد الله إليه بعض رواد التحقيق وطلاب الصدق لما اطلعوا عليه من تنسكه وسلوكه ووقفوا عليه من تقييداته وتآليفه ومن سلك علي يديه فبعثهم إلي المُقام معه باعث التعلم إلا أنهم ما لبثوا أن غشيهم من كمال تقواه وعزيمة همته ما غلب علي شعورهم وتسلط علي هواهم فتأهوا في محبته وانجذبوا لطاعته فساح بهم عن سوء العادات وسما بهم إلي آداب المعاملات فقام في تحقيق الورد القادري إذ قد تنبه عليه من انتظام أهل بيته في سلكه وأول ذلك أنه كان شيخ من أقارب الشيخ الوالد يسمى {صَنْبَ تَكْلُورُ} وكان ابن خالته ويقاربه في السن سبقت له رحلة في طلب العلم إلي أن حصل علي حظ وافر منه ثم بلغه ذكر آل {الشيخ سيدي} تلميذي آل {الشيخ سيد المختار الكنتي} فكتب الله في قلبه زيارتهم والأخذ عنهم فذهب إلي {الشيخ سيدي} و {بَابَهُ} ثم مكث معه زمانا ثم رجع إلي أهله بالورد المذكور وكان يذكر لهم من صلاحه ما قبلته أفئدتهم فأخذوه منه ثم من {جَيْرُنُ إبراهيم} بعده تجديدا وكان {صنب تكلور} هذا رجلا صالحا وعالما بارعا قرأ [157] عليه شيخنا رضي الله عنه بعض مبادئ العلم وأتذكر منها {الرسالة} وأظن أن منها {السنوسي} ولا أدري هل منها بعض مبادئ النحو والقوم إذ ذاك في {سالم} أيام {مبه} المتقدم الذكر ثم بعد خروج الشيخ الوالد إلي {كجور} بعام وشيخنا في سالم مع معلمه ذاك استقدمه الشيخ الوالد وشرع في إتمام تعليمه كما أخبرني العلامة {امبك بص} {

والشيخ المسن {بكه مَانَ} وهذا السبب في أخذ
القادرية أولا ثم بعد التحقيق لم يكفه ما تحصل عليه
منهم فذهب إلي {الحاج كمر} وكان ممن تخرج علي
يد الشيخ سيدي وتردد إليه مرارا ثم لم يحصل عنده
علي مراده مما يرقى همته إلي الحقائق الشرعية
ودقائق التصوف فأبقى له الأدب وذهب إلي آل
{الشيخ سيدي} والشيخ قد توفي فخلفه ابنه {سيد
محمد} وتوفي قريبا منه ثم خلفه ابنه {باب الشيخ
سيدي الأخير} فلبث معهم بُرَيْهَةً فحصل علي ما
عندهم وأكثر أسرار كتبهم فلم يشف غليله لأنه لو كان
يريد شيئا لكفاه من لقي شيخنا ولكنه كان يريد دليل
حق علي الله ورسوله بالأقوال والأحوال والإشارات
والأعمال ليصل إلي الله بلا إشراك علي سنة رسول
الله صلي الله عليه وسلم [158] فانقلب من عندهم
راضيا بسيرتهم بلا ري من سقيهم فبحث عن التيجانية
والشاذلية فزار {آل حمد} ورؤساء الطريقتين فلم
يكن نصيبهم من ترقيته أكثر من نصيب الطائفة الأولى
فجدد التوبة وانقطع رجاؤه من مشايخ العصر
وتضعفت ثقته بظواهر الأوراد فأقبل فانقلب من
عندهم راضيا بسيرتهم بلا ري من سقيهم فبحث عن
التيجانية والشاذلية فزار {آل حمد} ورؤساء
الطريقتين فلم يكن نصيبهم من ترقيته أكثر من نصيب
الطائفة الأولى فجدد التوبة وانقطع رجاؤه من مشايخ
العصر وتضعفت ثقته بظواهر الأوراد فأقبل لي الله
بقلب منيب وتوسل برسول الله صلي الله عليه وسلم
بالخدمة والصلاة علي السنة والعمل بالقرآن تلاوة
وتدبرا فكان هذا الإعراض وهذا الإقبال فاتحة عصر
جديد في التوبة من التقليد إلي الإقتداء ومن التمسك
بالرجال إلي التمسك برسول الله صلي الله عليه

وسلم فإن من العباد من يجعل الله فيه غريزةً فيُحرِّكه للاستدلال ثم يوفقه للدليل الحق فيتَّبِعُه فيوافي به الحق وآيته الصدق في الطلب والتحفز من الاضطرار وانتظار الفرح من اللطيف الخبير والأصل في ذلك صحة الإيمان {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يؤمن بالله يهد قلبه} فترى الانقلاب الذي برزخه مسالك الجنان وفتحتة التائبة لأن ما قبل المسالك ففي البحث والتحقيق يتخلله التشوق إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم والدعاء والاعتصام وفي زمن المنظومة ففي التحقق وتنزيل الأمور منازلها والتعويل [159] علي حقيقة الحق وهو الكتاب العزيز ومقتضاه من اتباع الرسول صلي الله عليه وسلم وما جاء به وتعزيزه وتوقيره والتنويه به اقتداء بالكتاب في مدحه وتزكيته أما التائبة ففي الترقى عن الأسباب إلي المسبب ومن تعود الأعمال إلي الاتصاف بالأحوال فكانت بداية في التوبة أيضا وولادة معنوية أخرى يحضنه فيها اللطف وتُربيه المشاهدة في كنف خير البرية صلي الله عليه وسلم

{ فصل }

وكان التحقق في أواخر عام {يسش 1310} وفيه حصل التعرف بالأشياخ الكرام بواسطة العناية من طريق الأوراد لا ترقية الملقنين وإن كانت لهم منة الاعتناء والعهد المرعيّ فتراه يُصرح بمبايعة {الشيخ الجيلي} بقصيدته التي أولها

*

إلي أن قال بعد أبيات في التنويه والصلاة علي رسول
الله صلي الله عليه وسلم

160]

*

*

*

*

*

*

إلي أن قال بعد أبيات في التوسل إلي الله بأسماء
الجيلي وألقابه المعروفة عند أهل طريقته

*

*

ضمنها كل ثناء وتفخيم وتلطف وعقيدة صادقة مع
الالتجاء إلي الله في الترقية بالشيخ ثم ما وقع له مع
الجيلي هو الواقع له مع شيخَي الطريقتين إلا أنه مع

الجيلي في رتبة المبتدأ ولم يأخذ الطريقتين إلا بعد الاستبصار لتنبهه عليه في أول السلوك كما تقدم فتفاوتت المراتب فلذلك لم يكثر ذكرهما والدوران لملقني ورديهما كما أكثر في طريق الشيخ المتقدم لما تبين [161] الفرق بين المريد الذي لم يزل في رتبة الصحبة وبين من ارتقى إلي درجة الملاقات والترقية فتراه يُجلهم محلاً واحداً بعد الارتقاء لخدمة الرسول والأخذ عنه صلى الله عليه وسلم وله في كل منهم ثناء وشكر ولهم عليه منة الاقتداء بهم والشاهد علي ذلك إسبالة الحرمة لهم ولأصحابهم من أول أمره إلي آخره فما منا من لم ير رسل القادرين يُهدي لهم الهدايا الوافرة ومشايخ الشاذلية يُجلهم ويوفر لهم النوافل واللهي العظام من آل حمد وآل متال وغيرهم وكذلك التيجانية لم يزالوا في مواصلة معه ويكرمهم الإكرام الزائد ويجل مشايخهم كالأشياخ العلويين الذين كثرت وفادتهم عليه ورفده لهم وشاع ذكره بين صغارهم وكبارهم وملاً الدفاتر محاسن شعر شعرائهم وكذلك إخوانهم في الورد من السودان طال ما أراهم ينزلون عنده ويؤسِّع عليهم ويهيئ لهم المجالس الطاهرة ليؤدوا ووظائفهم وكذلك غير الثلاثة ممن عرف بالصلاح يحفظهم في بنيتهم ويحيي ما أمكنه من تواليهم وذكرهم جزاه الله خيراً هذا ولما تقبل الله منه ولقنه الشيخ أوراده مشافهة لم يقنعه ولم يقعد بهمته وقد علق القلب بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلقاً لا يكفيه منه إلا [162] المخالطة ومتى عهد في العرائس أن تبلغ الخلّة منهن مبلغ الإيثار بالفراش فرجع إلي الله وإليه المآب مخلصاً إليه في الافتقار والاعتماد ليرفعه إلي مواصلة الحبيب الذي لا يقر له قرار إلا بوصلته كيف وقد تخلل العشق بين أقدية الدم

والعروق منه وكذلك الإيمان حين تباشر بشاشته
القلوب فكان هذا الرجوع والإنابة إلي الله تعالى فاتحة
عصر جديد في حياته وتوبةٌ جديدةٌ في مقامه وكان
ذلك في عام {أيسش 1321} فتقرأ في قصيدته
المرتبة علي حروف {أبتشجح} رجوعه من الافتقار إلي
المخلوق إلي الافتقار إلي الخالق ومن التوسل
بالأسباب إلي التوسل بخير سبب وأوله سيد الوجود
صلي الله عليه وسلم ويُصرِّح بمبايعته له عليه الصلاة
والسلام وتفريده من بين الوسائل ولكل حرف من
حروف الهجائية أبيات قال في أولها.

*

*

*

*

*

*

*

ثم قال في حرف الباء

*

*

*

*

*

ثم طفق يُعَدِّد المناقب الكثيرة من آخر هذه الحروف
فقال.

*

*

ثم سرد أبياتا كثيرة علي هذا النمط النفيس وما
أحسن قوله فيها في حرف الزاي.

*

*

*

[164]

*

*

إلي أن قال في حرف الظاء

*

*

*

*

*

*

إلي أن قال في حرف الكاف

*

*

فهل بعد هذا التصريح شك في تقلب أموره بفضل
مقلب القلوب إلي أرقى ما في إمكان العبد من
التوجه إليه والصدق فيه قال في حرف القاف.

*

*

[165]

فهكذا تراه لا يعول إلا عليه سبحانه وتعالى برسول
الله صلي الله عليه وسلم لتلاشي أنوار الأقطاب في
نوره الباهر عند معاينته له عليه الصلاة والسلام كما
في البيت المتقدم {زهدي طلوع شمس في نظر*
إلي النجوم في السماء والقمر} وفي هذه العبارة
بهذه الاستعارات لطيفة وهي ذكر النجوم قبل القمر
لأن النجوم أكثرها أكبر جرماً من القمر وأبعد فلكا
ونور أكثرها ذاتي فيها ويُقدَّر ما ريء منها عند بعض
المتقدمين {بقصد الوفا} عدد الأنبياء والمرسلين فكأنه
يشير بها إلي الأنبياء لكون النبوءة ذاتية في النبي غير
مكتسبة وهم أعلى مقاما وذكر القمر يعبر عن القطب
في كل زمن لأن آل للشمول إذ لا يمتنع من كونه لم
يُوجد منه إلا واحد تعدده في العقل والخيال عند
التصور بل في الواقع أيضا عند أهل الهيئة لأن القمر
عبارة عن كل سيار تابع لنظام الشمس مستفيد منها

كما تقرر ولا ينبغي أن نطيل فيه لأنه ليس من قصدنا وإنما ذكرنا منه ما ذكرنا من أجل إبراز بعض اللطائف والرقائق من كتاباته وعلومه التي لا تزال قطرة من بحورها وذلك أن نور الأولياء مستمد من نور شمس صلي الله عليه وسلم عبر عنه بالشمس في مقام تجليه في عالم دار التكليف من تنزله لختم الرسالة [166] وإفادة العباد في بقية الدهر فلذلك قال شمس بالنكرة ليؤذن أن هناك شمس باطنة وهي حقيقته صلي الله عليه وسلم الفائضة علي النيرات كلها في العوالم من نبي وملك وولي فسبحان من يُعلم من لدنه من يشاء من عباده ويُوفقه لرضاه تعالي جدّه فانقلب كل أمر من أموره رضي الله عنه فقد كانت الوجّه إلي بيوت المشايخ فصارت إلي بيوت العلم والعلماء لإحيائه وإجلال ذويه وأبقى لمشايخ الطرق الإكرام والإسعاف والاحترام علي حد الحظ من التحابب في الله والمزاورة كما ورد في الحديث {وجبت محبتي للمتحابين في والمتزاورين} مع ما للمنتسب من حق يراعى فيه من أجل ما انتسب له كما قال {الشيخ زروق الانتساب مشعر بعظمة المنتسب إليه والمنتسب فيه في نظر المنتسب فلذلك لزم احترام المنتسب لجناب الله بأي وجه كان وعلي أي وجه كان ما لم يأت بما ينقصه عن التعظيم فالنقص كمخالفة الشريعة صريحا فيتعين مراعات نسبه وإقامة الحق عليه إلخ وعلي حد ما قال الإمام الجنيد وقد رثت السبحة في يده ف قيل له أما استغنيت عن هذه فقال طريق وصلت بها إلي ربي لا أحب مفارقتها، وليست السبحة هي الطريق ولكنها آلة من آياته وماعون من مواعينه فتكون لها حُرمة يحفظها [167] له الأدب وكانت التربية بالأوراد فصارت بإقامة

شعائر الإسلام واستدامة الذكر والتذاكر فصارت تابعة
بعد أن كانت مسايرة وكانت التواليف في تحقيق
العلوم الشرعية فصارت الكتابة في التحقيق بحقائقها
والإتصاف بمحامدها وغادرها رسوما ثبت عليها مدارج
السلوك لمن عُني بالهدى وكانت المعاملة مع
المعاصرين بالمدارات والمصالحات فصارت إلي
الصراحة في الحق والمقاطعة علي حدود الشرع أعني
به أن تكون المعاملة بحسب مقتضى الشرع حبا
وبغضا بلا مدارات ولا مدهانة ولقد أوضح ذلك عالم
كجور وقاضيهها {مَجْحَةٌ كَلٌّ} الذي هو مِحْكُ النَّابِغِينَ
في الفنون والأحوال إذ بعث إليه تلميذه اللبيب ذا
المروءة الكاملة والعقل الرزين {عبد الله **انيان**}
لحاجات دنيوية في هذه النوبة فرده {شيخنا} رضي
الله عنه بصراحة أسعفه بما أمكن وما لا يوافق منها
وقته بين له فيه العذر في محاوره قصيرة حكى عليّ
الرجل أنه مكث ببابه طويلا قال وهو لم يالف أن
يحتجب عنه لا عند العلماء كـ {مَجَحَّتْ كَلٌّ} الذي هو
من أعظمهم رئاسة في ذلك الوقت ولا عن أمراء بين
كجور وبول قال ولما لقيته بعد الاحتجاب لم ينيسط
لي انبساطا واسعا كما كنت أتوقع لي ثم لما بلغته
الحاجة صرفني في الحال قال فتقل ذلك عليّ [168]
حتى عرفه فيّ فقال لا يثقل عليك ما وقع ولا تهب
مَجْحَةٌ أن تبلغه جوابي فليكن نطقك وحبك وبغضك في
الله ولله فقط فإذا لا يسخط عليك من أرسلك وإن
استحقرك أو سخط عليك فلن يضرك شيئا لأن
احتجابي وقلة فراغي إنما هو لشغل شاغل أهم من
الأمر الدنيوية بل لا نسبة بينهما ولا مفاضلة قال
الرجل فدخلني شيء في نفسي هوّن علي بعض ما
كان ثم رجعت إلى شيخه ولعله تفتن بعض التفتن
لذلك الشغل فتفكر شيخنا رضي الله عنه في تحريكه

لوجهة أخرى ليقف علي كنه ضميره ومبلغ عزيمته
وموضع بسطه فكتب إليه هذا البيت

*

وهي التائية التي كررت ذكرها في تتبع سير شيخنا
رضي الله عنه وكيفيته كثيرا ليطلع علي مقامه هل هو
ممن يحب القوم ولما يلحق بهم فيُزَحَمَ بالمعية وهو
مقام نبيه أم من المجاهدين المنقطعين علي أثر
الفرسان المتشمرين للالتحاق بهم أينما كانوا وحيث ما
هو من الفريقين فقد فاز إلا أنه كما عرف من بعد
الهمة والرجولية والقيام بحق العبودية لا يتخلف عن
الفرسان ولا يرضى بدُونَ من المَقَامِينَ فإن المعية [169]
لمجرد الحب مع عدم القيام بكل الواجب فضل
عظيم وحظ كريم ولكن من صدق الحب وصدق في
الاتباع والافتقار واستوعب ما وجب عليه واستكمل
الآداب أعظم فضلا وأكمل حظا والكل يتوفيق الله
تعالى وفضله وزاد المشمر علي الأول أنه موعود
بالإلحاق بهم وبالنصر وممدوح بلسان القرآن قال
تعالى {والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم
ذرياتهم} وقال {إن تنصروا الله ينصركم} وقال
{فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم علي
القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى} فجعل اللحوق
للمتبع بإيمان والإيمان قول وعمل كما عليه جمهور
علماء أهل الشرع قال صلي الله عليه وسلم في
الصحيح {الإيمان بضع وسبعون أو ستون شعبة
فأفضلها لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن
الطريق} فعلمنا من تفاصيل صاحب الشرع عليه
صلوات الله وسلامه أنه أقوال وأعمال وفيه {الحياء
من الإيمان} قال في المواهب قال {القاضي عياض}

وإنما جعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزة لأن استعماله علي قانون يحتاج إلي اكتساب وعلم وقال القرطبي الحياء المكتسب هو [170] الذي جعله الشرع من الإيمان دون الغريزي إلخ قلت لم لا يكون الحياء من الإيمان من باب الكمال والتضمن فيكون الحياء من لازم الإيمان فيكون من كمال الإيمان أن يكون المؤمن يستحيي من الله أن يراه مخالفا فيكون المستحيي حيا في كل مرتبة من مراتب إيمانه بتسديد العلم ولا مانع من أن يكون مكتسبا كما قال القرطبي إن من كان فيه الحياء غريزة فإنه يعينه علي المكتسب حتى يكاد يكون غريزة والاكتساب يصح في جميع الأخلاق وهو التخلق ولا بد منه للمريد وقد أبان لك ذلك سيدنا أنس رضي الله عنه في **حديث** الصحيح حين سأله صلي الله عليه وسلم السائل عن الساعة فقال له صلي الله عليه وسلم { ما ذا أعددت لها فقال لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله فقال له أنت مع من أحببت } ثم قال أنس رضي الله عنه حين حكى الحديث فأنا أحب النبي صلي الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وعثمان وأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم فعلمنا أن المعية درجات وكلها خير فمعيته تعالي للخلق عامة غير معيته للمؤمنين ومعيته لعموم المؤمنين غير معيته لخصوصهم قال { وهو معكم أينما كنتم } وقال { ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو [171] رابعهم } إلخ وقال { إن الله مع المؤمنين } وقال { مع الصابرين } وقال { مع المتقين } وقال { مع المحسنين } فدل أن لخصوص كل وصف خصوص معية ولعموم الصحابة مزية علي غيرهم ثم لكل أمة وطبقة خصوص معية للخاصة العليا منها ثم لما كان { مَجْحَةً } فهم كثيرا من هذا المنحي جعل يستخبر

شيخنا رضي الله عنه فرماه بهذا البيت مفردا وقد صادف شرره وقصا في صدره كاد يشتعل بنفسه فأطنب رضي الله عنه في وصف القوم الذين هو معهم معية كاملة قلبا وقالبا وبعبارة أخرى يصف نفسه وقومه وذوي تربيته يومئذ في {طوبى} عام أيسش 1311 بعد التعلق بالرسول المصطفى صلي الله عليه وسلم وإن كان يذكر قوما مضوا كما قد يقول في القصيدة إلا أنه لو شاء قائل أن يقول إنما ورّي بهم عنه لما بُعد عن الصدق علي أني لم أكتب عن أخباره إياي إنما قرأته في تتبع أحواله وسلوكه مع مرديه ساعتئذ صحفا منشرة وما أحسن قوله في أول قصيدته.

*

[172]

هل يظن ظان إن كان يرجو بمجرد البكاء رضوان الله وفي وُسعة أن يعمل مثل عملهم حاشاه بل إنما ذكر البكاء مجارة للكاتب في مضمار لفظه وإنما كتب ما كتب عن وحي شعور انبعث عن أعماق ضمير يسطع عليه نور **شعشعاني** من مشكاة نور النبوة علي صاحبها الصلاة والسلام أخبرني أحد كتبه وهو {حمزة جخت} أنه أخبره أن في هذا الشهر شهر رمضان الذي فيه القصيدة كان أولما عاين رسول الله صلي الله عليه وسلم ولكن وراء ستر رقيق شفاف، قلت ومن هنا نشأ الانتزاع المفاجئ والانجذاب والغيبة فيه صلي الله عليه وسلم وخدمته عن غيره ومن عناية الله تعالي {بشيخنا} إجراؤه الستر الرقيق بينه وبينه عليه السلام في أول الأمر ليشتد الشوق ويتعاضم

العشق لأجل المعاينة فإن العامل علي العشق بعد
المعاينة أشد استهلاكاً في سبيل طلبه من المصدق
بالشيء دون الرؤية وإن صح يقينه فإن عين القين
أصدق من علم اليقين قال {قاسم الجرعي} كما
حكى صاحب الرسالة ما مُلِّخَّصُه أن رجلاً كان يقول
في دعائه إلهي قضيت حوائج الكل ولم تقض حاجتي
فسئل بما اقتصر علي هذا الدعاء فقال إنه خرج في
سنة من بلدان شتى للجهاد فما قتل أحد منهم إلا
ورأى [173] جاريةً نزلت من السماء معها منديل تقبض
روحه وقد رأى أبواب السماء مفتحة حتى قتل الستة
وسلم هو فرجعت الحوراء التي كانت تنتظره وقالت
له أي شيء فاتك يا محروم وغلقت الأبواب قال فأنا يا
أخي متأسف علي ما فاتني فقال {قاسم الجرعي}
أراه أفضلهم لأنه رأي ما لم يروا وعمل علي الشوق
بعدهم فالمنقطع للطلب إذا عاين وقارب ورق الحجاب
الشَّفَّاف فلا يُعَبَّرُ عن حاله واستماتته قطعاً فمن أول
توفيقات {شيخنا} رضي الله عنه استحثاث مولاه بهذه
اللطيفة وما هو بأخرها إذ رُفِعَ الحجاب ما كان أسرع
ما زجَّه في نوره القدسي صلي الله عليه وسلم من
وثبة غريبة نشأت عن أمر غريب {والله يختص برحمته
من يشاء} وعمل بالأوراد لأنه إذا كان بعد الأخذ عن
رسول الله صلي الله عليه وسلم فما الحاجة إلي
الواسطة بعد وصال الموسوط إليه وإذا كان قبله فهل
ترك القادرية لأنك تقول إنه هو أول تنبهه عليه ولا بد
إدًا أن يكون عاد إليه لأن الظاهر من تاريخ القصيدتين
يناقض المُدَدَّ التي ذكر عن نفسه أنه عمل بكل ورد
قربها فاعلم إذا أني بينت لك أن أخذه للقادرية أخذ
مُقلد وأخذه غيرَه عن استبصار ودليل فكان التلقن
علي أيدي الملقنين متفاوتاً ففي [174] الأول كان قائده

التصديق وحسن الظن فلا يمكنه إلا الوقوف عند حدودهم والوفاء بشروطهم شأن المقلدين مع الأشياخ من الإطراء والإفراد والتجرد من غيره كما هو معروف من شروط المريـد وفي الآخر إنما أخذ ما أخذ استحسانا وشهودا سر وبركة بعد تحقيق المناط من الأصل الحق فكان الأخذ بها تعبدا يسد به **الفُرُوع** بين صرائح الفروض والسنن ولم يحمل علي الأخذ من الملقنين بعدُ إلا مراعات آداب الأوضاع والرسوم فبذلك كان العمل بها بعد الأخذ عن رسول الله صلي الله عليه وسلم وتخصيصه بالخدمة لأن الكل من خدمته لأنه إحياء لسنته في العموم وإن اختلفت الأوضاع والرسوم والقوالب مع بركة الاقتداء كما قدمنا مرارا للاستئنان بسنته صلي الله عليه وسلم في قوله تعالى { فبهديهم اقتده } فنقول لك إن أخذه الأوراد غير القادرية كان قبل عام المبايعـة المذكورة في القصيدة وكان التلقين قبل العمل بها لما في الجمع في زمن واحد من تشتيت الهمة فأفرده حتى حصل علي منتهاه ثم عمل بالباقيـن علي الترتيب تعبدا واستيفاء للشروط ووفاء بالنذور كسيائر القربات والنوافل الملتزمة لا تربية إلي أن وَفِّي لها ولأصحابها حقوقهم وحصل اللقاء مع المشايخ والتسليم له أو الإيضاء ثم انتزعها رسول الله صلي الله عليه وسلم وأعطاه القرآن [175] وردا أبديا وأعمال الإسلام قوتا سرمديا قال رضي الله عنه.

*

ثم أورثه الأوراد عن نفسه بلا واسطة المشايخ فهناك استولى أمد الفضائل فوصل واتصل فتمكن وما انفصل عن جهاد صدق وعزيمة حق قال فيه أحد

شعرائه الحسينيين المفلق **الخنديذ** {محمد فال بن
عَيْنِينَ} رحمهما الله وقد أصاب القُصَّ

*

*

*

*

*

*

*

*

وهاك منظومة توقفك علي حقيقة سلوكه وبمن سلك
ومع من [176] سلك وما آل إليه الخدم الكثيرة لجناب
الله وجناب رسوله صلي الله عليه وسلم بالكتاب

والسنة وأوراد المشايخ وكيف لم يبخسهم حقهم عند
انتهاء سيره إلي الله ورسوله بلا واسطة إلا الكتاب
والسنة وبالمنظومة أختم الفصل تبركا وقد رتبها علي
حروف بسم الله الرحمان الرحيم وهي المسماة
{بالتوبة النصوح} فقال

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

فقد أبان لك في هذا الوقت حيث أسس بنيان سلوكه
علي بصيرة منه علي التقوى وهي الامتثال والاحتساب
كما نزل به الذكر وبينه الحديث وقرره الإجماع أنه
عليها عَوَّلَ وبها اعتمد فعزَّ بها وبزَّ كما قال {سلبت
بالكتاب} البيت وأنه يشكر الله بتعداد النعم والثناء
عليه والنعم هي ما ألهمه الله تعالى من لدنه من
حقائق الإسلام ونور النبوة وأسرار القرآن وحلاوته
فرضي بالله تعالى ربا وبمحمد نبيا ورسولا وبالقرآن
أنيسا ودليلا ثم عطف علي من لهم عليه منة ما فقال
{مشايخي سيدنا الجيلاني} إلي آخر البيتين وذلك لأن
من لم يشكر الناس لم يشكر الله فإن الأسباب [178]

حقا عند ذوي الألباب ثم لوح بآخر البيت الأخير من المنظومة بما استقر عليه أمره بقوله {وصل علي الذي من اكتفى به وصل} بلا واسطة فوصل هكذا كان وقد يصرح به لبعض المتنطعين كما وقع لأحمد تلميذ الشيخ سيدي الكبير حين كان مع الشيخ الأخير إمام مسجدهم ومعلم صبيانهم {وشبخنا} رضي الله عنه معهم في أيام دورانه معهم من إرسال الحكومة إياه لتلك الأرض لا تمنانهم الشيخ سيدي عليه لما عرفوا بينهما من الوصلة التي هي في زعمهم وزعم كثيرين في ذلك الزمن أنها تعلق وقد كان آل الشيخ سيدي ذات يوم يريدون الارتحال من محل آخر لضرورة الماشية فتناقل {شبخنا} رضي الله عنه في الارتحال وترددت رسل آل الشيخ سيدي إليه فلما طال عليهم الأمر قال له في عرض الكلام أيها الشيخ أنت أعلم منا فنسألك أهكذا يفعل المريدون مع أشياخهم يعرض بأنه يخالف أمر الشيخ سيدي بشيخه بزعم القائل فقال له {شبخنا} رضي الله عنه يأتيك الجواب إن شاء الله تعالي وكتب إلي {الشيخ سيدي} **براوة** قال فيها إني لست بتلميذ لكم والشيخ يعلم أنه ليس بشيخ لي وحرام علي أن أتعلق بأحد علي وجه الأرض وذلك ليس بازدراء للمشايع ولا استحقارا لهم إنما ذلك من وجه أن رسول الله صلي[169] الله عليه وسلم أقبل علي يربيني ويرقيني ويحرم علي الإibar عنه عليه الصلاة والسلام ولما وصلهم الكتاب زال اللبس والدعوى عن جاهليه واتصل صفاء المودة في الله ورسوله بينهما من فضل الله ورحمته فلنمسك القلم هنا ليلا نكسبك الملل في جلب حكايات أمارات استمرار توبته من أول بدايته وأول انتباهه ثم مكاشفته ثم مشاهدته ثم في الهيئة والإنس ثم هو مع ربه في

المطالعة الخفية في مقام الزلفى التي لا نهاية لها حتى في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام قال تعالى {فلا يُظهر علي غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول} وأشار لها وقال {رب زدني علما} فتوبته كما تقدم عناية من الله تبارك وتعالى لا عن جناية مقترفة ولا إثم مرتكب ولكن نظر المقربين فيما به الكمال لا فيما يسقط به الحرج ومقامهم العبودة وحالهم الترقى في العلوم والازدياد منها رضي الله عنهم ورضوا عنه ونفعنا بهم اللهم أمين وهذا بعض ما أردنا ذكره في مقام التوبة له في البدايات وشرح بعض تفاصيله لتقف عليه ولما كانت التوبة تستغرق أعمال الإنسان من أولها إلى آخرها وكانت مقاما يستوي في دخوله المبتدأ في أول السلوك والمنتهي في أحظى حال التمکن فلا مطمع في قطع عقباتها وتركها [180] ظهريا إنما هي درجات بعضها فوق بعض كما تبين وقد ألمنا بكثير منها في هذه الورقات إجمالا وتفصيلا فلنأت ببعض آثاره رضي الله عنه في سائر المقامات بقدر ما أسلفنا من مقامها ولها في كل مقام درجة وسريان قد نميط اللثام عنها فيه إن شاء الله ونلوح عليها في بعض عرض الكلام لأن كل مقام أس ما يليه من المقامات تنبني عليه ويسري معها وباستكمالها يتحقق العبد الكمال الإنساني فيكون نعتة بالمقام الأعلى نعتا بالجميع لاشتماله عليها اشتمال العام علي الخاص.

{الباب الثاني في مقام صبره رضي الله عنه}

كان رضي الله عنه متصفا بالصبر وعاملا بالشكر والصبر والشكر متلازمان لا يتم أحدهما إلا ويُورث الآخر قال {أبو طالب المكي} رحمة الله عليه قد جعل الله عز وجل الصابرين أئمة المتقين وتتم كلمة الحسنى عليهم في الدين قال تعالى {وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا} وقال {وتمت كلمة ربك الحسنى علي بنى إسرائيل بما صبروا} إلي أن قال أبو طالب بعد كلام طويل فمعني الصبر حبس النفس عن السعي في هواها وحبسها أيضا علي مجاهداتها لمرضات ربها والحبس عن [181] نحو الشرود وحبسها علي دوام الطاعة وصبرها عن شره الطبع الذي يُظهر سوء الأدب بين يدي الرب سبحانه وتعالى وصبرها علي حسن الأدب في المعاملة ثم يتفرع الصبر علي معان شتى من الصبر عن تفاوت الأهواء والصبر علي الثبات في خدمة المولى فمن ذلك ما توجب المجاهدة صرف الهمة عنه وتطهير القلب منه من خطرات الهوى ونزغات الأعداء وتزيين الدنيا ومن الآفات ما يوجب كَفُّ الجوارح عنها وحبس النفس عن المشي فيها ومن الصبر حبس النفس علي الحق وعكوفها عليه بمعاملة اللسان والقلب والجسم إلي أن قال ومن الصبر حبس النفس علي عبادة الخالق سبحانه وتعالى وصبره علي القناعة وعلي صنع الرازق ومن الصبر كف الأذى عن الخلق إلي أن قال ثم احتمال الأذى عن الخلق والصبر علي الاتفاق والصبر عن البغي والصبر علي العوافي والصبر علي الأذى توكلا علي المولى والصبر علي الأحكام والصبر علي المكافات والصبر علي الله بالمجالسة وهو أعلاها إلي آخر كلامه وقال {القُشَيْرِيُّ في الرسالة} ثم الصبر علي أقسام صبر علي ما هو كسب العبد وصبر علي ما ليس بكسب فالصبر علي المكتسب علي فسمين

صبر علي ما أمر الله تعالى به وصبر عن ما نهى عنه
وأما الصبر علي ما ليس بكسب للعبد فصبره علي
مُقاسات ما يتصل به من حكم الله فكأنه [182] تفصيل
لما في القوت من وجه وإجمال له من وجه وقال فيه
وروينا عن {ابن عباس} رضي الله عنهما الصبر علي
ثلاثة أوجه صبر علي أداء فرائض الله وصبر عن محارم
الله تعالى وصبر في المصيبة عند الصدمة الأولى
ونحوه في الإحياء إلا أن الكل يُغني عنه القوت في
الأكثر إلا لمن يريد زيادة التبسط فالإحياء هو الغاية
وقد نلخص البعض إشاراً للاختصار فترجع هذه الأقسام
كلها إلي نوعين ما يلائم الطبع وما يخالفه وقد قال
{الغزالي} النوع الأول ما يوافق الهوى وهو الصحة
والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع
الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا وما
أحوج العبد إلي الصبر علي هذه الأمور فإنه إن لم
يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك
في ملاذها المباحة منها أخرج ذلك إلي البطر
والطغيان {كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى}
حتى قال بعض العارفين البلاء يصبر عليه المؤمن
والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق وقال {في الرسالة}
قال الخواص الصبر الثبات علي أحكام الكتاب والسنة
وفي القوت كان {سهل بن عبد الله} يقول الصبر
علي العافية أشد من الصبر علي البلاء وكذلك قالت
الصحابة ابْتُلِينَا بِفِتْنَةِ الصَّرَاءِ فَصَبَرْنَا وَابْتُلِينَا بِفِتْنَةِ
السَّرَّاءِ فَلَمْ نَصْبِرْ قَالَ تَعَالَى {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ} [183]
وأولادكم فتنة} وفي الحديث لما نظر عليه الصلاة
والسلام إلي ولده الحسن رضي الله عنه يتعثر في
قميصه فنزل عن المنبر واحتضنه وقال {الولد مَبْخَلَةٌ
مَجْبَبَةٌ} إنما أموالكم وأولادكم فتنة} والصبر علي

العوافي أن لا يجريها في المحالفة والصبر علي العني

أن لا يبذله في الهوى والصبر علي النعمة أن لا يستعين بها علي معصية فحاجة المؤمن إلي الصبر في هذه الأمور كحاجته إلي الصبر علي المكاره والفقر والشدائد والضر ثم قال النوع الثاني ما لا يوافق الهوى والطبع وذلك لا يخلو أما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعة والمعاصي أولا كالمصائب والنوائب أولا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه وهو تفسير لما تقدم عن صاحب الرسالة فإذا ثبت ذلك فاعلم أن الصبر **أما إن** يكون فرضا أو فضلا والفرض الصبر علي الطاعة والصبر عن المعصية والفضل الصبر علي الإنفاق الغير اللازم وعلي نية القرية فيه قبل المباشرة والصبر عن المكافأة والانتقام والصبر مع الله في أحكامه وقضائه { فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا } توكلا عليه والصبر في المصيبة عند الصدمة الأولى عن التسخط والتبرم واتهام المولى فيؤخذ من تقاسيمهم أن الصبر أربع مقامات صبر [184] العادلين وهم الذين { إذا أصابهم البغي هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها } وصبر المتوكلين وهو الصبر علي الأذى قال تعالي { فاصبر علي ما يقولون، ولنصبرن علي ما أذيتمونا وعلي الله فليتوكل المتوكلون، ودع أذيتهم وتوكل علي الله } وقال { فمن عفا وأصلح فأجره علي الله } وقال { ومن يتوكل علي الله فهو حسبه } وصبر الراضين وهو الصبر علي الأحكام وهو صبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ثم الأمثل فالأمثل قال { القشيري } بإسناده إلي الجنيد رضي الله عنهم المسير من الدنيا إلي الآخرة سهل هين علي المؤمن وهجران الخلق في جنب الله شديد والمسير من النفس إلي الله تعالي صعب شديد والصبر مع الله عز وجل أشد فسئل ما الصبر: فقال تجرّع المرارات من غير **تعبيس** وفيها

قوله {واصبر} أمر بالعبادة {وما صبرك إلا بالله} أمر بالعبودية وقال ذو النون الصبر التباعد عن المخالفة والسكون عند تجرع غصص البلية وإظهار الغنى مع حلول الفقر في ساحة المعيشة وفيها الصبر الثبات مع الله وتلاقي بلائه بالرحب والسعة فهذا هو صبر الراضين وفوقه صبر المتقين وهو الصبر علي الله بالمجالسة له والإصغاء إليه وعكوف الهم عليه وقوة الوجد به وهو خصوص المقربين كما قال {أبو طالب} وقال أو حياءً منه أو [185] تسليماً له أو تفويضاً إليه وهو السكون تحت جريان الأقدار وشهودها من الإنعام. قلت وهل أوفى تقسيمه لتنوع الأحوال علي صاحب المقام وما هو ببعيد فلنمسك القلم في هذا المحل من هذا الميدان فقد تمهد قبلنا بأجيال ونتخلص إلي ما كنا بصدده من الرمز إلي بعض آثار باقيات {شيخنا} رضي الله عنه الصالحات فنقول إن مقامه في الصبر رضي الله عنه معلوم عند ممارسه مقروء في سطور عمره من أول ما عقل إلي يوم قدومه إلي ربه عز وجل كان رضي الله عنه في صباه كثير الاعتزال لأقرانه حبب الله إليه الخلوة وكانت العفة وما تحتها من الحياء والتورع ومجانبة الظلم **مركز** في طبيعته لم يعرف له الولدان رغبة قط ولا حفظوا عنه رهبة فكانت هذه الدمثة والخلق **السجيج** أول دلائل ما فيه من قوة استعداده لمكافحة الحوادث في طالع حياته الأولى فاتضح من صبره عن لذائذ مراغب الخلق ورقائق رافة الأبوين فكانت الحاضنة تخشى عليه من سكونه وعدم معرفته الله واللعب وقلة استلذاذه لما يستلذه من هو في سنه وعدم اكتراثه من التهويلات والترهيبات التي قد يفرق منها الصبي إلي أن ترعرع فانكب علي لوحه لا يفارقه ولا يفتر عن الدرس

وبلغني أنه لم يكن بأسرع أهل بيته حفظا للدروس وإنما كان أقوى [186] منهم ذاكرة فيما حفظ وأشدهم انقطاعا لما اهتم به واستفراغا واجتماع همه فكان صبره لتعب التعلم غيبا في بابه وأوانه لما عرف في طبع الصبيان من الكسل عن الألواح خصوصا أبناء الرؤساء كما كنت أيها الكاتب مع معلمي إلي أن بلغ سن الوجوب وجمع كثيرا من الفنون من هذه المهمة بلا فترة ومما تعرف به بعد همته من أول نشوءه اجتهاده في اكمال فنون علوم الشرع وأدائها وآلاتها من فقه ونحو وعروض وبيان ومنطق وأصول وتفسير بنوعيه تفسير العلماء وتأويل أهل الإشارات من الصوفية والمحققين حتى أنه لما كان بعض هذه الفنون غير مستقصى فيه عند السودان في ذلك الزمن ولم تمكنه الرحلة مراعاة لخاطر الشيخ الوالد جعل يختبر مظنة العلم ممن يسافرون إلي أرضه من البياضين وبياحثهم ليأخذ عنهم ما بقي عليه مما يُدْرَس في المدارس بين السودان والصحراء الكبرى حتى عثر علي رجل من بني ديمان من أولاد {سيد الفاضل} أعني به الشيخ النبيل الكريم {مُحَمَّدًا بنَ مُحَمَّدَن} كريم السادات الصلحاء كان له بعض موال في {انجاي} قرب {بتار} مدرسة الشيخ الوالد كان كثيرا ما يأتيهم لخراج يأخذه عليهم وتعرّف به {شيخنا} رضي الله عنه فوجده بحرا من العلوم فأخذ عنه تلك المتيمات حتى [187] تضيع منها أجمع وبذلك أربى علي أقرانه ومعاصريه في العلوم الظاهرة التي كانت تكون عنها الرياسة في بلده والصيد فضلا عن العلوم **الوهبية** التي خص بها من لدنه تبارك وتعالى فخالف العامة وأكثر الخاصة من لزومه مطالب الشرع وتدقيقه في إكمال أدائها فجعلوا يستهزئون به بعضهم يقول دعوه يعدو أمامنا

فعما قريب يني ويتخلف وراءنا أو يماشينا وبعضهم
يظن أنه ما حمله علي ذلك إلا احتقارا لهم واستخفافا
بدينهم علي أنهم من العلماء العاملين إلا أن العادة لا
يُولف خرقها فلا بد من تعليله وتوجيهه إلي أن يتبين
الحق وسرعان ما يتبين فلم يكمل العشرين حتى
استصفي خلاصات العلوم الشرعية وتحلى بأدائها وزهد
في زخارف الدنيا وبنيتها ولست أتعبك بذكر ما جرى له
في هذه المدة مع قومه من الاستخفاف به وإهانته
وتقديم بعض إخوته عليه ممن بلغوا في العلم شأوا
بعيدا وفي الصيت مكانا قصيا في ديانة صالحة إلا أنه
خرق العادة في الانتصاب والاعتزال والاجتناب خرقا
حيرهم فلا بد من التخييط فكانوا يسمونه السفية
وبعضهم الأبله وبعضهم المجنون من شدة المعاكسة
لهم مع صالحات العادات وهو إلي الأصلح من بين
أشراف قديمي الشرف في العلم والدين ولقد صدق
{ورقة بن نوفل} إذ يقول لرسول الله صلي [188] الله
عليه وسلم حين فاجأه الوحي لم يأت أحد بمثل ما
جئت به إلا وأذي وإن كان أولئك يومئذ كفارا وهؤلاء
مسلمين إلا أن البون الشاسع بين درجات الإسلام
جعل في واد وهم في واد كما قال فيه صديقه الأعز
الشيخ سيدي

*

وهو كما قال لم يخالل قط أو يعاد إلا في الله وباللله
ولله جل وعز ولرسوله صلي الله عليه وسلم فكانت
معاملته معهم في هذه العقبة أدل دليل علي عظم
صبره رضي الله عنه كان يتواضع لهم إذا شتموه
ويعتذر إليهم إذا عاتبوه ولا ينتقم بكلمة فضلا عن غيرها

لمن واجهه منهم بمكروه وكان يقوم بحوائجهم بحسب
الإمكان وما كان يدخر ما فضل عن الواجب من طعام
أو لباس عنهم فكانت هذه الحال فاتحة صبره
المطلوب بعد التكليف وإن كان ما قبله صبرا بلغ الحد
إلا أنه كان من الطبع الموفق وقوة الاستعداد لما كُتب
له في القدم من عناية الكريم به فصار الصبر علي نية
الامتثال والاجتناب فصرحت العبودية ليستحق الثناء
من المولى سبحانه والأجر المصوب بلا كيل فاعتدل
علي الصراط المستقيم فكان صبره صبر العادلين ولم
ينتقم قط لنفسه فينتصر لله لا [189] لنفسه وبالله
وحوله وقوته لا بنفسه فكان هذا الانتصار مقامه في
صبر العادلين فتوكل علي الله وقال في معناه هذه
الآيات في مقتضى حاله مع الخلق فيما مر.

*

*

*

*

*

*

*

*

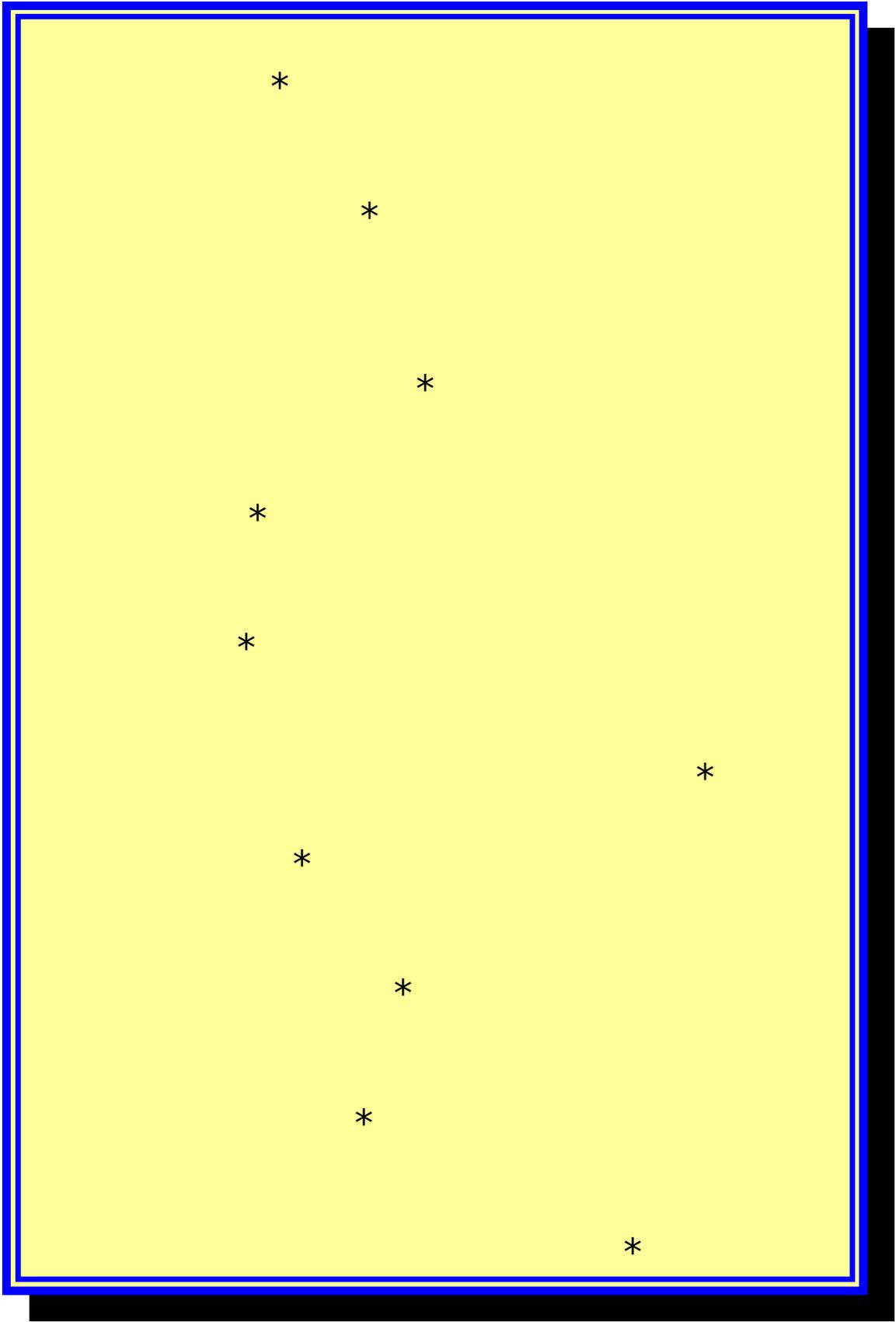
*

فصبره رضي الله عنه صبر المتوكلين وهو الصبر علي الأذى والتعويل علي الله لا علي النفس والحول والقوة فإنه رضي الله عنه ما أؤذي أحد بمثل ما أؤذي به آذوه بالسنتهم وهو علي الحق وفي قومه ودوره وماله المعصوم فلم ينتقم قط ولم [190] يستنصر مخلوقا ولم يشك إليه وما أؤذي من أمر في حظ نفسه فإنه خارج عنه ولا يعد الظلم ظلما ولو وقع عليه إنما يعده حسن تصرف من الله تعالى فيه إلا أن الأذى إنما يكون أبدا في الله فيكون استنصاره الله علي المؤذنين مدافعة عن عبادته تعالى وإعلاء لكلمته كما قال صلي الله عليه وسلم {اللهم اهد دوسا وأت بهم مسلمين، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون} فيمن لم يدع عليهم لأمر علمه الله وقال في قريش {اللهم اجعلها عليهم سنيئا كسني يوسف} وفي حديث الصحيح عن عمر رضي الله عنه يوم بدر حكاية عن حاله عليه الصلاة والسلام قال فجعل يهتف بربه {اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم أت ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه

العصاة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض} فما زال يهتف بربه ماذا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر رضي الله عنه فأخذ رداءه فألقاه علي منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاك من مناشدتك لربك فإنه سينجز لك ما وعدك فيعلم من حاله صلي الله عليه وسلم وكلام أبي بكر هذا أن من الدعاء ما هو كمال في العبادة لتغلغل المعرفة في عظمة جلاله تعالي لا خوفا من غيره ولا منازعة له في قضائه وقدره كما يستفاد من كلام الصديق كما قاله رضي الله عنه في [191] مقام الصِّدِّيقية وإمامته فيه فإنه لم يطب خاطره ليزيده علما بإنجاز الوعد منه تعالي ولم يستقر به الاطمئنان ولم يستغزه الرعب فالحال أنه رسخ في قلبه تصديقه رسوخا لا يتزعزع فلا تحركه الأهوال الحاتة بعد إخباره إياه بما سيكون وإن اشتبه علي غيره فهو الصديق في كل حال والصدق لا يقتضي التجدد والتنوع ولا دقائق ولا رقائق تلوح عليه لأن ذلك من عوارض التغيير والصدق غير التغيير وضده وإنما يقتضي الثبوت والدوام بعد كماله وهو رضي الله عنه أكمل الصديقين صدقا وبه امتاز علي غيره وحاله صلي الله عليه وسلم العلم وهو يقتضي المزيد علي الدوام والاستمرار ومعلوماته تعالي لا تتناهى وازدياد العلم به تعالي يلزم منه استيلاء الخشية وتضاعف غشيانها علي قلب العالم قال تعالي {إنما يخشى الله من عباده العلماء} وقال صلي الله عليه وسلم {أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له} وقد أمر بطلب المزيد من العلم فيكون سببا لحصوله بلا انقطاع فكان حال أبي بكر رضي الله عنه أكمل من حال أتباع الرسل لكون غاية ما يُطلب منهم التصديق قولا وعملا وتلك المنزلة من الصدق هي التي أمر

المؤمنون والمتقون بالكون مع أهلها قال تعالي وقوله الحق {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا [192] مع الصادقين} وحاله صلي الله عليه وسلم أكمل من حال جميع الرسل لزيادته عليهم الصلاة والسلام في العلم والخشية والدعاء عنوان العبودية وإلا فهو صلي الله عليه وسلم أشجع الناس قال عنه ليث بني غالب {علي بن أبي طالب} رضي الله عنه أسد شجعان العرب والعجم قال ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلي الله عليه وسلم قائما إلي شجرة يصلي ويدعو حتى الصبح وقال لما كان يوم بدر وحضر الناس اتقينا برسول الله صلي الله عليه وسلم وكما قال تعالي حكاية عن نبيه موسى عليه السلام {ربنا اطمس علي أموالهم واشدد علي قلوبهم} وقال عن نوح {رب لا تذر علي الأرض من الكافرين ديارا} وقال عن محمد صلي الله عليه وسلم وعن أصحابه {فانصرنا علي القوم الكافرين} مرات فهذا الاستنصار عبادة وعبودية رغبة في إعلاء كلمة الله وإسقاط كلمة الذين كفروا فكذلك استنصار شيخنا رضي الله عنه لربه لم يخرج عن هذه الحال وكذلك طلباته ورغباته لإعزاز الدين وتقوية دعائمه وإسعاف أهله لا للهوى وهو في مقام الصبر مقروء في قصائده البحرية ومناجاته الربانية فأخذ لك **أمودجها** من قصائد قليلة تستبين بها حقيقته فإن في كلام المتكلم يدرك السامع [193] معناه القائم بنفسه فإن أول ما قال من الأنظام قصيدة أنشأها في حروف {حسبنا الله ونعم الوكيل} يوم خروجه من داره {أمبك باري} أخبرني بها مشافهة وقرأها علي وقال قبيل خروجه

*



*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

*

[194]

*

*

*

*

*

كتب الحسيلة أولاً بعد البسمة ثم كتب بعد القصيدة آية {فانقلبوا بنعمة من الله وفضل} الآية ثم {الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} ثم {وأخيراً **دعويهم** أن الحمد لله رب العالمين} فكان عاقبة السفر كذلك ومما كتبه من المناجاة في مقام الصبر وحال الشكر والرضا الرائية الأولى التي ابتدأ

نظمها في {اندر} وأتمها في البحر في السفينة وأما
أعلى مشاهدته في التوحيد إذ يقول في ترجمتها وهو
محاط بالحرس الفرنسي {اللهم إني اتخذتك ربا
ووليا ونصيرا أبدا وسيدنا محمدا صلي الله عليه وسلم
نبيا ورسولا ووسيلة إليك أبدا وأهل بدر رضي الله
تعالى عنهم رفقة أبدا والمؤمنين والمؤمنات إخوة أبدا
فصل وسلم وبارك علي سيدنا ومولانا محمد وآله
وصحبه صلاة وسلاما وبركة تجعل بها قصيدتي هذه من
أحب الشكر إليك يا بديع آمين يا رب العالمين فهذا هو
الشكر علي ما يصبر عليه فإنه [195] في هذا الأوان
في أشد البلاء وفي الصدمة الأولى قيل كل شيء يبتدأ
صغيرا ثم يعظم إلا المصيبة فإنها تبتدأ عظيمة ثم
تتصغر فلذلك كان الصبر عند الصدمة الأولى كما صح
في حديث المرأة {الصبر عند الصدمة الأولى}
ففرحه رضي الله عنه بالتغريب ليستريح من كل
شاغل سوى الله ورسوله وإن كان شغله كله قبل ذلك
في العبادة والخدمة ولكن التجريد الكائن عند هجمات
الفتن لعباد الله المخلصين لا يعادله عندهم شيء قال
رسول الله صلي الله عليه وسلم لأهل بيعة الرضوان
وهم تحت الشجرة {أنتم اليوم خير أهل الأرض} وإن
كانوا خيارا قبلها فهم في هذا الموقف أشد تميزا عن
سواهم لخلو قلوبهم وأيديهم عن غير الله تبارك
وتعالى ورسوله بما يشبههم بأهل الحضرة من الملائكة
المقربين فشكره هذا رضي الله عنه في هذا الموطن
الشديد هو شكر المحبين في أعلي مقام الصبر
للفائزين كرا أكسبه إياه تخلص بوادئ النور الأقدس
دقائق قلبه فارتاحت لها نفسه وانتعشت بها روحه
فصارت الدنيا وما فيها نسيًا وراءه انظر ما جمعه هذه
الألفاظ من العقائد السننية لله ورسوله عليه الصلاة

والسلام [196] ولسائر المؤمنين والمؤمنات ما هو إلا
اطمئنان في النفس وسكون إلي الله وغيبة عن الخلق
وفتنتهم في ذلك الموقف الحرج يوم انتظروا به
تسجيل الحكم بأحد الأمرين الأسر أو القتل وقد سير
به عن داره ومريديه وحصروه في دار {أحمد خِر
سين} وبثوا الجواسيس في البلد وفي كثير من
البلدان للبحث في أمره وحقيقته وحُكي علي أن أخاه
ومريده {الشيخ هنت أمبك} وكان ممن معه وقليل
من المريدين يحملون أمتعته أن الأخ طلب من المدير
أن يسمح للشيخ أن يخرج في أوقات الصلاة ليؤمهم
لأنه في البيت الأسفل وهم في الأعلى للضيقة وكانوا
يصلون بصلاته فأبى عليهم المدير ولا يأتيه أحد من
مسلمي {اندر} إلا بمشاورة الحكومة مع حرصهم
علي مواصلته لشهرته وصحة دينه وولايته عندهم عن
عُدُولِهِم الذين عرفوه قبل كالقاضي {أحمد انجاي}
{وأحمد جَنك} {ودمَبَ جَنك} وأضرابهم وما ظهر
التوكل علي أحد بعد الرسول صلي الله عليه وسلم
وأصحابه رضي الله عنهم كظهوره عليه رضي الله عنه
لتوفر الأسباب عنده ورفضها فليس المفوض مع عدم
الأسباب وإن كان مأجورا ممدوحا لحسن صبره كمن
رفض الأسباب وقد تمكن منها لقوة اليقين [197] قال
رضي الله عنه طلب الشيء من الحكومة قليلا أو كثيرا
كالكفر عندي وذلك والله أعلم معاهدته مع الله أن لا
يشكو إلي بشر فنقض العهد كبيرة عند القوم كما أن
الوفاء من أجل مزاياهم كما في التنزيل {الذين يوفون
بعهد الله ولا ينقضون الميثاق} {والذين ينقضون عهد
الله من بعد ميثاقه} كما وقع {لأبي حمزة الخُرَّساني}
قال سنة من السنين فبينما أمشي في الطريق إذ
وقعت في بئر فنازعني نفسي أن أستغيث فما

اسْتَمَمْتُ هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلا
فقال أحدهما للآخر تعال حتى نسد هذا البئر لئلا يقع
فيها أحد فأتوا بقصبة وبارية وطموا رأس البئر فهممت
أن أصيح فقلت في نفسي إلي من هو أقرب منهما
وسكنت فبينما أنا بعد ساعة إذ أنا بشيء جاء وكشف
عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول لي تعلق بي
في مهمة له كنت أعرف ذلك منها فتعلقت به
فأخرجني فإذا هو سَبُع فمر بي وهتف هاتف يا أبا
حمزة أليس أحسن هذا أنجيناك من التلف بالتلف، من
القشيري فعده رحمة الله تعالى عليه مع الله وقسمه
به أن لا يستغيث منه من الشكاية إلي مخلوق
{فشبخنا} رضي الله عنه قال قبل مخاطبا لربه
ومناجيا [198]

*

وقال في أول أمره

*

وقال بعد انتهاء السير

*

فصبره علي حكم ربه في هذه المحن ورفضه كل من
شاوره في السعي بينه وبين دولته بالإصلاح لصدق
يقينه لهي درجة عالية من درجات اليقين قال ذو النون
رضي الله عنه {ثلاثة من أعلام اليقين قلة مخالطة
الناس في العُشرة وترك المدح لهم في العطية
والتنزه عن مذمتهم عند المنع وثلاثة من أعلام يقين
اليقين النظر إلي الله تعالى في كل شيء والرجوع
إليه في كل أمر والاستعانة به في كل حال} وقال

الجنيد {اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يُحوّل ولا يتغير في القلب} قلت {فأعلام اليقين لم تزل ظاهرة من حال {شيخنا} رضي الله عنه من صبوته فتقرأ في مواضع كثيرة من هذه الورقات عزلته ومجانبته للناس أما ترك المدح والذم فقد استغنى عنهما بعدم رؤيتهم في الجلب والدفع أما الثلاثة الآخر في حد ذي النون وحد الجنيد رضي الله عنهما فكان حاله لو[199] لم ينظر إلي الله في كل شيء لما نسي العداوة التي نصبها له الوشاة ودفعها بالأحسن حتى تابوا علي يديه وندموا وضرب عن ذكر ما مضى بينه وبين رجال السوء صفحا بعدُ حتى نسي ما كان ولو لم يرجع إلي الله تعالى في كل أمر لأجاب رؤساء انجانبور إلي أن يشفعوا فيه إلي الدولة ولقبل لمريديه وبعض الوزراء النصيحة في إسداء الحجج الصحيحة والإدلاء بها إلي الحكام لينجو ولكن رجع إلي الله منيباً ورفع الشكوى إليه مع التفويض والرضى بما أجرى كما قال

*

وقال في أول الرائية ما ينبئ عن حاله النفسية

*

هل هذا الصبر في هذه المحن بعد المكاشفة بما يُعوّض به عنها ومقابلة رسول الله صلي الله عليه وسلم له حين خرج من داره لملاقاتهم ووعدته بالسلامة وأنه مكفيّ أذاهم من الأنواع الأربعة إلا صبر المتقين من أهل الاختصاص [200] من المقربين ويصح أن يسمى بصبر الفائزين لأنه رضي الله عنه كان متوكلاً علي ربه في جميع ما مضى عليه من أسباب

المحنة وآية ذلك عدم تبرئته نفسه وزهده في السعي فيما كان يُرجى فيه خلاصه وتفويضه إلي الله تعالى في إماطة التهمة عن نقي ثيابه وذلك حيث قال لأخيه وخليله الشيخ إبراهيم لما لقي الحاكم في {جبول} وردة إلي {شيخنا} رضي الله عنه وبقي الحاكم في انتظاره لبيّاتيه {شيخنا} ليذهب به إلي حيث يُحكّم عليه بما أَراده الحاكم من الإعدام أو النفي المأبد كما تقدم طَرَفٌ من الأسباب قال له كثرت الأوساخ بيني وبين الدولة كثرة لا يطهرها إلا الماء الكثير والصابون الكبير علي يد قَصَّار قوي فقال حسبنا الله ونعم الوكيل وذلك قبل لقاء الرسول عليه الصلاة والسلام لأنه إنما لقيه بعد الخروج فعلمنا أن تركه الاختيار والتدبير بيد ربه تعالى قبل معانيته للعرض ومعرفته علي لسان مخدومه صلي الله عليه وسلم بالعاقبة وإن عرف إجمالاً أن العاقبة للمتقين وهل هو صبر الراضين وهو الثبات مع الله وتلقي بلائه بالرحب والسعة ففيه شَبَهٌ لأن هذا كان متصفاً به قبل المحنة أيضاً وفيها لأنه لم تزعجه قط فجأة مصيبة ولا تأسف علي فائت ولا تَوَجَّع من فاجعة إنما يزيده البلاء في النفس والمال [201] والرجال الدماثة والرحب وسعة الصدر وعزيمة الصبر في الصدمة الأولي فقد فرقوا جموعه كما مر من وزراء {كجور وبول} وحرقوا أمتعتهم واحتشدوا عنده فلم يزدده قلقهم وشكايتهم إلا استغراقاً في العبادة ولم يُشكِّهم أو يُسَكِّنهم بشيء إلا بالأمر بالمعروف ومجاهدة النفوس وظهر ذلك في إرساله تلميذَه {عبد الله جَوُّ} إليهم لكونهم في دار السلام وهو في طوبى خِلوته الثانية قال لهم إن من كانت همته متعلقة بالدنيا أو بالآخرة متجردتين أو إحداهما مجردة فلينصرف عني ورُدُّوا كل صبي إلي أوليائه هل

هذه الكلمة يُطيق أحد أن يشافه بها ألوفا لا يرجون
سواه في التوجيه إلى الله والهداية إلى الصراط
المستقيم كلاً اللهم إلا من خرج عن حظ نفسه وعلق
رضاه برضى ربه لأنه ما عاهدكم إلا في الدلالة علي
الله لا علي شيء غيره في الحال والمال كما قال
{الشيخ الجيلي} من أراد الآخرة فعليه بالزهد في
الدنيا ومن أراد الله فعليه بالزهد في الآخرة يعني
والله أعلم بنسيانها لتلاشيه في باهر نور المحبة ولذة
المناجاة وشاهده قائم من حديث رؤية أهل الجنة ربهم
كما قال تعالي {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة
أعين} ونعم المريدون هم صدقوا ما عاهدوا الله عليه
نادوا علي أتباعهم [202] بكلمته وردوا الأولاد إلي الآباء
وازدادوا حرصاً علي ملازمته وازدادت أتباعهم حرصاً
علي ملازمتهم وتأسست في أفئدة الصبيان أغراس
شجر اليقين فبقيت تنمو مع أبدانهم إلي أن بلغوا
الحلم فرجعوا كلهم إلي طريقه هل هذا إلا هو حقيقة
الرضى بالقضاء وكيف وادع أخاه الشيخ إبراهيم أمينه
يوم يركب إلي الحاكم بعد أن صلى ركعتين وأوصاه
علي العيال والمريرين وأكد إليه في التعليم وأن يجعل
كسبه في الحراثة لما في غيرها من الغرر وكيف خرج
إليهم فريداً ما معه إلا غلمان من أهل تربيته مديماً
علي عاداته من التلاوة فلم يبق إلا أن يكون صبره بعد
المواصلة صبر المتقين الصادقين في البأساء والضراء
وحين البأس ويكون حاله الشكر في البأساء بمواصلة
الطاعات والقربات وفي الضراء وهو ما يقع في
الأبدان وما أكثر ما عانى منها لقله صحته وقله تداويه
من توكله كان لا يستشفى إلا بالقرآن فصبره في
الضراء بالخضوع والخشوع كما اقتضته آداب المجالسة
والإصغاء وحين البأس بالإيثار والإخلاص والفناء عن

النفس والبقاء به تعالي لما يؤذن به تجدد الصروف
من مزيد المبالاة وما تضمنها من القرب والمجالسة
لأن البأساء هي شدة الفقر وأين الفقر ممن أخرج من
دوره وقومه كما قال رضي الله عنه [203]

*

فهو في حال الرضى والابتهاج بالله تعالي في حالتي
الهيئة والإنس فيكون الابتلاء لصاحب هذه الصفة لرفع
الدرجات كما يشهد له قول {الشيخ المعظم عبد
القادر الجيلي} علامة الابتلاء علي وجه العقوبة
والمقابلة عدم الصبر عند وجود البلاء والجزع
والشكوى إلي الخلق وعلامة الابتلاء تكفيرا أو تمحيصا
للخطيئات وجود الصبر من غير شكوى ولا جَزَع ولا
صَجَر ولا ثِقَل في أداء الأوامر والطاعات وعلامة
الابتلاء لارتفاع الدرجات وجود الرضى والموافقة
وطمأنينة النفس والسكون للأقدار حتى تنكشف
فالأولى لم تَحْمُ حوله والثانية ما علمنا وقوعها ولا
نتخبط في التعليل قال تعالي {ولا تقف ما ليس لك به
علم} وأما الثالثة فقد شهدنا وقوعها لقيام دليلها عليه
وهو الرضى والموافقة والطمأنينة في هذه الدرجات
وفي البداية في أمور مختلفة فيصح الحكم عليه
والعمل به كما اتضح من عاداته مع الأمراء وأعداء
الدين إذا ساموا الدين خسفا يُقاطعهم الكلام وينفض
عنهم ويقول أنا لا أنازعكم شيئا من دنياكم وإياكم
والتعرض لديني وما حبسته قط مقابلة حاكم أو [204]
رئيس عن تلاوة القرآن مطرقا لا ينظر إليهم ولا يعرف
وجه أحد من وجه صاحبه ولو طال مقامه معهم ولم
يؤخره عن سجود تلاوة أو وقت صلاة ضيق المكان أو

الحال بل يؤدي الواجب حيث وجب كما وجب ولدقة
نظر {مِيزْلِينَ} الحاكم في {دكار} قال عنه إن من
أدل دليل علي صدقه في أمره أن نفسه وحياته
متوقفتان علي دينه فقدانهما في سبيله أهون شيء
عليه والحق ما شهدت به الأعداء كانت قدمه رضي
الله عنه راسخة في مقام الصبر من صدق يقينه ونفوذ
بصيرته وحاله في مقامي الرضى والشكر حال
خصوص المقربين من المتقين من الأنبياء والمرسلين
والمصطفين من كمل الأولياء أئمة اليقين قال رضي
الله عنه وهو في السفينة تمخر به إلي منغاه السحيق
في أشد مقاسات آلام الغربة والبعد عن الأنصار لو لم
يكن فاقد حسه من سكرة خمر الحب والإجلال لله
تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم في ذاته عز
وجل

*

*

*

[205]

*

*

*

*

*

*

*

*

*

انظر زادنا الله وإياك حرصا علي طاعته وأورثنا بفضله
ومنه حب أوليائه فيه عز وجل ما تضمنته هذه الأبيات
من الأحوال السنيّة في هذه الدرجة العليا من درجات
الصابرين حال الرضى بالله تعالى وبقضائه والشكر له
علي لطائف منّيه التي لا تحصى ما ظهر منها وما بطن
في طيّات صُور البلايا والمصائب وهي في الحقيقة نعم
وأسباب نعم والثقة التامة بسعة رحمته والرغبة
الزائدة في مرعّب فضله كما ألهم عباده الصالحين

والرجوع إليه تعالى في كل أمر رجوعاً منه إليه من عدله إلي فضله {له الحكم وإليه ترجعون} والتقليد علي مقتضى الكتاب وسنة المصطفى صلي الله عليه وسلم في الترغيب والترهيب قال [206] {غرور الوري} البيت صرف اللوم والعتاب إلي الشيطان ممد المشركين ومحثم علي الظلم والسبب الأول في كل فساد وإمام المفسدين أولاً وآخراً وعفا عن البرية وفوض أمرهم إلي الله وإليه تصير الأمور كما قال

*

فقوله {لربي التفاتي لا لهم} مما أشعر أنه لم يعادهم في معاملاتهم إنما رجع إلي ربه بكلية وعادى الشيطان الذي عداوته ذاتية وأصلية عملاً بالعدالة وتوقفاً مع القضاء والقدر في تقرير المصير ولذلك لا تراه يصب علي عدو **جام** انتقامه إلا علي صفته المتلبس هو بها ما دام متصفاً بها يذم المشرك والكافر والضال والظالم والمثلث معادياً لهم بمعاداة القرآن إياهم لا بعداوة خصوصية له علي غير الدين علي أن تلك العداوة غير متصورة في حقه إذ لا وجود له إلا بالدين كلية وجزئية إيجاباً وسلباً كما لا يتصور حبه رضي الله عنه إلا بحب الله تعالى وحب رسوله صلي الله عليه وسلم وحب دينه القويم وليس الهجاء لغرض نفساني بل لإعلاء كلمة الله بإذلال عدوه فتقرأ غشيان الخشية والخوف والإجلال [207] علي قلبه في قوله {له تبت من عيب التفاتي لغيره} إلي آخره لأن الخوف لا يفارقهم في جميع سيرهم إلي الله تعالى وفي حال الوصول والتمكن كما قال في تائيته

*

*

فبهذا ترى البلايا لا تزيد إلا خوفا من الله تعالى ورجوعا إليه وهو التوبة لما فيه من الأدب المرضي وهو معرفة كمال الرب جل ملكه واتهام النفس ومعرفة خستها وهو أول قدم في تحقيق الأدب المرضي ثم الشكر الأعلى وهو الشكر علي ما يُصبر عليه مما يُكاشف به من حسن المعاملة وجودة التصرف فقال { له تبت ذا بيع وأرجو رضائه * ومني له شكر يدوم كثير * فجئت ببشر { البيت فالبيت الأول في حسن المعاملة والتسليم له والثاني في جودة التصرف والإصغاء إليه تعالى وهو أعلى درجة فيما علمت من درجات مقام الصبر ومنه صبر أولي العزم من الرسل الذين أوحى إلي سيد الوجود لحكمة الترتيب أن يتأسى بهم ف قيل له صلي الله عليه وسلم { فاصبر كما صبر أولي العزم من الرسل } وقال تعالى { واصبر وما صبرك إلا بالله [208] ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون } وهو صلي الله عليه وسلم إمام المتقين والمحسنين فصبره علي مشقات الأعداء وأذاهم وفتنتهم صبر موقن بالعاقبة فيكون الحال الشكر عليه حقيقة لا بواسطة معاينة المصير فبهذه الدرجة نالها { شيخنا } رضي الله عنه بملاقة رسول الله صلي الله عليه وسلم له يوم خروجه إلي { جيول } فكان صبره في جميع المِحَن صبرا جميلا أل إلي

الشكر علي ما يُصبر عليه لوعده صلي الله عليه وسلم
وملازمته وأهل بدر إياه من قنائه فيه بهم لأن الصابر
الذي يصبر لنظره إلي العَوْض أعلي منه الذي صبر
نظرا للمُعَوِّض قال {أبو طالب} ولا يصبر العبد إلا
بأحد مَعْنِيَيْنِ مَشَاهِدَةَ العوض وهو أدناهما وهو حال
المؤمنين ومقام أصحاب اليمين أو النظرِ إلي المُعَوِّض
وهو حال الموقنين ومقام المقربين فمن شهد العَوْض
عَنِيَّ بالصبر ومن نظر إلي المُعَوِّض حمله النظر
والناظر للمعَوِّض بعين الرضى والثقة به هو الكامل
من المقربين ومع الوعد الصادق والكشف للعواقب
والامتثال لأمر خاص فذلك الفائز وصاحب الاختصاص
من المقربين لأن عبوديته متمحضة بتوكليه ورضاه
والمحبة الخاصة من الله تعالي أيدته ومكنته انظر
كيف يأمر جل شأنه رسوله صلي الله عليه وسلم
وأصحابه بالصبر [209] في المواطن والأحوال ثم
يزيدهم طمأنينةً بوعده ومكاشفته إياهم بالنصر
والنجاه والمعِيَّة والفلاح والحفظ كما قال الخليل
{ولكن ليطمئن قلبي} قال تعالي لهم {إن تصبروا
وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً} {واصبر وما صبرك إلا
بالله} {واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا} {اصبروا
وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون} فالناظر
إلي المُعَوِّض مقبول محبوبٌ وإن تنزل له الحبيب
بالإيناس فهو محبوبٌ محفوظٌ {يختص برحمته من
يشاء} {فمن كان علي بينة من ربه ويتلوه شاهد منه}
فالأول علي بينة من ربه والثاني يتلوه شاهد منه مما
أفرد له وكوشِفَ بما وُعد به من تجدد الخطاب اللذيذ
في التخصيص الخاص بين عامة المخصوصين قال
تعالى {إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب} فهذا
عام لكل صابر غير ممقوت والخطاب لمعين

ومكاشفُهُ أمر خاص لِخِصِّصِيَّ من أهل المحبة
الخاصة في كل مقام وفي تحقيق هذه الدرجة من
مقام الصبر قال {شيخنا رضي الله عنه {

*

*

[210]

فَعُلِمَ أن ما كَرَّ في قلبه من الرضى وما شكره عليه
من سر السر لشيء عظيم لا سبيل إليه مَصُونٌ عند
الله ورسوله صلي الله تعالى عليه وسلم.
قال لي ذات يوم إن السبع السنين التي مكثتها في
{كُونِكُو} ما ضاعت وسيظهر ذلك يوم تُبلى السرائر
ما خدعتُ ربي في عبوديتي ولم يخدعني تبارك وتعالى
في ربوبيته من صدق وعده وحسن جزائه ولكن الدنيا
ليست بدار جزاء إنما الشأن في الآخرة ولقد صدق
والله عن نفسه لم يشيع قط من طعام ولا انبسط
لمحادثة دنيوية ولم يُوطأ له فراش لنوم إنما كان نومه
غلبة في قلة وخفة أشبه شيء بغيبة لدنية يغيب بها
الحس الظاهر لرحلة سريعة يقطع بها مفاوز بطيِّ
غريب بين درجات معارف لا تتناهى قَدْسِيَّةٍ ثم يرجع
لمواصلة القيام بوظائف الجوارح ما بقيت علي وجه
البسيطة كما قال رضي الله عنه

*

فإن الشطر الثاني تعليل وتفسير للأول يعني أن الذي
جعل نومَه عبادة كَوْنُ قلبه وهو نائم يُدِيرُ الآي قال

صلي الله عليه وسلم {إِنَّ عَيْتِي تَامَانٌ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي}
وقال صاحبه [211] {معاذ بن جبل رضي الله عنه}
حين قال له {أبو موسى الأشعري رضي الله عنهما}
في بعثة النبي صلي الله عليه وسلم لهما إلي اليمن
أقوم كذا قال معاذ أنا أقوم كذا وأنام كذا وأحتسب
نومتي كما أحتسب قومتي.

وما فرح رضي الله عنه بمتجدد من نعم الدنيا إلا ما
صُرف في الطاعة فيفرح لله تعالى علي كثرة تهافت
الدنيا عنده بما تكل عن ضبطه الأرقام وتكبو عنه جيد
الأقلام وما أدري ما مزية السبع السنين علي غيرها
من عمره فإنه كله طاعة علي الدوام وامثال واجتناب
علي الدوام بلى مزيئها علي غيرها مزية الصبر
والأحوال المختلفة علي صاحبه من مقامات اليقين
فإنه يحتاج إليه في كل مقام وحاله في المقام أبدا به
يكون كمال المقام فالصبر علي أذى الخلق بالسنتهم
وأقلامهم شديد وأشد منه الصبر في مصائب أيديهم
لأنها هي نهاية مقدورات الإنسان أعني الإيذاء باليد
فالأنبياء والأولياء كلهم صابرون ولكن أولو العزم أكمل
صبرا لتكامل أنواع أذى الآدمي عليهم فلعل هذا ما
جعل السبع السنين قلب عمره ولب جهاده وكان
رضي الله عنه يتهلل بشراً إذا تذكر شيئاً من حوادثه
المُفجعة تهلل المنتصر في موطن جهاده.

سمعته كثيرا ما يقول ربما أتذكر ذلك [212] فأغتبط به
لما كنت أجده من اللذة في المناجاة وما يتجدد لي من
الأحوال المتنوعة مما كنت فيه من المعاملة القلبية
والحضور بين يدي الرب في مختلفات الوقائع بيني
وبين أعدائي فيرق قلبه لما يرى من خفايا لطف مولاه
به وحفظه إياه وقد يقع ذلك لأهل الوصول.

قال الصديق رضي الله عنه ورأى قوما حديثًا إسلامهم
يذرفون الدموع من الشفقة هكذا كنا في نأاة الإسلام
يعني في أول إسلامهم.

وقال شيخنا رضي الله عنه يوما وأنا حاضر من أعجب
لطف ربي بي أني قد أجرب نفسي في ترغيبها في
دنيا الكفار وترهيبها من أموالهم فلا تطاوعني فعلمت
أنني لا ولاية لي عليها إنما هي بيد الله وولايته {إنما
وليكم الله ورسوله} والشيء بالشيء يُذكر.
كان صديقه الأعز {الشيخ سيدي} يقول إن من أعجب
حفظ الله {الشيخ أحمد رضي الله عنه} طول مدة
مخالطته لمن عادوه وكثرة قواهم وانفراده به عن
أهل المروءات من أشرف الدولة ومعاملتهم له بكل
قسوة ولم تؤثر عنه فعلة يُستحي من حكايتها أو كلمة
يَندم عليها قط فقد صدق والله كما صدق في كلمة له
فيه.

*

[213]

وقال فيه

*

وكما قال في آخر عمره في قصيدة أخرى فيه.

*

*

وقد حكى علي تلميذه الكبير {مَرَّبُ كِي} أنه قال له وهو يوادعه في السفينة وهي تقلع إلي الجزيرة المظلمة أيها المریدون ارجعوا والزموا طاعة الله فقد أودعتكم مَنْ ما أودعته شيئاً وحصل فيه ما يسوءني ارجعوا فلن ينكسر مما خلفتُ شيءٌ ولو عُودًا، وكذلك قال لمریده الكبير الصادق {الشيخ إبراهيم فال} حين وادعه في السفينة اجتهدوا في الطاعة فلم أذهب إلا لخدمة قمّتُ وصلحُها في هذا السفر فقط وسأرجع إليكم إن شاء الله

{لطيفة}

حكى عليّ {مَفْرُ انجاي} أحد المریدین المحبین ذوي الدين أنه كان يوما مع {أبي محمد الكُتَيْبِي} في قرية {انجاصان} قال ولما خلا بنا المجلس سألتني من شيخك؟ قلت له {الشيخ أحمد} قال [214] فقال الذي غرّب؛ قلت نعم قال يظنون أن الدولة أرادت نفيه وتغريبه كلا ما ذاك إلا سبب ظاهر أما الحقيقة هي أن الله تعالى كشف للأولياء عن مقام عزيز عنده لا يُنال إلا ببلاء من أعظم البلوى فلم يترشح له إلا {شيخك} فوقعت عليه المِحنة كما رأيت أما إنه سيرجع سالما ويضع الله له القبولَ في الأرض خصوصا {سنغال} وتكون البركة علي يديه لمن اتبعه فلا يمكن لأحد أن ينازعه فيه فيسبب ذلك تراني لم أختَر أن تكون تلامذتي من أهل {سنغال} بل مما وراءه أما من أراد

ذلك فلا يحصل علي طائل لأنها صارت له بولاية الله تعالى.

ثم قال رضي الله عنه {غنيته به ربا} البيت من باب الغنى بالله علي حد قول من قال أن الغني الشاكر خير من الفقير الصابر قال {الجنيد} وقد سُئِلَ عن الافتقار إلي الله تعالى هو أتم أم الاستغناء بالله فقال إذا صح الافتقار إلي الله تعالى فقد صح الاستغناء بالله عز وجل وإذا صح الاستغناء بالله كَمَلَ الغنى به تعالى فلا يُقال أيهما أتم الافتقار أم الغنى لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخرى وهو القدوة فبدا من كلامه هذا أن الطرف الأخير من الكمال لجهة العلو الغنى بالله تعالى والأسُّ الافتقار إليه فيستوي البناء فبقي الأمر ضافيا فكان المضاف لجهة العلو علي [215] كما تقتضيه العبارة وإن كان الحُكم للمقام فبالأميرين يقوم هو بكماله فصار الخلاف بهذا لفظيا لاقتضاء التَّسَبُّب إياه ثم يكون وسم صاحب هذا المقام الفقر وحاله الشكر لأن الشكرَ صرفُ النعم علي مقتضى رضى المُنعِم وكماله رفعُ العين عن النعم ونسيانها للالتذاد بالمنعم ولا يَتَمُّ إلا بالاتصاف قبله ومعه وفيه في فنائه عن نفسه وبقائه بربه وفي حال تولي الله تعالى له في محو المحو ومحوه حيث يحفظ عليه شعائر الإسلام ويُجري حرَكَاته وسكناته علي مقتضى الشرع من غير اختيار وتدبير من العبد فهو غَنِيٌّ في كل حال وفقير في كل حال وكذلك شاكر أبدا وصابر قال {الشيخ عبد القادر الجيلي} الفقير الصابر مع الله أفضل من الغني الشاكر له والفقير الشاكر أفضل منهما والفقير الصابر الشاكر أفضل منهم وهو القول الفصل وتفصيله فيما تقدم وتلخيصه أن المعترف بفقره دائما الصابر في عكوفه علي عتبة باب سيده

المفتقر إليه الشاكر علي الحال الذي أقيم فيه من
سَرَاءٍ وَضَرَاءٍ هو الأفضل لأنه أكمل معرفة وأحسن
عُبُودَةً لأن الشاكر لم يشكر إلا لغناه بما يُشكر عليه
فكان قول {شِخْنَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ} {وَإِنِّي شَاكِرٌ
وَفَقِيرٌ} قيام بالوصف الكامل وهو جميع الثلاثة يُفِيدُهُ
أنه في [216] الحال التي كتب فيها القصيدة قائم
بحقيقة الصبر يدل عليه ما تراه في فحوى الكلام من
السكون والرضى والإخلاص مع أنه في الحال في
أحرج موقف وأشدّه في السفينة المَغْرِبِيَّةِ وحيدا فريدا
إلا من كتبه بين أعداء له يسومونه من أنواع الفتن ما
لم يسبق له مثل وأما الفقر فلا تحتاج أن أزيدك علما
بما أصابه منه وإلا فأعد النظر في القصيدة تجد
الافتقار البالغ الحد عن ذي فقر مُدَقِّعٍ إِلَيَّ رَبِّهِ تَعَالَى
حيث يقول.

*

أما الشكر فانظره في لحن قوله فيها من الإدلال علي
الغير والاعتزاز بالله وتعداد النعم والثناء عليه تعالي
والغنى به وبما رضى له الكتاب والرسول المختار
وأصحابه الأخيار صلي الله عليه وسلم والواو للجمع لا
للترتيب وإنما القافية اقتضت التركيز ومن باب عطف
المقدم علي متبوعه ضرورة علي حد قول الشاعر
عَلَيْكَ وَرَحِمَتِ اللَّهِ السَّلَامُ نَعَمْ قَدْ يَكُونُ لِلتَّرْتِيبِ
ويكون ذلك في حال المحو الثالث لأهل التمكين إذا
ترقوا بالتلوين الثاني وهو تصرف الرب في العبد بعد
تمكّنه لعدم الزيادة وهو في الزيادة مُكَوَّنٌ وَفِي [217]
المقام مُمَكَّنٌ مُصْطَلِمٌ عَنْ كَلِيَّتِهِ.

قال القشيري فهم محو في وجود العين فلا هبة ولا إنس ولا علم ولا حسّ قلت فهذا هو حقيقة الفقر وهو المنعوت بالوجود قال في الرسالة وأما الوجود فهو بعد الارتقاء عن الوجود ولا يكون الوجود الحق إلا بعد خُمود البشرية لأنه لا يكون للبشرية بقاء عند ظهور سلطان الحقيقة وصاحب هذا الوجد لا علم له بنفسه ولا إرادة ولا تشريف ولا تكليف وإنما يُوفَّق وتجري أعماله علي مقتضى الشرع حفظاً لظاهر الشريعة وإقامة دليل علي العَهْدِيّ واستدامة تكريم للعبد باستحقاق الزيادة والحسنى علي الدوام من إقام عبادته وحمل الخلق عليها بأقواله وأعماله وأحواله وإن تطيعوه تهتدوا وآية المَقام استمرار الاستقامة والقوة الخارقة في الحمل عليها والجذب إليها لكل مرید ومُراد ومُجاور وسامع به من أهل السعادة كما تبين من حال {شيخنا رضي الله عنه} وسيرته وسريان نوره وبركته في جميع معاصره من أهل الخير ثم قال رضي الله عنه في صدق التوكل والتفويض {أموري لأه فوضت والقلب طيب} البيت {رفيقي كتاب الله} البيت {أخاطبه بالمدح وهو بطيبة} البيت يُعَدُّ للدعاء عُدَّتَه من تجريد التوحيد وتوحيد التفريد [218] وقد اتحد فيها قوله وفعله والإخلاص والتسليم بأقصى ما في إمكان العبد امثالاً لأوامر الكتاب العزيز {ادعوني أستجب لكم} ثم قال {إن الذين يستكبرون عن عبادتي} فلذلك قال صلي الله عليه وسلم {الدعاء هو العبادة} وفي الخبر {الدعاء مخ العبادة} لما فيه من حسن الظن بالله ورجاء رحمته وقد ذكرهما مُمتناً مُرَجِّياً فقال جل شأنه {ادعوا ربكم خوفاً وطمعا} وقال في الحديث القدسي {أنا عند ظن عبدي بي} وقال {ورحمتي وسعت كل شيء} فالداعي إن جمع آداب الدعاء فهو أكمل وإن كان المستعني بمعرفته

كاملا عليا فلذلك كان صلي الله عليه وسلم أكثر تعوُّذاً
بالله وأكثر ثناء ورعَبًا ورَّعَبَ عليه السلام أمته فيه كما
سنه لهم فإنه لم يتركه حتى كان آخر ما سُمِعَ من
كلامه كما في حديث عائشة رضي الله عنها {اللهم
الرفيق الأعلى} كما في البخاري فالكمال في أدب
الدعاء هو المتوكل المفوض في الحقيقة لأن حقيقتهما
إسقاط غير الله وصدق التوجُّه إليه فزاد الطالب علي
الساكن مراعات الحكمة في وضع الأسباب وما خلق
شيئاً عبثاً فتخلص لذكر الكتاب ثم لذكر من جاء به
ليؤدِّي واجب الشكر عليهما لله تعالى ولهما في الله
عز وجل وجعل الخطاب لرسول الله صلي [219] الله
عليه وسلم كما طلبه من العباد ربُّهم بمحكم كتابه
فقال تعالى {لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه}
وقال {صلوا عليه وسلموا تسليماً} وآية هداة ورحمته
للعالمين فحصر علي سنته ومحبته جميع أقواله
وأعماله قلباً وقالبا وجعل ذكره والثناء عليه مأواه
وراحته بين أوقات الفرائض والسنن ثم جعل الأمر إليه
{نبي الهدى} البيت ثم قال رضي الله عنه.

*

*

*

*

*

*

هكذا تلت هذه الأبيات ما قبلها التي ليس فيها إلا
تجريدُ التوحيد وإقامة العبادة لمستحقها والشكرُ
والرضى مع السكون التام تحت الأمر والنهي كما
عُرِف من سجايا الصِّدِّيقين من عباد الله المُخْلِصين ثم
رد إلي نفسه ليسوقها إلي ربها [220] لما جُعلت من
الحق عليه فدَبَّ بها ليحملها علي مطايا الرحمة
المُتَنَزِّلَة والفضل العظيم لحضرة ربها فيقطع بها
مسافتها علي مراحل الترقى وتقتحم عقبات الطريقة
المثلى كما رسمتها الحكمة الأزلية وعَبَّدتها بقيادته
تعالى أقدام أنبيائه المصطفين وكَمَّل أوليائه الأعلين
فقال بلسانه {رضيت به ربا} البيت مما يُشعر به أنه
لا يعرف طريق الشكوى إلا بما أرشده تعالي إليه
بكلامه وكلام نبيه صلي الله تعالي عليه وسلم من أن
له تعالي صنائع في عباده ووضع أسبابا اختارها سبلا
لرحمته وأبوابا لفضله يسلكها بشروطها من يشاء من
عباده وهذا الافتقار وإظهار العجز والمسكنة والرغبة
فيما عنده والانتصار به علي مظاهر أقداره بسابق
إرادته ليترتب عليه الفوزُ والفلاحُ بإتقان حكمته وغلبة
رحمته قال صلي الله عليه وسلم {لَمَّا خَلَقَ اللهُ
الْخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ إِنْ رَحِمْتِي سَبَقَتْ

غضبي { وقد علق إجابته تعالى لعباده علي دعائه فقال
عز من قائل { أجيب دعوة الداعي إذا دعاني } ثم
رغبتهم فقال { فليستجيبوا لي } فحرَّكَ سبحانه وتعالى
في عباده دواعي الطلب وأطمعهم في عظيم فضله
وجعله قرابة في مقام الزلفى فكان من علامات
التوفيق للمحبوبين من أهل البلايا الأنبياء ثم الأمثل
فالأمثل [221] تتنوع الدواعي لتنوع الشكايات فتترتب
عليها فنونُ الإجابات والتنزُّلات بالرحمة والقربة
والحظوة في المقام الأمين عنده تعالى كما قال
الجيلي ودوام البلاء خاص بأهل الولاية الكبرى وذلك
ليكونوا أبدا في الحضرة ويمتنعوا من الميل إلي غير
الله تعالى وكان من أوضح الدلائل علي علو منزلة
{شيخنا} فوق منازل الأكابر من ما دون الصحابة
خلوص عبودته وصحة يقينه ودوام مشاهدته وجريانه
المستمر علي هدي سيد الوجود صلي الله عليه وسلم
من تنوع البلايا وتكثير الطلب ورفع الشكوى إلي ربه
تبارك وتعالى والتفني فيها بحيث لا يغادر صغيرة ولا
كبيرة إلا طلبها افتقارا وإظهار عجز فيقْدَسُ جناب
المولى بقدر ذلك فتجده لم تبق ذلة ولا مسكنة إلا
ظهر بها بين يديه تعالى في الجلب والدفع كما أنه لم
يُبقِ تنزيها ولا تقديسا ولا كمالا إلا ووفاه حقه لجانب
الله تعالى لم يُفرط في شيء ما فيه فكان من الجزاء
أنه لم يبق فتح ولا نصر مما جاءه صلي الله عليه
وسلم إلا وخلق عليه منه ما لم يكن عند بشر بعد
أصحابه عليهم رضوان الله تعالى كرامة من الله
الكريم ومُعجزة ظاهرة لمصطفاه عليه السلام من
معجزاته المتأخرة وسأشير إلي بعضها إن شاء الله
تعالى في مقام الشكر والاستطرادات وفقنا الله
لإكماله وتفضل بقبوله كلاما طيبا وعملا صالحا [222]

يرفعه آمين فقلوه {يسخر ما يشاء لمن شاء إلخ}
تعريض حسن من الأدب المرضي كما يمر بك في
قصص الأنبياء قال أيوب عليه السلام {رب إني مسني
الضر وأنت أرحم الراحمين} وقال ذو النون {إذ نادى
في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من
الظالمين} ففي التعرض عند الكرام أدب نبيه وفتوة
ظريفة ففيه إظهار الثقة بمعرفة السامع وفيه الحشمة
لعظمته وفيه الخضوع لقدره بحيث لم تر لنفسك حقا
وغير وغير عرفه هؤلاء ومن سلك مسلكهم من أهل
الاصطفاء ثم قال شكرا علي ما كوشف له به ولما
تظهر لائحة ما من لوائحه {فأكرم به ربا نفي عني
العدى} البيت فقلوه {والجناب حقير} فيه لطائف
منها حقاؤه بالنسبة لجناب المالك وحقارته عند نفسه
بجانب المبالاة التي عُومِلَ بها حتى صار محلا لتصرفه
تعالى وهو من باب إسقاط النفس ورؤية الله تعالى
في مقام الإحسان ومنها حقاؤه في أعين حاملي
البلوى وأسبابه الظاهرة علي ما سيظهر لهم منه من
مظاهر يستعظمونها ويهتدون فسبحان من يُخفي
ليُظهر ويُهين ليُعزِّز إنه هو العزيز الحكيم فقلوه رضي
الله عنه وعنا به آمين يا رب العالمين.

*

[223]

*

*

*

*

*

*

يخاطبه صلي الله عليه وسلم بعد انتهاء سيره إلي الله
تعالى وإليه صلي الله عليه وسلم سار من دنياه إلي
دينه وهجر النفس والهوى إلي طاعته وطلب رضاه
وأسقط الخلق لتفريد الحق سبحانه وسار من رؤية
الآثار إلي رؤية ومشاهدة المؤثر وتخلى عن الأسباب
الثانوية إلي السبب الأول عليه السلام.
حُكِيَ عن أبي سعيد الخَرَّاز أنه قال رأيت النبي صلي
الله عليه وسلم فقلت له أعذرني فقد شغلني محبة
الله تعالى عن محبتك فقال لي يا مبارك من أحب الله
فقد أحبني وهذا هو حقيقتهم فلا يتوهم متوهم أن أحدا
من الأكابر يقول ما يقول وهو ناس له صلي الله عليه
وسلم ولكن فناؤهم فيه عليه الصلاة والسلام واندماج
نوره في النور الأقدس لشدة سُطوعه عليه ودوامه
يُفقدهم التمييز [224] بينه وبينه ويذهلهم عن دقة
الفرق بينهما إلي أن يبلغ ضيف العبارة ببعضهم إلي ما

يُشبه اعتقاد الحلول أو الاتحاد وإن كان التوحيد أعلي من ذلك سمعت {شيخنا} يقول إنه كان في بعض مناجاته يغلب عليه التوحيد لدوام المشاهدة بحيث يناجيه مولاه فهل نسيت أن بيننا واسطة وهو إلينا الوسيلة قال فأرجع إلي معرفتي وألتزم الأدب بين يديه صلي الله عليه وسلم فتنسيني فضائله ومناقبه فأتيه في جماله وأنقطعُ إليه وأهيم به في خدمته وإحياء سنته إلي أن يقول لي ألا تعرف أن لك ربا هو الصمد قال فأقوم بتجريد توحيده تعالى فعلمت أن الشأن الدوران بينهما فجعلت السكون عند الله تعالى برسوله صلي الله عليه وسلم لأن العنْدية تقتضي السكون والاستقرار وهو منتهى السير قال تعالى {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} وقال رضي الله عنه في منظومة.

*

وذلك تبين للكيفية ثم قال في موضع آخر.

*

[225]

وهذا البيت أيضا للعاقبة وهو السكون وإيضاحه أنه إذا كان دلالة الله تعالى لعبده علي الوسيلة عليه الصلاة والسلام إنما يكون من سابق عنايته وإجراء توفيقه للعبد لكونه صلي الله عليه وسلم لا يقود إلا إليه تعالى وهو في كل نفس ولحظة أو أقل من ذلك لا يفتر عن القيادة إليه فالدلالة عليه صلي الله عليه وسلم هي عين الدلالة علي الله تعالى وأما دلالته تعالى له عليه عليه السلامان في البيت الأول إنما هي ترقية وزيادة محبة بتعريفه وفي الأخير بصنعه تعالى بعد أن استهلك

كليتته في نور رسول الله صلي الله عليه وسلم وبعبارة أخرى فالأولي دلالة علي رسول الله صلي الله تعالى عليه وسلم والأخرى دلالة برسول الله صلي الله تعالى عليه وسلم ثم تولي عنه الحركة والسكون بحسب أوامره وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بلا شذوذ ولا ميل وهو الذي نبه عليه في قوله {بلا تغرر وعمري تقبلا} لأن الحديد عن الصراط المستقيم كيف ما كان فحيد وقد عُصِمَ منه وذلك ليترتب الأجر بدوام استمراره كما قال وعمري تقبلا وذلك حيث لا حظ لغيره تعالى من عمره تُولاه وفي الحديث {إن الله يربي الصدقة كما يربي أحدكم فلوه} وهو رضي الله عنه إنما أهدى كليتته فتقبل منه فكان تعالى الكفيل والولي وحده لا شريك له وهذا هو السكون في الانتهاء كما قال [226].

*

كان رضي الله عنه يقول {من أراد أن يعرفني بتركيب الأقيسة من ما مضى من الحكايات والاستقرار ممن حفظ التاريخ فهو أجهل الناس بيّ إنما أنا عبد تولاني ربي عنده فكما لا شريك له في فلا سبيل لأحد إلي معرفة أمري غيرّه تعالى ورسوله} كل هذا التعريف أن معيته لرسول الله صلي الله عليه وسلم معية خاصة لا يغيب عنها في جميع أنواع التلوينات وفنون التمكينات والولايات وتلك قوة لا توجد إلا في أكابر الصديقين كأصحابه صلي الله عليه وسلم أو في المحبين النازلين عن رتبة الكمل الأفراد منهم وذوي الولايات العظمى ممن وقّفُوا أعمارهم في مدحه والصلاة عليه صلي الله عليه وسلم وكثيرٌ منهم فاتتهم العناية السابقة من الله تعالى بالمجاهدين الذاكرين

اللّه كثيرا المستهزئين المفردين الذين ذابوا في الله وقاموا به تعالي وكلا وعد الله الحسنى إلا أن حصول الذوقين في الآن القاهر علي جميع الأحوال حال عزيز وأمر غريب نادر لم يظهر في أحد ظهوره في **هَجِيرِي** {شيخنا} رضي الله عنه فإنه لا يذكر الله في حين من أحيانه إلا مقرونا بذكره صلي الله تعالي عليه وسلم في جميع أنواع العبودة من الذل والفقر إلي الله تعالي ومن العز بالله والغنى به عز وجل إن [227] افتقارا أو طلبا فإلي الله تعالي به عليه الصلاة والسلام وإن شكرا وثناءً فله سبحانه عليه صلي الله عليه وسلم أو له علي الدلالة علي الله تعالي وإن كان بالظهور بالمواهب حيث أمر به وأذن فيه من التحدث بالنعيم كما أذن لمتبوعه عليه السلامان إذ حُوْطِبَ به {وأما بنعمة ربك فحدث} فبه يُظهر وإياه يُطري وبإحسانه ومحاسنه يهيم فما استقام أحد علي طريقة أداء حقه كما يرضى الله تعالي مثله بعد الصحابة الذين لا يذكرون الله تعالي إلا مقرونا بذكره كما يجري في محاوراتهم معه عليه السلامان فيقول أحدهم الله ورسوله أعلم ويقول أحدهم صدقة لله ورسوله كما قال الصديق رضي الله عنه وقد قدّم جميع ماله لرسول الله صلي الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلي الله عليه وسلم ما أبقيت لأهلك فقال الله ورسوله وصححه الترمذي وغير وغير وقال الفاروق في قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنهما وعيناه تذرفان الله ورسوله أعلم وفي غيره في البخاري وقال كعب بن مالك شكرا لله ولسوله حين تاب الله عليه فقال لرسول الله صلي الله عليه وسلم من علامة شكري أن أنخلع من جميع مالي ثم قال رضي الله عنه.

*

[228]

*

ذكر الآل والصحب إجمالاً ثم ذكر الخلفاء الراشدين
تفصيلاً ينعت كلا بنعته الذي يناسب حاله رضي الله عنه
في ذلك الوقت لأن المرء أول ما يسبق فيه أول وهلة
من النعوت النعت الذي يلائم طبعه لأنه أول ما يبدو له
من الفضائل لتصوره إياه في نفسه وقيامه بوصف منه
إلي أن قال رضي الله عنه.

*

ثم انعطف من ثمَّ إلي عزته تعالي فتشبع واغتنى فتاه
علي الأقتال واختال إذ يقول.

*

*

*

*

*

*

*

[229]

انظر ما أحسن هذا التيه وهذا الاختيال في هذا
الموقف فلا والله ليس بدون من اختيال سيدنا أبي
دجانة وكتن رجلا شجاعا شهد بدرا ومن قصته في
غزوة أحد أنه قال رسول الله صلي الله عليه وسلم
{من يأخذ هذا السيف بحقه} فقام إليه رجال فأمسكه
عنهم حتى قام إليه أبو دجانة رضي الله عنه فقال وما
حقه يا رسول الله؛ قال أن تضرب به العدو حتى
ينحنى فقال أنا أخذه بحقه يا رسول الله فأعطاه إياه
وكان أبو دجانة رضي الله عنه بطلا شجاعا يختال عند
الحرب إذا كانت وكان إذا أعلم علي رأسه بعصابة
حمراء علم الناس أنه سيقا تل فلما أخذ السيف من يد
رسول الله صلي الله عليه وسلم أخذ عصابته فعصّب
بها رأسه ثم جعل يتبختر بين الصفين فقال صلي الله
عليه وسلم إنها لميشيةٌ يبغضها الله إلا في هذا
الموطن فهل دريت أين رمى البلوى التي هو يعوم في
بحورها رماها بعيدا حيث رمى زخرف الدنيا وزينتها
وقدرها وجيفتها حجبته عزة مولاه وغناه عن شم رائحة
تهاويل الأعداء وأنساه شهود عظمة ربوبيته تعالى
فنون مخن المتسلط عليه بمكائده وجبروته كما
استعاض **بأنسه** من وحشة الرفقاء واصطناع الأصحاب

والشوق إلي الأحاب فكيف لا يُحجب عن مضرة الأعداء من غيب عن منفعة الأحياء فأليك بعض ما تضمنته هذه [230] المناجاة والحال النفيسة من العجائب والغرائب صدر القصيدة بالانقياد والاستسلام للقضاء والقدر اللذين هما مهاد الصبر الجميل ثم الإنابة والمعاهدة ثم التوكل ثم الرضى والتفويض والسكون تحت الربوبية سكونا تاما مطمئنا ثم القيام بمقتضاها من العمل بالكتاب والسنة وخدمتهما ثم معاملة الرسول صلي الله عليه وسلم بالنصر والتعزير والتوقير ثم الاستقامة علي هذه الحقائق بالاهتداء والاقتران به صلي الله عليه وسلم وأصحابه وتوفية حقوقهم ثم التيه علي السيوي بالله لله ثم العبودة القصوي حيث قال {به سرت من ربي لربي موحدًا} وذلك آخر العهد به والله أعلم بما يطالعه به من خزائن فضله قال وقوله الحق {وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم} فلم يبق إلا أن يفوت أجره في صبره هذا العدو والحصر {إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب} فصبره رضي الله عنه لا يُتاح إلا لمن هَيَّاه الله لمكافحة أمم الضلال ووزراء السوء وشياطين الإنس والجن وإنه لعزيمة صبر لا يُتاح إلا لمن اصطفاه الله لرفع منار الإسلام وشد أزر حقائقه وأهله لإعلاء كلمته تعالي من بين صم بكم عمي لا يرجعون فِرَقُ أكثرهم لا يعرفون من الدين إلا رسمه ومن الحق إلا اسمه إلا قليل منهم يهدون بالحق وبه يعدلون نُور الله بصائرهم فتمسكوا [231] بأذياله ووالوه في اله وخذوا علي منواله صبر من يحب في الله ويُبغض فيه ويوالي فيه وفيه يُعادي كما قال.

صبر من استحققر في جنب الله كل ما سوى الله صبر
من تُنسيه لذة الطاعات مقاساةً ألام جميع المؤذيات
صبر من لا يداهن في الدين ويتأنف تأنفا عزيزا من
الاستعانة بغير الله وأهله فإنه رضي الله عنه أتى عليه
شهر رمضان وهو في {ماينب} تلك الجزيرة المظلمة
في مجاهيل أطراف المعمور في بحر الظلمات مودعٌ
من حكومته في يد ذلك الوحش الشيطانيّ الشرير
حاكم {كابون} وهو رضي الله عنه صفر اليدين إلا من
الكتب في أشد عُرْبَةٍ وفقر مُدَقِّع وشهْرُ رمضان لا
يعرفه هو ولا سائر الشهور إلا بتقييده في كتاب لعدم
مَنْ يُؤْمَن عليه في الدين لغربة الإسلام هنالك عُرْبَةٌ لا
يُوازِيها إلا غرْبته هو أتى عليه هذا الشهر وهو لا يملك
نقيرا ولا قطميرا إلا ما تدفعه الحكومة من الرواتب
وقد كان من قبل ذلك من أول ما عقل لا ينتفع بأموال
الأمراء في نفسه وحاجته تَوَرُّغًا قبل {فرنسا} ومعها
فصام الشهر كله لا يفطر إلا بالماء القَرَاع وقد يَمَصُّ
بعض أوراق [232] الشجر استنانا حتى استكمل الشهر
قال فجعلتُ قراه لما استهل قصيدة وهي.

*

*

*

إلي آخرها ووادعه بأخرى وهي:

*

*

*

*

إلي آخرها وفي هاتين القصيتين تعرف نفسيته إذا
أصطكت بالمحن المتتابة وفيهما تقرأ أنفته
واستصغاره الأهوال واستهانتة بها وذويها وصدقته في
الله وحبه وشوقه واعتماده علي رسول الله صلي الله
عليه وسلم ووفائه مع ربه في العهد أما الأولى ففي
ابتهاجه بالضيف القادم وإعداد نزله من الطاعات
والأخرى في المناجاة والاستشهاد له بكونه [233] عبد
الله تعالى وفي التوبة والإنابة ثم الاستغاثة والافتقار
علي عادته من التذلل والخضوع ثم الاعتماد علي الله
ورجائه والإقبال إليه بالكلية مع رسول الله عليه الصلاة
والسلام والاستهانة بما سواه تعالى والتهيه والأنفة علي
غيره تعالى وأهله وإسقاط ذلك الغير والزهد فيه
وصرف الوجّه عنه واستقذاره الدنيا الذميمة فما
أظهر نفسيته إذ يقول فيهما.

*

*

وقبله.

*

*

*

*

*

وبالجملة فكان رضي الله عنه صابرا لا متصابرا وكان
مصابرا ومرابطا {ثهلان ذو الهضبات لا يتحلحل} كما
قال حاكم {ماينب} المتفرنج المتسلط عليه وبيده إذ
ذاك جميع آلات [234] الدناءة وأنواع أدوات اللؤم ذلك
الشیطان المتجسّم في صورة الأدمي الذي كان يهجم
عليه بأنواع المؤذيات ويُطلق عليه ضروب المضرات

يهدده بالعَسَف تارة وبالمدافع أخرى يتمنى أن يحسب له {شيخنا رضي الله عنه} يوما واحدا حسب الإجلال والإعظام فأعجزه ذلك أو أن يراه سببا ثانويا لأمر ما فحُرِّمَ ذلك.

حكى علي أنه أتاه يوما يكتب بعض مناجاته مع الله ويهدده آلات الإهلاك يُهدده يقول أما تكف أما تعلم أني لا أوامر فيك بشي إلا وفعلته يريد القتل ويوهم بورود الأمر به فلم يلتفت إليه {شيخنا رضي الله عنه} حتى أكثر عليه فرفع بصره إليه وقال له بلهجتته وأنت تعلم أني لا يأمرني ربي بشيء إلا وفعلته فبهت المرتد وتراخت أعصابه ثم تجلد تجلدا باردا وكسر في نفسه وقال {لشيخنا رضي الله عنه} وما أمرك ربك به فقال أمرني ربي بالصبر علي كل ما فعلتم بي فحُجِّل الرجل وقال نعم إن الله أمرنا جميعا بالصبر {إن الله مع الصابرين} فقال له وإن كان الأمر يشملنا فالذي امتثله أنا.

قلت وهذا الجواب علي **هذه** الحال ينبئ عن علو قدره في التوحيد وصدقه في العبودة ورباطه مع الله في جميع المواقف والكرامات الخلقية أعز عند أهل الله المقربين من سائر الكرامات فبذلك كان الصبر أعلي ما اتصف به العبد لأن حقيقته ترجع إلي ملائمة الحوادث [235] ومماشاة الأقدار علي الرَّحْب والدَّعة وهي المعبر عنها عند الحكماء بالعفة إلا أن بينهما عموما وخصوصا في عرف الصوفية لأن العفة يُوصَف بها أهل المروءة وغيرهم ممن لا نية لهم إلا الاعتياد والصبر لا يجري علي ألسنتهم إلا والمقصود به الصبر لحكم الرب تعالي تعبدا وإذا كان حال الصابر الشكر علي ما يُصبر عليه من كمال قربه فهو صاحب الجزاء الأوفى كان {السَّيِّئِيُّ} يقول كلُّ صِدِّيقٍ ليست له

معجزة فهو كاذب فمرض مرضا شديدا وأدخل في
المارستان ف قيل له كنت تقول كذا وكذا فأين
معجزتك؛ قال معجزتي موافقة الرب في الأمر والنهي
فبخ هكذا يَجْمَلُ الصبرُ وَيُشكرُ عليه وكان {عُرْوَة
بن مسعود} يُكلمُ النبي صلي الله عليه وسلم ويتناول
لحيته و{المُعَيَّرَة بن شُعْبَة} يَكْفُ يده بالسيف يقول
اكف يدك عن لحية رسول الله صلي الله عليه وسلم
وكان {سُهَيْلُ بن عَمْرٍ} ينازعهم ويقول لو أعلم أنه
رسول الله ما خالفته ويقول له اكتب اسمك واسم
أبيك واكتب باسمك اللهم علي عادتهم كل هذا يوافق
صلي الله عليه وسلم صبورا لعظم شفقتة وكثرة لرأفته
رجاء أن يهتدوا وقد بركت ناقته فقال الناس خلأت
القَصْوَى فقال صلي الله عليه وسلم {ما خلأت وليس
لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل} فما زال معهم
علي هذه السجايا من الصبر حتى فتح مكة ولم تكن
حرب [236] تحصدهم ولا قتل يفنيهم وحتى أسلم
سهيل بن عمر وبعد فحسبني إسلامه وخطب خطبته
المشهوره حين تحدث أهل مكة بالردة فثبتهم الله
بكلامه رضي الله عنه فكان من عظام معجزاته صلي
الله عليه وسلم لما قال عمر بن الخطاب وقد تمكنوا
من سهيل دعني يا رسول الله أضرب عنقه وأنزع
ثنيته فأبي عليه وقال {سيقف موقفا لا تكرهه} فكان
موقفه يوم أتى الناس نعي رسول الله صلي الله عليه
وسلم يُثَبِّتُ أهل البطحاء علي الإسلام فكرامات
{شيخنا رضي الله عنه} في هذه الأخلاق كثيرة انظر
جوابه لذلك المرتد وصبره علي الانتقام والشكوى علي
أن الرجل كان كثير ما يفتشه ولا كان يُوصِلُ إليه براوة
من أرضه أو شيئا ملفوفا إلا بعد أن يشقه ويعرف ما
فيه وما هو وقد يكون سائغا له من جهة السياسة لأن

المُعَرَّب لم تُعَرَّف حقيقتهُ إلي ذلك الحين ولكنه يزيد علي التفتيش البعثة والفساد والتشويش وسوء الأدب الكثير قال {شيخنا رضي الله عنه} إنه وقف عليه يوما ليأخذ بعض ما أرسل به إليه فراه يُقلب ويلوي هذا ويرمي بهذا ويُفسد هذا فقال له {شيخنا} يا فلان ظلمتني وتماديت علي ظلمي كأنك لم تعلم أن الآخرة آتية فقام الرجل مُغَضَّبًا يَسُبُّ وَيُعَيِّفُ ويفعل حتى تحركت عليه حشمه وجعلوا يقولون له يا فلان دع عنك هذا الشيخ واترك ظلمه فقد جاوزت [237] الحد في أمره وقد أحزننا نحن معشرك هذا الظلم فأدبر {شيخنا رضي الله عنه} إلي بيته وعبادته قال {شيخنا رضي الله عنه} ومكثت تلك الليلة إلي الصبح فما علمت إلا والرجل ارتمى أمامي يتمرغ علي الأرض وجعل في عنقه حبلا مده إلي يقول لي خذ هذا الحبل وجرني حيث شئت فقد تبت من ظلمك وندمت عليه فلن أعود أبدا فاصفح أو افعل بي ما أردت فلاطفه {الشيخ رضي الله عنه} حتى قام وطيب خاطره ثم رجع إلي بيت حكمه انظر كيف أجاب هذا الرجل نفسه وحكم {لشيخنا رضي الله عنه} حين تلا عليه إن الله مع الصابرين في الواقعة الأولى صبر لحكم ربه فقذف له في قلب عدوه الرعب بلا سبب فأسلم نفسه إليه ليقترض منه إن هذا لعجب عجاب إن هي إلا معجزة تأخرت لمخدومه كما تقدمت له في قصته مع سهيل وأهل مكة ووقعت له مع حاكم آخر من حكام {كأبون} واقعة بينه وبين {شيخنا رضي الله عنه} نفرة من جراء سوء معاملتهم للمعتقلين هناك علي السواء لا فرق عندهم بين المجرمين الأندال ذوي الطباع السخيفة والسياسيين المعارضين أهل الجراءة والإقدام ولا بين الدعاة المدخول عليهم من جهة

الرياضة غير المهذبة التي توجب كثيرا آفات تُشبه
الجُنونَ في أدمغة ذويها ولا بين المحققين من الصوفية
أهل المشاهدة من أهل اليقين الغافلين عن الدنيا
والناظرين للآخرة أولئك [238] الذين يستلذون الآلام
في ذات محبوبهم المستحقين بسواه والناسين لغيره
أهل القلوب الذين غلبت رَوْحانيتهم علي بشريتهم مثل
{شيخنا رضي الله عنه} الذي كان يقول {كل ما
يجاوز الدنيا إلي الآخرة فلا مبالاة لي به كل ما يفني
فخطبه سهل} كان ذلك الحاكم يستعرض المعتقلين
يوما حتى أتى علي {شيخنا رضي الله عنه} فوجده
في عبادته ذاهلا عما الناس فيه فعد ذلك استهانة
كأضرابه ممن سبقوا فيه ولما يقفوا علي حقيقته وقد
مضى طرف في المقدِّمة من هذا النوع الذي للقائل
أن يقول كل ما جرى له من الحكومة منشؤه سوء
التفاهم لا أكثر فإنه لم يصادمهم في إرادة ولما رأى
الحاكم أنه لم يعبأ به عَدَّه ظلما فوق كل ظلم وزاد
في تضيقه وإتعا به تشقيًا منه حتى بلغ معه أقصى ما
في إمكانه مما دون النفس قال {شيخنا رضي الله
عنه} وفي هذه الفتنة أتاني أحد رؤساء العسكر لأن
الجزيرة إذ ذاك لم يزل الحكم فيها حكما عسكريا
نوعيًا وكان هو يسكن في بيوتهم لا **يُوبَهُ** به قال فقال
الرئيس هذه المعاملة تسوءني وأرى أن تلاطف الحاكم
بكيت وكيت قال فقلت له لا أحتاج إلي مصالحته فقد
قُرب تمام نحت كيسه الذي يُقبر به فما أتى عليه
شيء حتى مرض وأعجز أطباء الجزيرة وقد كان خرج
من تلك المدينة إلي غيرها ثم مُرَّ به في السفينة
محمولا إلي {اندكاز} [239] فمات فأتى الرئيس الذي
كان يناصره فقال له أيها الشيخ والله ما أدري ما
حالك حاكمنا الذي كنا نشكوه مر به في السفينة إلي

دكار لمرض أصابه عند ما خرج من المدينة فمات وهو في كيسه كما قلت وما ذاك إلا انتقام الله من العدو لعبده، وكما وقع لحاكم {اللُّوكَهَ} القائم بأمر التغريب المالى صُكُوكَه بالتقريرات المُمَوَّهَة قبل وقد بلغ بع العزم أن قال لحاكمه العام في {اندر} اخرجوا عني هذا الشيخ أو أخرج أنا من الحكم فلا يجمعني وإياه بلد فإنه ما لبث {شيخنا رضي الله عنه} في منفاه سنة أو سنتين حتى أرسلَ عليه حاكما علي ذلك البلد فلم يعلم حتى وجدوه في عُقر داره في الجزيرة {كابون} محل ولايته فكان من العجب أن قلب الله قلبه علي {شيخنا رضي الله تعالي عنه} لما علم بوجوده فجعل يقول لقومه إن هذا الرجل كان في حكمي وإنه كان جليلا في أرضه كثير الأتباع فاعرفوا له حقه ولا توجهوا إليه الأذى والإهانة فإنه لم يعمل سوءاً ولم يعارض قانونا ولا دخل في السياسة إنما كان ما نُقِمَ عليه صراحته في دينه وشدة ظهوره من إقبال الناس إليه أما هو فليس في شيء من الفساد وأمر الدنيا فصار يلاطفه ويوضح في السجلات أمره فكان بسببه انصرام الأذيات كما كان به ابتداؤها فسبحان مقلب القلوب كان إرساله إلي الجزيرة حاكما لتكذيب نفسه ولغسله [240] بيده الأذناس التي هو لطح بها ولم يقف عند هذا الحد من الانتقام المعنوي حتى تجلى له الانتقام الصوري بأجلى مظهر أتهم هو أيضا من جهة حكومته فخرقوا حرمة ونزعوا خطوطه وعزلوه فافتقر من كل ما كان حصل عليه فصار يجول في البلدان يبحث عن مناجم الذهب ومصانع الحذاق ليحصل علي الكفاف ثم رجع إلي {سِنَعَال} للبحث هن مادة رزق يعيش به فلم يحصل علي طائل فجعل يتيه في الأرض وحانته أعوانه كما حان حكومته فلم

يزل علي ذلك حتى مات حزنا وكمدا قال {شيخنا رضي الله عنه} في بعض مناجاته الشكرية:

*

*

*

ومن شواهد ما وقع له رضي الله عنه مع {دكتور لَسَلُو} الذي ورد إلي {انجُزِبِلْ} جاء حاكما في بعض السنين وكان هذا الحاكم شرس الطباع أشبه شيء بالصفراويين ذوي الأمزجة الحادة قوي العارضة شديد الشكيمة جهير الصوت خفيفا نشطا لا يكِل أمره إلي غيره ولا يُخادع ولا **يجابي** ولا يُظهر خلافَ ما أضمر إن خيرا فخير وإن شرا فشر هكذا عرفته وعرفه غيري من أهل {بَوْلْ} [241] أرسل إلي {انجُزِبِلْ} حاكما وقد أكسبته هذه الأخلاق مهابة في النفوس وثقلا علي القلوب أتى بهذه الصفات وكان القصد في توليته أن يَسْبُرَ حال {شيخنا رضي الله عنه} ويقلب أمره ظهرا لبطن ليقف علي كنهه وحقيقته ويحرِّك قلبه ويحمله علي إرادته متسلحا بكل سلاح من **السلطة والنفاسة** ليُخرج لحكومته دروسا صحيحة عنه تقطع بثبوتها وامتناع تبدله ما دام الإنسان إنسانا فهجم بَعْدَتَه هذه عليه عليه رضوان الله تعالي يناديه في أوان الحر والحرور والقر والزمهرير وربما يأتيه هو بنفسه في عقر داره بغتة وقد تبلغ به الشراسة أن يقدم أحد أبناءه يكسر الأبواب ويَقْدُ البناء لأنه لا بد له أن يراه في هيئته الخلوية من غير علم به وقد تسوّر داره يوما

ليعرف ما ذا يكون عليه وهو في حاله العادي ولم يعثر
قط علي ريبة ولم يلفه يوما ما فارغا أو في تدبير
دنيوي إما أن يجده كاتبا أو تاليا أو في عمل آخر من
أعمال البر ولم يتغير له {شيخنا رضي الله عنه}
ساعة واحدة من سلوكه الغير المرضي وكنا نقول
{لشيخنا رضي الله عنه} إنه يجعل في همته أن يطرد
هذا الحاكم أو يقع له ما يمسكه عن تفتيشه أو يُعزَل [242]
وهو يقول لنا متبسما في هذه الأمور الغربية
الرائعة إنه قيل لي إن هذا الحاكم لم يأت هنا إلا لمحو
ما جرى بيني وبين دولته من التهم وتبرأتي من الظنَّة
فنقول هذا عجيب كيف يقول {الشيخ} هذا والحاكم
أشد من جميع الحكام قسوة وأسوأ معاملة ثم أنه لم
يلبث أكثر من ثلاثة أشهر في حكومته حتى جعل يكتب
في صُكوك سره للحكومة العليا في {اندر} أنه
سبر {الشيخ رضي الله عنه} وأزعجه وفتنه وبلا غائر
حقائقه فلم يجد منه إلا رجلا كله ديانة إسلامية وكان
يقول إن في هذا الشيخ قوة غير مكتسبة ولا تدرك
العقول مادتها في التسلط علي العواطف وأن طواعية
الخلق له خارقة للعادة ومحبتهم إياه تعميهم وتُصمهم
كأن معه نور نبوة وأمر سماوي كما نقرأ في قصص
القرآن مع أممهم ثم قال إلا أن هذا من سلامة الصدر
وطيب الخاطر وحب الخير للعدو والصديق بمكان
يحسده عليه كل متقدم مهما كانت فضيلته وتقواه
وكمال قبوله في البرية فأظلم الناس وأجهلهم بحقائق
الإنسان أولئك الذين رَمَوْهُ بما هو بريء منه من التهم
وحيِّ الظهور وتمني الملك فأنا أعرف أن الأنبياء
والأولياء الذين جاهدوا كلهم ظهر بضميره ولم يتهيا له
من القوة نصف [243] ما تم عند هذا الشيخ من القوة
وبمثل هذه الصراحة والاحتجاج والاستشهاد تابع كتاباته

حتى تقرر عند الدولة صدقه فعلمت عليه بالاستمرار فكيف لا يجمل صبره في هذه الوقائع مع هذا الحاكم وقد أيقن بما يتول إليه أمره صبر شاكر مطمئن راض رضاء مبتهج بمحبوبه موافق لأمره {والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار} كل هذا والصبر سجيته والشكر حاله سواء فيما ليس له فيه اكتساب كهذه الحوادث التي لو أردنا حكايتها لامتلأت القراطيس ولا نأتي بعشرها وسواء فيما للعبد فيه اكتساب كالصبر علي العبادات والصبر علي العوافي فكان رائده في جميع الأمور موافقة الرضى.

قال ذات يوم وقد ورمت يده ورما عظيما يجري منها الدم والقيح وقد انشق الجلد عنها **وانكسح** فبقيت لحما أحمر ولم يزل يتوضأ ويغسلها قال وقد جرى الدم الكثير وهو يتوضأ أيتها اليد سواء دَمَيْتِ أَوْ بَرَيْتِ عَلَيَّ فأنا عبد مأمور وإني لماض فيما أَمِرْتُ به لا بد من عَسَلِكُ كَأَنَّ العَضُو غير متصل به كيف لا وهو الوارث الكامل قال صلي الله عليه وسلم متمثلا {هل أنت إلا إصْبَعٌ دَمَيْتِ* وفي سبيل الله ما لقيتِ} وقال صاحبه {حبيب بن عدي رضي الله عنه} لما أسر وأرادوا [244] قتله في مكة وخرجوا به إلي الحل.

*

*

علي أنه قال صلي الله عليه وسلم قبل الإنشاد {اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا} كل هذا

يدلك علي أن جميل الصبر لا ينافي الشكوى إلي الله
والصفح لا ينافي الدعاء علي الكفار علي أن عِلْمَ
العُقْبَى موكول إلي الله وعلي مشيئته التوقف وعلي
رضاه الوفاق فأقول ولا أحاشى لم يقم بحقيقة اليقين
بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم وأصحابه أحد
كقيامه به هذا ولم يزل علي ذلك الحال حتى برئت يده
ولا يُنكَر عليه في أخذه علي نفسه بالشدة فما ذلك إلا
لتحققه بقديم مخدمه عليه الصلاة والسلام ففي
البخاري {أنه كان صلي الله عليه وسلم لَيَقُومَ أو
لَيُصَلِّي حتى ترم قدماه أو ساقاه فيقال له فيه فيقول
أفلا أكون عبدا شكورا} قال ابن بطال في هذه في
هذا الحديث أخذ الإنسان علي نفسه بالشدة وإن تضرر
به لأنه صلي الله عليه وسلم إذا فعل ذلك مع علمه بما
سبق فكيف بمن لم يعلم بذلك.

{فشبخنا رضي الله عنه} مع إيقانه بوعد الله تعالى
إياه بجاه سول الله صلي الله عليه وسلم بثبوت
سعادة بلا محو أبدا فأخذ علي نفسه بالشدة في جميع
العبادات [245] من امثال واجتناب وكذلك في الانتصار
لله تعالى ولرسوله صلي الله عليه وسلم ولدينه أخذا
يكاد يُعَدُّ منه مخاطرا بحياته قياما بأعباء الشكر لله
تعالى وسُكْرًا من شراب محبته صلي الله عليه وسلم
كيف لا وقد عاين من الغيب ما عبّر عنه بقلمه ولا
يكتب إلا بإذن من الله تعالى ورسوله صلي الله عليه
وسلم حيث يقول.

*

فبخ بخ أعلي درجة في الشكر وأسني مقام في
المحبة الخاصة.

وسمعه رضي الله عنه في مرض شديد لا يكاد يرفع رأسه منه يقول {إن هذا بلاء كاد يقع بالناس فتحملته عنهم}

{لطيفة}

كان عند {سهوة الماء} في أرض البياضين أصابه مرض شديد دام معه أياما كثيرة نحو شهر ولم يحبسه يوما عن الإمامة في المسجد إلي أن أجحف به غاية فجمع القوم خارج بيته تلميذه الفاضل المحب لأهل الله الناصح له ولمريديه أولا وآخرا {مختار ابنَدَ جَنكُ} رحمة الله عليه رحمة واسعة فقال لهم إن الشيخ أجحف به المرض وإني صرت أخاف عليه ومع هذا الإجحاف لا يصبر بعد سمع الأذان عن الحضور [246] وهو كما ترون لا يكاد يعرف الليل من النهار فأريد من المؤذن أن يخفض صوته ثم يتقدم {سيد بن عبد الله} هذا فإذا فرغنا من الصلاة يُخبر بالوقت وبأن الجماعة صلوا لئلا يتكلف الحضور فصاروا إلي قوله ورأيه علي أني سمعته يقول إن من أكبر الكرامات التي حُصِّصت بها تقوية الله لي علي الصلوات في صحتي وسقمي حتى أنه قد يقع في ما لا يمكن معه القيام ويثقل منه النهوض ثم إذا سمعت الأذان يخففه الله حتى أقيم صلاتي في الجماعة ثم إذا فرغت يعاودني إلي أن يقدر البرء.

ومن كمال صبره في مقام التوكل والتفويض أنه لا يتداوي ولا يسترقي إلا ما كان منه استنانا ولا يسمح لأحد أن يدعوا الله له في تخفيف مرضه أو بلاءه مما يدلُّ يقينا أن دعاءه لله واستكاته له وذله عبودة محضة كما يليق بالعبد مع ربه لا خوفا أو طمعا إلا منه

وفيه تعالي مع الرضى بكل ما قضى من الأمرين وأجرى من قدره.
وقد اجتمعت التلامذة في مرضه الماضي ذكره علي رجل صالح منهم لينشأ نظماً يدعو الله به وكثيراً ما يجتمعون في موضع يدعون له ويتوسلون إلي الله تعالي بالصلاة علي النبي صلي الله عليه وسلم ونحوها من القربات ليُشفى ولما عمل الرجل القصيدة التي طلبوا منه فرحوا بها وتناقلوها وأرسلوا نسخة منها إلي [247] {الشيخ} علي يدي وكنت إذ ذاك صبياً لا يكاد يحتجب عني ليلاً ولا نهاراً فاتيته بها فلما نظرها قال هذه لمن؛ فقلت له لقلان فردها لي وقال قل له فليتب إلي الله من هذا أمري بيد الله تعالي ولقد صدق والله فتوكله وتفويضه من أعجب العجائب بين الأعداء وبين الأحباب علي حدٍ سواءٍ كان شفاؤه القرآنُ وخدمة رسول الله صلي الله عليه وسلم.

{دقيقة}

فإنك أيها المطالع تستأنس في قوله في بعض أمراضه أنه أمر توجه إلي الخلق فتحمله فإني تذكرت يوماً قبل ظهور هذا المرض علي {شيخنا رضي الله عنه} بأيام قليلة وأنا في بيت معلمي {أبي بكر جَحَّتِ} بن {القاضي مَجَحَّتِ كَلَّ} وهو من أصدق الناس في حب الحق وأكثرهم تشدداً في الورع ومن أحظاهم عند شيخنا رضي الله عنه في جميع مدة مكثه معه ومن أقوم مرديه طريقة وأحسنهم أن أتاه أخوه {مختار بنت جَحَّتِ} وكان من المربدين السائحين الزاهدين المَحْفِيِّين طاف في أنحاء المغرب الأقصى وأتى لفاس ومكث فيه مدة وقد جعل يتحدث مع أخيه أبي بكر هذا

وسمعتة يقول له رأيت رؤيا أفزعنتني عجيبةً لا أدري ما هي وهي أن {الشيخ رضي الله عنه} وقع به مرض شديد ذهب بجسده وألفيته في موضع مضطجعا كأن لم تكن به حركة فتحيرنا معشر المريدين [248] حتى كادت عقولنا تغيب فقلت للناس أيها المريدون تعالوا نتحمل عن الشيخ بعض المرض ليخف ثم تقدمت فأخذت شيئا فانقلبت فقلت لهم أما أنا فقد أخذت نصيبي ثم لم يمض علي هذه القصة إلا قليل حتى مرض {شيخنا رضي الله عنه} مرضه هذا ثم بعد نحو أسبوع مرض هذا المريد ومكث قليلا فتوفي رحمة الله عليه ثم عُوفِيَ {الشيخ رضي الله عنه} بعد فانا الذي أرسلني معلمي أخبر الشيخ رضي الله عنه بوفاة المريد فرَّق له وأمر بأن يدفن في مدافن الصالحين في {إن يلف} قريبا من سهوة الماء ومما يلاحظ من كمال مراعات {شيخنا رضي الله عنه} للشريعة المطهرة أنه كان خلع علي مريده هذا أشياء للتبرك لأن المريدين يرغبون في ذلك إلي مشايخهم وكانت عادةً في جميع الصوفية من أول الزمان وما زالوا يتمنون أن تكون تلك الخلع معهم في قبورهم رجاء نفعها فشاوروا {شيخنا رضي الله عنه} في هذه الأشياء فقال لا ينبغي دفن كثير له بال وبقية يُنتفع بها معه واستفصلهم عما هي فذكروا فيما ذكروا نعلين فقال ألبسوه النعلين لتكونا له شهيدتين وأبقوا غيرهما. انظر هذا من مراعات الشرع في عدم الإسراف وعدم التزيين والتفخيم لضيف الآخرة أجازنا الله من عذابه وجعل رحمته ومغفرته قرآنا في [249] الدارين بفضلته ومنه وأصل بقاء النعلين ما جاء في قصة {عبد الله بن أنيس} الصحابي رضي الله عنه الشهير كما في {الزرقاني} وغيره في سرية {عبد الله بن رواحة}

الأنصاري البدري إلي {أَسَيَّرَ بن رَازِم اليهودي} وأنه
صلي الله عليه وسلم تفل علي شَجَّتِه إذ قدموا وقد
قتل عبد الله بن أنيس العدو فلم يقح ولم يؤذنه حتى
مات رضي الله عنه وقد كان العظم نغل أي فسد قال
ومسح وجهي ودعا لي وقطع لي قطعة من عصاه
فقال {امسك هذا علامة بيني وبينك يوم القيامة
أعرفك بها فإنك تأتي يوم القيامة مختصراً} فلما مات
عبد الله جعلت معه علي جلده دون ثيابه وهذا وقع
لجماعة مع {شيخنا رضي الله عنه} وقال عز من
قائل {لقد كان لكم في رسول الله **أسوة** حسنة}
فالاستقامة علي التآسي من قديم أثمرت له التكريم
بالتخصص والمعاناة بحكم التبعية ومن جميل صبره ما
حكى عليّ أحد غلمانه الذين كانوا معه في السفر إلي
أرض البياضين أنه لم يزل يتذكر يوماً قالوه عند حِسِّي
تُسَمَّى بَبَكِّي} في معمعان الصيف والرمل يتوقد من
الحر في مكان قفر قصير الأشجار لا ماء ولا زرع بعد
سُرى وتهجير قال نزلنا عند الحِسِّي تحت شجرة نحو
القامة قصيرة الأغصان شائكتها قليلة الظل لا يحيط
ظلها بأكثر من شخصين بين عروشها أشعة [250]
الشمس الملتهبة فقسمنا أسمانا البالية فلويناها عليها
ليتقارب الظل فنزل الشيخ رضي الله عنه تحتها وكان
يجلس القرفصاء والشوك يتناول عمامته إلا أن نكفه
عنه ويتصبب جبينه عرقاً وبحر الآل محيط بنا ترقص
أجزاءه بعضها في بعض وقد يبست الشفاه من
العطش من جميعنا فتفرقنا نطلب الماء إلي أن عثرنا
بعد لأي علي بئر معطلة أدلينا أحداً فيها بعد أن ربطنا
رجليه في مزادتين فارغتين مخافة النزول علي مؤذ
حتى إذا هبط علي بلة طين يعلوها ماء أسن فحلَّ
إحدى المزادتين فغرف بيديه ما أمكنه منه فأتيناه به

فلم يزد علي التبسم فتوضأ وناولنا ما بقي أسود له رائحة من طول ما هُجر ولم يزد {الشيخ رضي الله عنه} إلا جِدًّا واجتهادا في تلاوته وإقامة عبادته يتهلل وجهه وتستنير أسرته وعلينا الرواح إلي محل بعيد ليس بدون منه في الغربية.

ومنها صبره رضي الله عنه علي العبادات لم يأخذ ط بالرخص ولا كان يمنع منها من أرادها بل ربما يحيل عليها من استفتاه نظرا للمسلمين ما لم يؤد إلي تتبع الرخص المذموم عند الجميع وكان يقول لا ينبغي الإقتداء بي في التشديد فإني في أمر لستم فيه ليقف كل امرئ عند قدره ولا يُزري بالأشياخ ولا بالعلماء إذا تعاطوا الرخص لمزيد علمه وتعظيمه للشريعة [251] ومعرفته بكمال الشارع وبأنه أدري بما فيه صلاح الكل وقد ورد في الحدث {إن الله يحب أن تؤتى رُخْصُهُ كما يحب أن تؤتى عزائمه} كان رضي الله عنه قليل التيمم مكث خمسين سنة لم يتيمم بما فيها من الأمراض والأوجاع والغربة وأشغالها ولا كان يمسح علي الجبائر بل يُسقطها وما أقل ما كان يحملها في قليل من الأحيان للاستئذان وإظهار الفقر بقبول صدقته تعالي كما في الحديث {الذي أنزل الداء هو الذي أنزل الدواء} وهذه الخمسون التي هي الأخيرة من عمره لم يسبقها أيضا تعوُّد التيمم ذكر أنه إنما يتيمم من رأس هذا التاريخ من عدم الماء وخوف خروج الوقت لكونه في فلاة مع بعض مرديه وكان من اجتهاده واحتياطه للدين أنه لا يفارق إبريقه الماء حتى صار ذلك معتادا عنده وعند تلامذته وكان من قضاء الله أنه في هذه المرة نسي القائم بأمر الطهور وتفقد لماء وكانوا سبقوه في السير ولما حضر الوقت جعل يَجِدُّ لِيُدركهم وما أدركهم حتى آخر الوقت ووجد الإبريق

فارغا فلا بد من التيمم فتميم ولم يزل مذ ذاك لا يعتمد علي أحد في ذلك إلي آخر عمره فتبارك الله أحسن الخالقين علي أنه يجدد الوضوء لكل صلاة لا يصلي فريضتين بوضوء واحد طاهرا أو غير طاهر مما يوقفك علي أخذه بالعزائم والشدائد من أمور الدين [252] في كل ما له أصل من السنة كهذا التجديد ففي حديث البخاري عن أنس {كان النبي صلي الله عليه وسلم يتوضأ عند كل صلاة} قال في {الفتح} أي مفروضة وفي زاد الترمذي من طريق حُمَيْد عن أنس {طاهرا أو غير طاهر} وظاهره أن تلك كانت عاداته وقد ثبت من حديث مسلم صلاته الصلوات بوضوء واحد وهل كان وحيا ثم نسخ أو فعله لبيان الجواز وهو الأقرب {من الفتح} وعلي كل حال فحال {شيخنا رضي الله عنه} من الحرص علي الخير والجُمُود علي سنته صلي الله عليه وسلم معروف.

أما صبره رضي الله عنه علي العوافي فأوضح شيء وأجمله كان إقبال الخلق إليه أمر كل عن وصفه الرقم والنطق وانقيادهم لإشارته تكل عنه العبارة ودرر الهدايا لمجالسه المتعددة في كل يوم لإرشاد الخلق وإصلاح شئونهم ليَفوتَ القياسَ والاستقرار والتمثيل. كنت أقول في نفسي وأبديته لبعض أصحابي من أهل العلم ووافقني أن تحكيم العقل في قياس النظائر والأشبهاء من الحكايات التاريخية وتطبيقها بالحاضر لا يُنكر قد يكون صوابا من وجوه كثيرة إذا كان عن عقل مجرّب سليم وقد يُخطئ في بعض وإن ندر خَطُوهُ كما وقع {لابن خلدون} في {مقدمته} من إنكار أشياء قد يُصيب فيها من الحكايات مع تحذير وزير السلطان أبي فارس له من [253] تخطئة {بن بطوطة} في {حكاياته} عن ثروة ملوك الشرق وتجاره لبعده ما بين

ما يحكى وبين الموجود في المغرب وقال له إياك أن تكون كابن الوزير الذي وُلد في السجن مع والده في نكد العيش إذا تحدث الوزير بالعيش واللحوم الطيبة إذا ذكر طيب لحوم الغنم السمين يقول له أتراه مثل الفأر وكذلك أنا ما أظنني أستقصي في قصص فتوحاته وسرعة ذات يده وانصباب الأرزاق نحوه وتبديدها تبديد سَرَفٍ لو كان في الخير سرف كما قال {أمير المؤمنين المأمون} وقد قيل لا خير في السرف فنقض القضية بعكسها وقال لا سرف في الخير لأن ما فتح الله له فيها لم يُسمع ولم يُقرأ في التاريخ من فُتح له بقريب منه إلا لمن تقوم لهم أسباب ظاهرة وطريق مألوف لجلبها كالملوك العظام والأمراء الكبار ومن نحا نحوهم ممن أصل فتحهم كرامة لولايتهم ثم أعدوا لتنميته وإدارته عدته من العادة المباحة أما من لم يتسبب لشيء ولم يُثمر شيئاً ولم يتخذ خزانة ولا صناديق تصون ماله ولا أمناء لحفظه ويستوي عنده من يُهدي له عشرات الألوف في السنة والفقير من المسلمين الذي لم يتزود إليه إلا سلامة صدره وحسن اعتقاده والزائر المتعرض لفيضه وإسعافه من هذا المال الكثير كلهم يُرشداهم إلي الله ويرحب بهم ويُفرغ في جراب الأخير ما طفحت به يد الأول ويتفرغ لدالاتهم علي الله فتترادف الجموع الكثيرة من [254] هذه الأصناف الثلاثة ليلاً ونهاراً ويعاملهم بعبادته المعتادة فإننا لم نقف علي شكله كان انبساطه للسائل أكثر من انبساطه للمهدي لأن جانب ربه أعظم عنده في كل حال فإن المُهدي يُرضي ربه بهديته للشيخ وهو يرضي مولاه بإنفاقه علي السائل كما قال الشاعر وهو {عبد الله السالم بن محمد الأمين بن الشيخ}.

*

*

*

*

*

*

*

*

إلي آخرها

فكان رضي الله عنه سعادة لمريديه المَهْدِيِّين وربيعا
نضرا لسائليه والزائرين عبدا خديما لله ولرسوله قائما
بالوراثة الكاملة والخلافة العظمى علي ما يطالعه به
من القرب والمحبة ربُّ الخلق والأمر في كل حال
ومن شواهد خرقه العادة في انصباب [255] الرزق
وكثرة تبديده له وعظم لهاه ما قال {الشيخ أبو محمد
الكنتي} في أمر جرى بينه وبين أخي {الشيخ محمد

المصطفى { يستجلب أموالاً منه لأمر سَوَّغَهُ له فقال له الشيخ الكنتي اعلم أنني أرغب إليك في أموال عظيمة من هذا الأمر الذي جرى بيننا لأن المال متوفر عندكم ومتكاثر ونحن أيضاً لنا حظ كثير منه ولكنكم لا تدخرونه ولا تحتاجون إليه كل الحاجة بخلافنا نحن فإننا مكثرون ولكننا راغبون فيه ومثمرون له والشيخ أبو محمد الكنتي من أجلاء مشايخ **سِينَعَال** كثير الأتباع وجلهم من سكان السودان من {بَمْبَارَ} و {سُوسَ} وقد مر سرد ذلك فيما حكاه {مَفَرَّ جَائٍ} عنه أول هذا الباب.

ومنها ما كتبه {الشيخ الجليل} المفخم ذو الولايات الشهيرة والقبول الفائق {الشيخ سعد أبيه} قرأت كتابه فقال فيه من جملة ما قال أما طلبي منك المال والدنيا فلما رأيت من تفاهتها عندك وزهدك فيها، وكان صبره رضي الله عنه علي أذى الجهال من سوء الأدب والوقاحة في الطلب والإلحاح في السؤال عظيماً ربما يرد عليه ضعيف أجنبي يُعَدِّدَ عليه حاجات كثيرة ولا سبب بينهما إلا جامع الدين فيقضي له الجميع في الحال كأنه مطالب بدين قد حل ولا يزيده ذلك رضي الله عنه إلا تهللاً تذكرت يوماً مر عليه رجل في طريقه وقد كان كتب إليه إني سأمر بك [256] وبني حاجة إلي جمل موقر وكذا من كذا إلي أشياء كثيرة ولما نزا عليه ذكره بما كتب له فأمر بقضاء حاجته في الحال ورأيت مرة أبكى راع له غلاماً من البياضين لظلم من الغلام فأتى {شيخنا رضي الله عنه} يبكي ويولول فسأل عن خبره ثم أمر بغنم الراعي للغلام فاستاقها كذلك فبقي الراعي مستريحاً من ذلك بالمرة وأمثال هذا من صبر المحسنين كثير وهو أعلي أحوال الصبر لأن الإحسان هو ثمرة التقوى فكل إحسان لم يصدر

عن التقوى فليس بإحسان مُخلص لأن كل ما شابه غيره فهو غير خالص ولا يصدر خالصاً إلا بإزاحة كل شائبة من المحظورات والمنتزهات عنه من خلاف الأولى عن ساحته ولا يكون ذلك إلا بكمال التقوى الصارفة عن المخالفة ولا يكون الإحسان قويا بعد الخلوص إلا بكثرة قوة مادته وذلك باستكمال الامتثال للمأمورات واجباتها ومندوباتها ودوام الصدود عن المنهيات وما إليها حتى عن خلاف الأولى فيكون الإحسان صريحا قويا كاملا فيستخف الإحسان الكامل من ربه وهو الحب الخالص الجامع والرضى الأكبر فيلتحق بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار قال {والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه} فإن [257] المُحسن لا يكمل إلا بعد التحقق في مقام التقوى قال تعالى {إذا ما اتقوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين} والمتقي لا يستكمل حقائق التقوى إلا بأن يحسن فيها بالإخلاص والدوام كما قيل في الآية أنها إشارة إلي مراتب التقوى الثلاث تقوى العوام وهي اتقاء المحارم وتقوى الخواص من أصحاب اليمين وهي اتقاء الشبهات وتقوى المقربين من عباد الله المخلصين وهي اتقاء غير الله وربط السر علي الله، والصبر حال كل محسن في ذروة مقامه الذي هو فيه لأنه حبس النفس علي المقام فصبره رضي الله عنه عن المحارم يسعنا أن لا نطلق عليه اسم الصبر إلا بالاصطلاح أما لحقيقة الصبر الموضوع لها اللفظ في اللغة الذي هو حبس النفس عن المحذور مُكرهةً فما أظنه يصدق عليه حتى في بدايته لأن اتقاء المحارم عادة جبل عليها مألوفة بتأليف العناية السابقة التي

من صغره ينتفش بها في قلبه حكاياتُ الصالحين
وتعاليمُ الدين القويم ويغفل غفول البُلّه عن مكاسب
الدنيا ومداخلة قرنائها **ويسمج** عنده أمانى لذائذها
ويخُسُّ عنده التفكير في خلاف عادات الصالحين وهذا
أمر لا تنتطح فيه عنزان عند من تربى بينهم أما اتقاء
الشبهات أيضا فلم يزل يتورع عن كل ما لم يتبين [258]
فيه وجه الحل كما تقدم في الأخلاق حتى عن
مال والده ووالدته فضلا عن غيرهما.

أما صبره علي الصمت والسهر والعزلة فهو عجيبة من
عجائب الدهر ونادرة من نوادره كان صامتا إلا عن
الذكر والتعليم لم تؤثر عنه قط كلمة فضول حتى في
المباسطات والإنس لضيف وغيره إلا إذا تضمنت
بالقصد لطيفةَ ذكر أو وعظ من باب المزاح الحق كما
في الحديث {كان صلي الله عليه وسلم يمازح ولا
يقول إلا حقا} مع كثرة مباسطته للمتأهلين لها
ويُضمِّنها دقائقَ من دقائق الدين.

كان يصنع الأتاي ذات يوم في بعض مجالسه وطلب
نعنا فأتى بنعنع يابس فتبسم إلي مناوله فقال له أنا
لست من أهل القديد قديد النعنع وقديد الدين ثم قال
أتعرفون قديدَ الدين هو الصلاة بوضوء واحد فريضتين
لا تجديد بينهما وكان القصد في ذكر القديد أولا التذرع
علي أحسنية الأخذ بالأكمل من مطالب الشرع.
ومنه أنه كان جُلُّ جلوسه علي الرمل من غير أن
يُفرشَ له فراش من سَجَّادَةٍ أو غيرها وقد خرج يوما
وأراد أحد المريدين أن يُفرش له فسبقه إلي الجلوس
وتبسم رضي الله عنه وقال لنا في المباشرة حلوة ألا
وهي مباشرة ظاهر حاله لظاهر لفظ الآية {والأرض
فرشناها فتعم الماهدون} وباطنه باطنها ليستكمل
وجوه اللفظ ومعانيه وقبل ذلك استلذاذه بالتواضع

والخضوع [259] لله تعالى بلصوقه الأرض التي هي
منتهى التنزل.

وكما قال لرجل سأله عن مثلث الغزالي وكيفيته فقال
له {مثلث الغزالي الإيمان والإسلام والإحسان} فمن
داوم عليها يجد الأنوار والأسرار والبركات فاشتغل بها
عن غيرها.

{ بحث }

قد اختلفوا في الصمت والكلام أيهما أفضل والفصل
فيه ما في الرسالة القشيرية عن أستاذه رحمهما الله
تعالى قال الصمت سلامة وهو الأصل وقد تكون عليه
ندامة إذ ورد عنه الزجر فالواجب أن يُعْتَبَر فيه أمر
الشرع والأمر والنهي فالسكوت في وقته صفة الرجال
كما أن النطق في موضعه أشرف الخصال وهذا ظاهر
في الظاهر من ميزان الشرع وأدابه واضح لمن وُفق
وفي الباطن فالأمر فيه إلي ما اقتضاه المقام من
آداب المقربين فإن الأول يسكت تصاونا وتورعا عما لا
ينبغي والثاني يسكت هيبه وإصغاءً قالوا والسكوت
علي قسمين سكوت بالظاهر وسكوت بالباطن
سكوت المتوكلين عن تقاضي الأرزاق وسكوت
العارفين لمقابلة الحكم بالوفاق وفي هذه الدرجة من
سكوت العارفين يقول رضي الله عنه وعنا به أمين يا
رب العالمين {شغلني الشكر عن الشكاية} البيت
بلسان مقاله وسكوته بحاله عن سوس الشرطي حين
يقول له اجتهد في الدعاء والحرز فإن الحكومة تنوي
لك كل شر فلم يجبه مرات ثم بعد [260] ذلك بمدة
سأله لِمَ لَمْ يجبه حينئذ قال له الله قادر حاضر لا يغيب
فكيف أعترض علي حكمه ولا يكون إلا ما يشاء عمل

علي هذا وهو مسوق لمحل الحكم عليه بالقتل أو
التغريب المأبد فصبر لحكم ربه عارفاً أنه بعينه وفوض
أمره إليه {فوقيه الله سيئات ما مكروا وحاق بهم ما
كانوا يستهزئون} قال رضي الله عنه.

*

قلت وسكوت أهل المحبة الخاصة من المقربين
لاضحلال رسومهم واصطلامهم عن أنفسهم وهذا لم
أتخيله عن عدم، قال في الرسالة وربما يكون
السكوت سبب حيرة البديهة فإنه إذا ورد كشف عن
وصف البغته خرس العبارات عند ذلك فلا بيان ولا
نطق وطمست الشواهد هنالك فلا علم ولا حس قال
الله تعالى {يوم يجمع الله الرسل فيقول ما ذا أجبتم
قالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا} وقد استقرأته من أحوال
{شيخنا رضي الله عنه} فقد يكون كثيراً من أوقاته
كائناً مع الخلق بائناً عنهم يقيم عباداته ويتصرف في
قليل من عاداته **الأئمة** إليها وإذا تأملته تجده رزينا رفيقا
لا يتأثر بمؤثر ما من مغيرات الطبع من الملائم
والمصادم إذا سار يسير خفيفاً وإذا [261] قرأ لا يكاد
يُرى من دلائلها إلا حركة الشفتين وإذا صلى يخفض
صوته وأكثر ما يكون في **هذه** الحال منزوياً في زاوية
مظلمة من زوايا بيته لا تظهر عليه تلك السطوة من
الهيئة القمرية التي يكتسبها في أحيانه حتى لا يتجرأ
ملك ذو سلطان ولا ولي مقرب ولا خادم ملازم علي
مقابلته من غير ارتعاد أو مخاطبته من غير انخفاض ولا
يتهلل أيضاً ذلك التهليل النير والابتسام اللذيذ الذي لا
يتمالك معه أي إنسان أن يُشغف قلبه منه وتنقاد
عواطفه نحوه وتلك إحدى حالتي الجمال والجلال
المختلفين المتصرفين عليه من تصرف الخلاق العليم

فبهاتين الحالتين شاهدنا اندفاع الأعداء وانقماهم
وانجذاب الأولياء وانتفاعهم { قال الشيخ داود بن مآخلاً
رضي الله عنه } للولي نوران نور عطف ورحمة يجذب
به أهل العناية ونور قبض وعزة وقهر يدفع به أهل
البعد والغواية لأنه يتصفح بين دائرتي فضل وعدل فإذا
أقيم بالفضل جلب ونفع وإذا أقيم بالعدل والعز حجب
ودفع ولذلك أقبل بعض وأدبر بعض فالتغيير بالفضل
والعدل تغيير بالأحوال التنزيلية والتغيير بالجلال
والجمال تغيير بالنعوت المعنوية من أسمائه تعالي أما
حال السكوت الذي هو اصطلام فقد يغشاه في بعض
الأحيان ولا نعرفه إلا بهذه الصفة التي ذكرت وتُعقبها]
[262] إحدى الحالتين المذكورتين لما اقتضته صروف
عوامل الكون والفساد بتدبير من هو كل يوم هو في
شأن علي أنه لا يكذب أن يقال عنه إن دهره كله في
سكوت إلا في الذكر والشكر وما يتوسل به إليهما أو
يثول إليهما من الوعظ والتعليم والنصيحة وما لا بد منه
من المباح الصالح لها والعادات المرَكبة عليها العبادات
كان رضي الله عنه لا يُفليت لسانه في الفضول فضلاً
عن غيره وكان صمته فكراً كثيراً ما تسمعه يُهمهم
بصدره أو تصدر منه أنه فيعقبها بالتهليل والتقدیس
من استيلاء سلطان عظمة القدرة عليه إثر تفكره إن
كان في **ملاً** بذكر العجائب والغرائب في الأمر الذي
كان يتفكر فيه أو بغرور الدنيا لمن تذكر من أرباب
دول بنيتها وكان رضي الله عنه لا يتكلم إلا في نفسه
من الأذكار إذا كان في الحاضرين معنى يجعل الكلام
عديم جدوى من عدم تأهل السامع أو سوء استماع أو
قلة اهتمام بما يفيد وذلك هو المُعَبَّر عنه بالسكوت
ويكون أبداً في غير مجالس خلوته يلتحف بثوبه ويلفه
علي عمامته ويلويه علي لحيته حتى يسترسل علي

المنكب الأيسر ويجعل نظره إلي محل سجوده ونحو قدميه ويستغرق في التلاوة إن كان الموضوع طاهرا أو في الذكر والصلاة علي النبي صلي الله عليه وسلم لا ينبس بنت شفة كما إذا كان خارج داره وفي غير قومه [263] لأمر عارض مثل جمع الحكومة الناس أو الأعيان لأمر أو نحوه أو في سفر في أول أمره قبل أن يبلغ الزحام عليه مبلغه في الشطر الأخير من عمره حتى اضطره ذلك إلي لزوم السكون واضطرت الحكومة إلي مطالبته خوف اختلال النظم وإن أمنوا شره وانتقامه وذلك فضل الله يختص به من يشاء وإلا فهو في داره بين المصحف ولوح الكتابة في خدمة رسول الله صلي الله عليه وسلم ومع قومه في الإرشاد والتهديب والإسعاف والإنفاق والتذكير والاستغراق في التَّوَعُّظِ والوعظ وذكر الآلاء والورع الشامل لجميع الأعضاء والحال أن سُكوتَه وصمته رضي الله تعالى عنه عما لا يعني فقد فات فيه غيره كما بذهم في الاستهتار في الذكر والتذكير وليُعَلِّمَ أن الصمت الممدوح عند القوم في الأحاديث الواردة في فضله إنما هو فرض عن المحظورات وفضل في الفضول وكل ما لا يعني فالاستقامة هي الثبوت علي أوسطه فرضا وفضلا بحيث لا يكون له أدنى ملابسة بما لا يعني والاستغراق في الذكر القلبي واللساني لحد الاستهتار والتفريد كما في {حديث مسلم} المتقدم ذكره سبق المفردون إلخ لأن الأمر بالشيء قد يكون نهيا عن ضده كما تقرر في أصول الفقه وإلا فالصمت من غير ذكر أو فكر هو إلي الغفلة أقرب وبالعيِّ أشبه فصبر {شيخنا رضي الله عنه} [264] عما لا فائدة فيه بلسانه وصبره علي ما يُرغب فيه به بالغ النهاية كنت أنظر يوما {نيل الابتهاج للتبكتي ذيل

{الديباج} لابن فرحون حتى وقفت علي ترجمة الشيخ
{محمد بن أبي جمرة} يذكر فيه أنه قال إنه بحمد الله
تعالى لم تقع منه معصية قط فجعلت أتعجب من هذا
التوفيق لهذا الإمام وحق له التعجب في حق مثلي
وكان معي في المجلس {محمد بن أحمد تياه} فقال
لي كيف قال {الشيخ رضي الله عنه} في إحدى
قصائده الشكرية أليس قال {لم أنح ما لم يفد} هذا
أعلي مقاما بكثير قاله بديهة ففهمت بعد غور الغلام
وعلو نظره في دقائق المعاني لأحوال القوم وكان هذا
الغلام مِحْمَدٌ من بني ديمان وكان ناشئا علي التقوى
والاستقامة تربي علي يد {شيخنا رضي الله عنه}
حَسَنَ الدين محافظا علي الصلوات مواظبا عليها في
الجماعة حفظت عنه سنين مع {شيخنا رضي الله
عنه} لا يصلي إلا خلفه ما لم يكن له عذر مع بُعد
منزله من المسجد وكثرة خدمته من كتب المصاحف
والنظر الدائم في العلم والقيام في مصالح أقاربه
الغرباء في البلد وما أكثر ما قرعت باب زاويتهم في
أوقات الليل المختلفة فأجده قائما يصلي وقد هجع
الناس وكان معه في ذلك الموضع غلمان ليسوا بدون
منه في القيام بواجبات الدين ومندوباته حتى امتازوا
بذلك عن أقرانهم المجتهدين وهم [265] {محمد
الأمين جوب} أمين بعض الأسرار بعد {ومحمد البشير
ابن جَاخُ سَيْسَ} من أهل اندر {وَمَفَاتِمُ لُوا} ابن
المُدَّرِس الكبير {لِي لُوا} وقد بلغ تمييزهم عن
الجماعة أن قال فيهم العالم المتفنن المدقق {عبد
القار الكميلي}.

*

وقد قلت أنا قبل أبياتا في تحية أرسلتها إليهم لأنني
كنت منقطعا إليهم لشغفي بسيرتهم وإن تباعدت
الأحوال وتباينت الأوصاف
وقد توفوا ثلاثتهم أعني البشير ومحمد ومفاتيح في أيام
{الشيخ رضي الله عنه} شهداء من الطاعون الذي
وقع في تلك الأيام لا أوقعه الله بعدُ ويُجيرنا من جميع
البلايا والمصائب وقلت في مرثيتهم قصيدة مطلعها.

*

وكانوا والله فتية صدق أشبه شيء بفتية الكهف عليهم
[266] رضوان الله تعالى {إنهم فتية آمنوا بربهم
وزدناهم هدى وربطنا علي قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا
رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا
إذا شططنا {كانوا أمثال حق وصورة قائمة من نماذج
تربية {شيخنا رضي الله عنه} تربيتهم الخدمة للقرآن
كتابة وتلاوة وراحتهم التذاكر والتواجد بأشعاره رضي
الله تعالى عنه النبوية ثم تربيتهم بإشاراته وتذكيره
وَيُبَصِّرُهُمْ بتلويحات ورقائق حاله {فتبارك الله أحسن
الخالقين} سهراً دائم وعزلة مستمرة وخلوة خالية عن
غير الذكر وجلوة تجلو عن القلوب الصدا والغفلات
ترؤوهم بأداء لوازم شكر ربهم من تجدد آلائه تعالى
علي يد مربيههم الكامل رضي الله عنه وعنا به وعنهم
وعن أضرابهم خَلْقًا وسلفا وأعاد بركته علينا وعلي
الخلق أجمع فلا علي الكاتب البليغ أن يكل عن عُشر
عُشر معشار أوصاف مَنْ مِنْ بعض آثاره أمثال هؤلاء
في كل قطر وفي كل جيل من لدن قيامه بالتربية
وستبقى بركته سارية في سعداء الأجيال إلي آخر
الدهر إن شاء الله وإني أرجو لطائفته أن تكون من
الطائفة الظاهرة علي الحق من أمته صلي الله عليه

وسلم كما في الحديث { لا تزال طائفة من أمتي
ظاهرين علي الحق حتى تقوم الساعة أو كما قال فإنه
[267] قال رضي الله عنه عن إذن ربه تبارك وتعالى.

*

وما هي إلا استمرار آثاره الصالحة من التربية الدينية
والنعم السابغة من بركات الإسلام فالحمد لله تعالى
قد ظهر لنا من بركته أنه ما من طائفة من طوائف
الإسلام ولا حزب يسر الله تعالى عليهم أعمال البر
وسُبِّلَ الخيرات بأكثر مما قدره تعالى لمريديه ولا دليلَ
أدل علي السعادة من هذا التيسير {فأما من أعطى
واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى} فالحمد
لله ثم الحمد لله تبارك وتعالى حمدا يُؤَافِي نعمه
ويكافئ مزيدَه لا نحصي ثناء عليك رب أنت كما أثنيت
علي نفسك.

{ فصل في صبره علي الجوع رضي الله عنه }

أما صبره رضي الله عنه علي الجوع فإنه صبر عليه
بقسميه صبر عليه بلا كسب وعن عَوَزٍ وإجمال فيه
حتى يفتح الله بشيء وهذا في الصِّبَا وفي الغربية قبل
الفتح وصبر عليه [268] متعمدا وعن ظهر غنى
والضيف والزوار شيع والعيال مبسوط عليه وجفان
كالجوابي تتفيهق وقدور راسيات وهذا القسم أكثر منه
مع سعة ذات يده ودُّرُورِ الأرزاق واسترسال الأقوات
إليه علي الرءوس والحمير وعلي الجمال الوئيدة
والسفن المواخر من السهول والجبال والبحور والأنهار
وفي كل له **إسوة** حسنة بمخدومه صلي الله عليه
وسلم ففي حديث عائشة رضي الله عنها إن كنا لننظر

إلي الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين
وما أوقدت في أبيات رسول الله صلي الله عليه
وسلم نار فقيل لها ما كان عيشكم قالت الأسودان
التمر والماء إلا أنه قد كان لرسول الله صلي الله عليه
وسلم جيران من الأنصار كانت لهم منائح وكانوا
يمنحون رسول الله صلي الله عليه وسلم من ألبانهم
فيسقينا وعرفت من هذا الحديث أن العيش بهما في
المدينة ضيق بالنسبة إلي من يعيش باللبن والخبز
واللحم لأن سعة المعيش وضيقها أمر نسبي {وحدث
فاطمة رضي الله عنها} أنها جاءت بخبز لرسول الله
صلي الله عليه وسلم فقال لها ما هذه الكسرة يا
فاطمة قالت قِرْصًا خبزته لم تطب نفسي حتى أتيتك
بهذه الكسرة قال {أما إنه أول طعام دخل فم أبيك
منذ ثلاثة أيام} وحدث خروجه صلي الله عليه وسلم
ورأى أبا بكر وعمر [269] ولفظ ما في مسلم عن أبي
هريرة رضي الله عنه قال خرج رسول الله صلي الله
عليه وسلم فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال ما أخرجكما
من بيوتكما هذه الساعة قالا الجوع فقال والذي نفسي
بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوموا فقاموا معه فأتى
رجلا من الأنصار فإذا هو ليس في بيته فلما رآته
المرأة قالت مرحبا وأهلا فقال رسول الله صلي الله
عليه وسلم أين فلان قالت ذهب يستعذب لنا من الماء
إذ جاء الأنصاري فنظر إلي رسول الله صلي الله عليه
وسلم وصاحبه ثم قال الحمد لله ما أخذ اليوم أكرم
أضيافا مني قال فانطلق فجاءهم **بعذق** فيه بُسْرُ وتمر
وُرْطب فقال كلوا من هذه وأخذ المُدِّيَّة فقال له
رسول الله صلي الله تعالى عليه وسلم إياك والخلوب
فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا
فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله صلي الله عليه

وسلم لأبي بكر وعمر والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم ففي هذه الأحاديث من الصحيحين وغيرهما ما يجعل الجوع شعار الأنبياء والصالحين وإذا كان ذلك كذلك فإن الجوع الممدوح ما كان لله تعالى وأشرفه ما كان عن ظهر غِنَى كجوعه صلي الله عليه وسلم وجوع آلِه وصحابه والأموال [270] تدفق إلي بيوت أصحابه والفتوحات متواصلة وكنوز كسري وقيصر وملوك كندة وأقيال حضر موت مبعثرة منفقة في الفقراء والمساكين وذوي الحاجات جوعٌ شريف وفقر كريم ومسكنة في عز وضعف في قوة وفقر في غنى أجلى مظاهرها ما كان من حال {شيخنا رضي الله عنه} يطوي الليالي والأيام لا يذوق من الطعام إلا ما يقيم الصلب ولا من الماء إلا ما يبل الصدى شبعان من مشتتهيات المحبة وريان من كئوس المعرفة كان رضي الله تعالى عنه لا يجمع بين إدامين مثل اللبن والسكر ومثل الأرز والفواكه ومثل الكسكس والحليب إن كان عليه غيره في أيام الرياضة.

حكى علي الأخ العلامة {عبد القادر الكمليلي} رحمه الله من جملة ما حكى علي مما دار من الحديث بينه وبين الشيخ {باب بن حمد} في أمر {شيخنا رضي الله عنه} أنه ناوله في ضيافته له لنا ممزوجا بالسكر قال فآبي {شيخنا رضي الله عنه} أن يشربه لحلاوته قال فعزمت عليه أن يشربه فشربه قال فقلت له لأي شيء أبي السكر في اللبن قال لرياضة نفسه ومخالفة هواه قال فقلت لم تعزم عليه وغرضه صحيح في **إبائته** فقال تلك المرة الواحدة لا تفسد عليه شيئاً.

قلت وللطيفة طعام الكرام عموما وفي الضيافة خصوصا مرغوب في الاستكثار منه كما وقع [271] للشافعي مع مضيفه وفيه تطيب خواطر الصالحين وكان تورعه فائق الحد لا من مال الغير وأموال أهل الجور وتجار الربى فحسب بل مما يحيك في الصدر من مصادر أموال كسب قومه ومريديه كانت تأتيه من الهدايا ألوف مألوفة من الفضة والذهب ومئات الأحمال علي قطار الإبل وأحمال السفن من الأقوات المتنوعة دخنا وأرزا وخبزا وسكرا وتمرًا وزيبا ويتلقى أصحابه بالتهلل والفرح والقبول الحسن وهو في داخل الدار يجعله جانبا لا يتناول منه شيئا في خاصة نفسه بل يصرف الكل في مصارفه التي رغبه فيها الكتاب والسنة وعيبتها له الإلهام والكشف الصحيح فتجده يعتني بهدية قليلة ودريهمات معدودة لطيب عرفه فيها ونصح علمه في المهدي وخلص في نيته وتحرر وهكذا عادة الصالحين ومع هذا لا يتناول منه إلا قليلا كان كثيرا ما يخصني بفضله وكنت أرى أثر أصابعه في جانب الإناء فأتمازى هل نقص منه شيئا كأثر صبي لا تحمل أصابعه إلا ما يتعلق بها من بلل الطعام ويمكن أياما يقتصر علي لون واحد غير شهى يفطر عليه وما هو إلا **تجله** قسم ولعل أكثر ذلك لا عن ضرورة لانقماع نفسه وهواه فضلا عن شهوة ولكن لاستقامته علي سنة مخدومه المصطفى صلي الله عليه وسلم فإنه لم يبلغنا أنه صلي الله عليه وسلم [272] كان ينقطع عن الطعام فوق العادة إلا في أيام مثل وصاله الذي نهى عنه الصحابة شفقة وتنكيله بهم حين أرادوا ذلك لحرصهم علي اقتفائه فأعذرهم حين قال صلي الله عليه وسلم {أبيت وأظل يطعمني ربي ويسقيني} فكذلك {شيخنا} لم يعمل فيما علمت بذلك من الغلو

ولم يشبع قط ولم يطع شهوة يعرف ذلك من مارسه
ويعلم أن ما يتناول في اليوم أو بعد أيام ما هو إلا تقيد
سياسة السنة دون هواه في لذات الرياضة لأن للهوى
دَحْلا في كل حركة من حركات العبد حتى في رياضته
ومخالفة هواه أما رأيت بعضهم حين التذ بالتجرد وأراد
الاختصاص والبعد عن ملاذ الدنيا جمعاء كيف نهاه صلي
الله تعالى عليه وسلم وقال للرهط الذين أتوا إلي
بيوت نساءه صلي الله عليه وسلم يسألون عن عبادته
وكانهم تقالُّوها وقالوا أين نحن منه صلي الله عليه
وسلم فقال أحدهم للآخر أما أنا فأصلي الليل أبدا
وقال الآخر إني أصوم الدهر ولا أفطر وقال الآخر إني
أعزل النساء فلا أتزوج أبدا فقال صلي الله عليه
وسلم أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم
لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن
رغب عن سنتي فليس مني { وتحرَّجُ { شيخنا رضي
الله عنه { عن الجمع بين إدامين معروف من حال
الصالحين قال { حذيفة بن اليمان { [273] لعمر بن
الخطاب رضي الله عنهما وقد سأله عمر هل رأى فيه
خصلة من خصال النفاق فيقول لا إلا واحدة فقال وما
هي قال رأيتك جمعت بين إدامين علي مائدة ملح
وزيت وكنا نعدُّ هذا نفاقا فقال عمر علي لله أن لا
أجمع بينهما وقال { القسطلاني { عند الكلام علي
إحدى تراجم { البخاري { عند قوله وأن لا يجمع بين
إدامين وهذا إنما هو لطلب المعالي والزهد والتقلل
وإلا فلا خلاف أن الجمع بينهما مباح بشرطه وعادة
{ شيخنا رضي الله عنه { كالسلف الصالح التقشف في
المعاش وعدم التكاثر من المباح فكما أن اتباعها
مذموم في اللذات العادية مذموم أيضا في اللذات
الرَّوْحَانِيَّة بل المطلوب من العبد الاستقامة والاقتصاد

كما في حديث { من أوتي ثلاثا فقد أوتي نعم آل داود

إلي أن قال الاقتصاد في الفقر والغنى إلخ { فإذا
تتبعت سيرة {شيخنا رضي الله عنه} تجده مستقيماً
علي ما سنه المخدوم صلي الله عليه وسلم في كل
شيء وكل أمر من أموره وهذا مما تميز به عن
سواه من أهل الكمال فإنه مسخّر نفسه وهواه ودينه
لاتباع رسول الله صلي الله عليه وسلم متوّجّياً موقع
رضى الرب جل وعز ومثل ذلك تهذيبه لقومه وحثهم
علي كسب الحلال فإن كسب الحلال عند القوم جهاد
قال في القوت زكاة الأعمال بأكل الحلال فكلما كانت
الطعمة أحل كان [274] العمل أزكى لأن العمل نتيجة
اللحمة وقال تعالي {كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً}
فأمر بأكل الحلال قبل العمل الصالح وقال {سهل بن
عبد الله} لا يبلغ حقيقة الإيمان حتى يأكل الحلال
بالورع وفي {القوت عن الفضيل بن عياض} لم ينبل
من نبل بالحج ولا بالجهاد ولا بالصوم ولا بالصلاة وإنما
ينبل عندنا من يعقل ما يدخل جوفه.
فإنه كان رضي الله عنه لا يعرف الشبع ولا يتناول إلا
بقدر الضرورة حتى أن أهل تربيته لا يكون أحد منهم
أكثر ملازمة له في الداخل إلا وترى أثر النحول ينحت
جسمه لتقيده بساعات تناوله وصنفة وأكثر ما يكون
ذلك في بدايته حثيثاً غير حلو وكان رضي الله عنه
أكثر سفره في الفلوات للسياحة لا يتزود إلا بقليل من
القديد والكسكس اليابس وكان كثير الصوم لا يفطر إلا
بقبصات يسيرة من مثل ما وصفت لك.
حكى عليّ أحد إخوة العالم الجليل الجبر النبيل أن
أخاه {الشيخ امبك بصر} هذا أخبره أن السبب في
نحوه ونحافته وكان نحيفا لا يأكل إلا قليلا وكذلك
شرابه أنه كان مع {شيخنا رضي الله عنه} في بعض
الأزمان ملازما له وهو فتى وشيخنا رضي الله عنه { إذ

ذاك في تأليف منظومته {مسالك الجنان} قال العالم امبك وكان {الشيخ رضي الله عنه} لا يقبل لي مفارقتة في موضع عزلته وكان شرابنا في كل يوم أقل من [275] ملء يدين متوسطتين وأكلنا قبضة من كسكس يابس قال فمكثت معه علي هذه الحالة مدة غير قصيرة ثم أطلقني فما جاوزت بعد ذلك الحد الذي ألفته إلا وأزعجني المطعوم فاقتصرت علي نحوه فذبل بذلك لحمي ونحفت إلي اليوم جزاه الله خيرا. قلت وكان هذا العلامة بعد ذلك نحيفا زاد نحافته تقواه وحيأؤه وورعه وانكبابه في العلم وإتقانه فما لقيت من العلماء والنسك من رؤساء العلماء والطرق الصوفية أحسن منه سَمَمًا ولا أقوم طريقة ولا أسلم عقيدة ولا أسد سلوكا ولا أمثل حالا ولا أعن للعلم ولا أبعد عورا فيه ولا أحسن ديانة فيما علمت منه ولقد صدق حبيبه {الحاج مالك سه} شيخ التيجانية في **سِنَعَالٍ** إذ قال في حقه أن لو لم يكن له دليل علي كمال {شيخنا رضي الله عنه وعنا بجاهه} إلا صدق عقيدة امبك بص فيه وسلوكه علي يديه مع معرفته له لكفاه حجة فكيف لو علم هذا الإمام أن ما أعجبه من هذا الاستناد العلامة ما هو إلا أثر من آثار {شيخنا رضي الله عنه} ونفحة من نفحاته فكان حسنة من حسناته كما ورد أن عمر كان حسنة من حسنات أبي بكر رضي الله عنهما. وكان رضي الله عنه معاكسا لنفسه وقاهرا لها ثم صار مُمَلِّكا إياها.

كان في داره [276] في {انجاريم} معه مريدة تصنع له شرابا من زنجبيل مسكر بارد وترسله مع بعض المريدين إلي {شيخنا رضي الله تعالى عنه} وكان ربما يتناول منه شُرْبًا حتى مضى لهم علي ذلك زمن فأتى ذات يوم المريء بالشراب وصادف خروج {شيخنا

رضي الله عنه { إلي الناحية التي كنا فيها وراء الدار
فلما أدخل الكُوْرَ إليه أرسل إلي البئر ليؤتي بماد جديد
غير بارد جدا وأخذ شيئاً من الملح فأماته فيه فشرب
منه وأهدى لنا الشراب الزنجبيلي وقال لا ينبغي تعويد
النفس أمرا واحدا فإن الدهر خئون فبقي علي
الشراب الملح مدة ثم تركهما معا واقتصر علي ما
يسبق إليه كما هو السنة انظر هذا من عدم الاغترار
ظاهرا وباطنا فلم يزل والنفس تحت قهره يتجسس
عليها ويستعرضها ويُقرعُها أن تتطلع إلي استلذاذ
واستكراه {ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون}
ومثله استخفافه بالدنيا واستهزاؤه بزخرفها فهو يبدل
بالحلو المرَّ وقد أتته الدنيا راغمة فلا يشك شك أن لو
قدر إنسان في إقبال الدنيا إليه نحو النصف منه
وعاش مائة سنة لأمكنه في كل يوم أن يُروي مآت من
ذلك الشراب الحلو صباحا ومساء مدة عمره ولكنه
رضي الله عنه لا يأمن الدنيا وقد وقف علي غرورها
فكان رضي الله عنه لا يتناول إلا من صوالح مباحاتها
إلا من يد الوَهَّاب القديم لا من [277] شُبَّها ولا يلتذ
من طعمها إلا عن شكر خالقها وسائقها إليه وقد
كشفت عن هذا المعنى بأبلغ منه حيث قال رضي الله
عنه.

*

*

*

*

*

إلي أن قال.

*

انظر كيف ينصحنا رضي الله عنه بالتنبيه أن الفتح ينبغي أن لا يُطالب إلا بالكد من الامتثال والاجتناب وأن الرضى ثمرة الأعمال وإن كان الكل بتوفيق الله تبارك وتعالى.

{ فصل في صبره علي السهر رضي الله عنه }

أما سهره رضي الله عنه فأعجب من غيره من جميع الأوصاف فإنه لم يُعرف له مَهْدٌ للنوم أو غرفة للمبيت أكثر ما حفظت عنه **عَقِيَاتٌ** [278] بعد صلاة العشاء قبل أن ينام الناس متكئاً بعض الاتكاء في بعض تعاليمه وأنسه بذكر الآلاء والتوعُّظ والانبساط لحكايات بعض ممارِّه من الغربة وتقلبات الدهر وتخلله تلك السَّكَّاتُ التي بين النائم واليقظان ولا تدوم الحال إلا ساعة أو ساعتين ثم يقوم في تفقد الناس والضيوف ولوازم حقوقهم وإذا فرغ من ذلك يقوم لصلاته وتلاوته والتلاوة أكثر أعماله الليلية والكتابة في العشرين

الأخيرة من عمره ونيف أما في زمن البداية والرياضة فلم أعقلها وأخبرت أنه كان من أكثرها الصلاة والأذكار الماثورة وما أظن أنه يجاوز سنة القيام الثابتة في الصحيحين في آخر عمره وهي التي عَيَّنَ وردا لملتزمي ورده لأنه جعل علي الحافظ أن يصلي كل ليلة بحزبين ونصف مع الوتر وذلك في تقدير ربع لكل ركعة وبها العمل في البلد والوتر بوحدة أو ثلاث فتكون اثنا عشر ركعة أو **ثلاث عشر** وصحاً في الحديث.

وله قومة بين المغرب والعشاء وقد تكون ركعتين بالزهاوين البقرة وآل عمران وكان سهره عجباً كثيراً ما يرسل إلينا في جوف الليل وإلي غيرنا وإذا أتاه المنادى عليه مسحة النوم يقول سبحان من لا تأخذه سنة ولا نوم يُعذر في أن عدم النوم لله تعالى ومن رزقه له لا باكتساب العبد وقدرته وقل أن تنتبه في ساعة من ساعات الليل ورميت الطرف إلي ظاهر داره إلا ورأيت [279] نور مصباح يتلأل في خلال البيوت وهو عنده وفي يده وقل أن تُغيره سمعا إلا وسمعت قراءته وقد يخرج إلي محلات القرية وأفنية القصر الذي لا يمكنه إذا لم يهجع الناس أن يبرز إليه لكثرة الزحام عليه لحرصهم علي التبرك به وحكوا عنه أنه كثيراً ما يروونه يخرج في جوف الليل لزيارة المقابر وبالجملة فأعماله في الليل كأعماله في النهار لا فترة فيها في جميع أنواع القربات وقد حكى علي أحد غلمانه الملازمين له وهو {محمد بن أحمد مخريج الجَلَمَغِيُّ} أنه أبطأ ذات ليلة خروجه لصلاة الصبح فأطال انتظاره أهل المسجد وهو الراتب فأرسلوه لينظره هل وقع به أمر أم لا لأنه رضي الله عنه لم يُعهد عنه في جميع عمره إلا الصلاة في المسجد العام

كما كررنا مرارا قال المرید فأتيته وألفيته في بيت عرفته بضوء المصباح وصریف القلم فلما اقتربت منه تنحنحت وسلمت عليه فقال هو فلان فقلت نعم فقال الصلاة قلت نعم فنهض مسرعا يقول استُغْرِقْتُ في مناجاتي والفريضة هي المرغوب فيها عن غيرها فرجعت ولم أخرج من الدار حتى سمعت تكبيره في المسجد فكان رضي الله عنه جميع دهره في صلاة بالمعنى الجامع ولا تغيبه لذة المناجات والاستغراق في الهيبة والإنس عن إقامة الفرائض وتقديمها علي غيرها وذلك من كمال حفظه [280] تعالي عليه حرکاته وسكناته في الأوامر وكماله رضي الله عنه في العبادة الحقة ووقعت له نحو هذه ذات ليلة بقرية انجاريم فلما أدى فريضته قرب الإسفار كتب ورقة يُبَيِّن سبب تأخيره إلي آخر الوقت الذي لا عن هوى ولا غفلة لكن لأمر رَبَّائِي وهو تعالي إذا تجلى لشيء خضع له وكان من عادته في قيام الليل الدوران في نواحي الدار النظيفة الْمُعَدَّة لذلك يتلو القرآن ولا يترك محلة في داره إلا ويقوم فيها بالتلاوة وكانت واسعة عمارتها القرآن وكان يجعلها قطعاً متجاورة في كل قطعة بيوت متقاربة وبينها طرق موسعة وعروشٌ ظليلة يملأها ويملا البيوت من المصاحف النفيسة ويعبدها بأقدامه المترددة تاليا عن ظهر قلب ويختص بتنظيفها وتَهْيَاة المَطَاهِر وإحضار الماء للقدور المتدفقة عشرات من الرجال ولا تعثر علي قاذورة ولا دنس في ساحتها وقلما يلبس النعال في داخلها تعظيماً لكتاب الله.

ذكر لي {مجنب سبيل} أحد غلمانه المتربين تحت كنفه إلي أن كبر وصار من رؤساء القراء أنه رضي الله عنه رَبَّبَ من أول أمره جماعة من الحفاظ ليتلوا القرآن

كل يوم أربع مرات ختمة عند الطلوع وفي الضحى وبعد الظهر وبعد صلاة العصر ولا خدمة لهم إلا به وهو تربيتهم ثم كَتَبُ المصاحف [281] بالاشتراك ولكل بانفراد وسيأتي في كيفية قيامه بالقرآن إن شاء الله تعالى، قال الغلام أنه حضر يوما أتى {شَيْخَنَا أَخُوهُ مُحَمَّدَ جَارِهِ} ضيفا وأنزله شيخنا رضي الله عنه منزلا بناه لأجله نفيسا وقال له اعلم أني ما أنزلتك هذا المنزلَ إلا لكون داري هذه علي سعتها وكثرة بيوتها وفيها خمسون بيتا ونحوها من بيوت سِنَّكَ غير العروش التي تقوم مقام دار كاملة كلها للقرآن وقد قال رضي الله عنه.

*

أما الفُرْشُ الوثيرة النفيسة التي كل واحد منها قيمته مئات إلي ما قيمته عشر أو عشرات كلها مهدت للقرآن أعني المصاحف والساحات نظيفة للترداد فيها بالتلاوة وقلما يدخل بيتا إلا ويصلي فيه ركعتان ولا يبني بناءً جديدا فيها إلا ويأمر أهل المصحف أن يقرءوا فيه عددا كبيرا من الختمات ليلا وأو نهارا وقل أن تَمُرَّ ليلة ولم يُقلب شيئا من الدار ويبني بناء جديدا طول مكثه في الدهر ويكون هو بجانب الخدام يتلوا ويُنفقُ عليهم من الأطعمة الطيبة وسِقاية الشاه والقهوة التي تنصب لها وحدها قُدُورُ راسيات فضلا [282] عن الطعام المبتوث الذي يحمله المريدون المجاورون له بكثرة زائدة ولا تظن أن هذا عيد يوم أو حادثة شهر بل علي الدوام في العشرات الأخيرة من عمره التي لامته فيها والخدمة أصناف الحفاظ لابد لهم من ختمة فما فوق إلي ست إلي اثني عشر والمنشدون لقصائد مدحه لرسول الله صلي الله عليه وسلم وشكره تعالى عليه

وعلي منه السابعة قائمون بألحان تجذب القلوب
وتُذرف الدموع رقة وجلالا وذوو الهيئات من العلماء
وشيوخ المروءة بمجلسه يعظمهم ويُذكِّرهم ببشارات
سعة رحمة الله تعالى وكثرة آلائه عليه وعليهم وطورا
بتعظيم جلاله وهيبه سطوته تعالى فيبيتون علي ذلك
قياما وقياما وعلي جنوبهم كل في ذكر ربه إما بقلبه
ولسانه وإما بقلبه وقد يصرفهم في بعض الليل وينفرد
بمناجاته وصلاته وتلاوته وقد يبيتون علي ذلك وهو
يعتزلهم في أماكن الدار المتعددة في أشغاله الربانية
يطلع عليهم أحيانا ثم يغيب يُنشِطهم فيما هم فيه من
الأعمال المتعددة وكلها في وجه الله تعالى إما بالذات
كالقربات وإما بالعَرَضِ كالخدم المتفرقة التي هي في
الحقيقة تمهيد للعبادة والتعبد وتهيئة لأسبابها وبالجملة
فليله نهارٌ ونهاره نور ما للأغيار في زمنه نصيب إنما
هو لربه تبارك وتعالى ولا تظن أن قيامه في الليل [283]
قيام المعتزل في صومعته ولا قيام المتجرد في
مسجده لأن كلا من ذين هارب بنفسه وفار إلي ربه
بِخَوْبِصَتِهِ فأكرم بهما حالا غير أن الأكمل من نجَّ نفسه
ونجَّ غيره ويفر إلي ربه ويسوق إليه عباده وهو حال
الرسول من الأنبياء وكَمَّلَ أكابر الصِدِّيقين من الأمة
المحمدية كان {عمر بن الخطاب رضي الله عنه}
يحمل دِرَّتَه ويطوف في الليل كالعَسَسِ {فشيخنا
رضي الله عنه} يتجافى عن المضاجع جنبه تجافى
متمكن منها ومستول علي نفائسها ناعم البال لا
يزعجه خوف فائت ولا تمنى غائب إنما يُؤرِّقه اشتداد
الشوق لمولاه ويستحثه الخوف والطمع لدوام
مشاهدته وعلو معرفته علي قدم مخدومه القائل {إني
لأعلمكم بالله وأشدكم منه خشية} ويحمله علي
الإنفاق **أنسه** بالله ورأفته بعباده بله ثقته بوعدده تعالى

ورغبتَه فيما عنده وزهده في ما في يد غيره فهو الذي
تشخَّصَ في ذاته ذلك المحمدي الكامل من
الموصوفين بآية السجدة { تتجافى جنوبهم عن
المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم
ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفيَ لهم من قرة أعين
جزاء بما كانوا يعملون } خُلِقَ رضي الله عنه لِيَسُوسَ
البريةَ بسياسة رسول ربهم صلي الله عليه وسلم
وسَخَّرَ له العوالمَ فطاوعته ووَصَّعَ له القبولَ بعد أن
تُودِيَ له بالحب في السماء قال صلي الله [284] عليه
وسلم { إذا أحب الله عبداً نادى جبريل فيقول له أنا
أحب فلانا فأجبه فيجبه جبريلُ فينادي في أهل السماء
إن الله أحب فلانا فأحبوه فيجبه أهل السماء فيؤضع له
القبولُ في الأرض } كما في الصحيح { فشيخنا رضي
الله عنه } من ذلك جَبَلَه الله علي المعرفة وقاده علي
الاستقامة فقلب إليه قلوبَ الخلق فانقذح في أفئدتهم
نورُ فضله فاستهدوا به وانقادوا إليه وهو يفر منهم إلي
الله تعالى وهم يفرون من أنفسهم إليه فآلهمه الله
القيادة إليه علي سنة نبيه صلي الله عليه وسلم ويسر
علي مرديه السلوكَ علي يديه فكان ناشئاً علي
التقوى والإحسان قائداً بهما لم ينسج علي منوال ولم
يفتقر ويتذلل لنوال إلا بما رسمه له أثر سيد الوجود
صلي الله عليه وسلم وأضائه له النور اللدنيُّ من
سابق عناية مولاه عز وجل وهو الفعال لما يريد
والمُختص برحمته من يشاء وهو الولي الحميد وهذا
أمر معلوم ببَدَائِهِ العقولِ لجميع ممارسه قال { ابن
عطاء الله } من أراد الله أن يكون داعياً من أوليائه فلا
بد من إظهاره للعباد إذ لا يكون الدعاة إلي الله إلا
كذلك ثم لا بد أن يكون الحق كسوة الجلال والبهاء أما
الجلال فليُعَظَمَه العباد فيقفون علي حد الأدب معه

ويضع له في قلوب العباد الهيبة ينصره بها لِيُعِيَنَّهُ علي
القيام له بالنصرة قال تعالى {الذين إن [285] مكناهم
في الأرض} وهي من إظهار إعزاز المؤمنين قال
تعالى {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين وهي جرت
إليهم من انبساط جاه المتبوع عليهم قال عليه الصلاة
والسلام {تُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ}.

حكى عليّ أحد المريدين أنه كان في اجتماعهم في
بيت المدير في {اندر} حين أرسل إلي مريديه بعد
تغريبه لِيَفْتِكَ بهم أنهم ما أخذوا في مجالسهم وتبوات
أعطاف المجلس كراسيهم في الديوان حتى غشبيهم
رُعبٌ شديدٌ تأثرت منه وجوههم فما لبث المدير أن
صرف المريدين بكل عجلة من غير أن يفوهوا بكلمة
أو يسألهم عن شيء بل دفعهم وشتهم وقال ابعدوا
عني وارجعوا إلي ما شئتم فليستم بشيء فتعجبوا من
هذه التدابير المتناقضة والآراء المتعاكسة وهذا التبرُّم
الشديد من أمر هو الجالب له فرجعوا إلي **مَحَالِهِمْ** بعد
أن ملئوا السهلاً والجبلَ بالوعيد والتهديد، وأخبر بعض
الحضور أنه رأى صورة {شيخنا رضي الله عنه} في
ثياب بيض يطوف بمريديه حين اجتمعوا في البيوت
مُكاشَفًا به ولم يشك أن الرعب العارض الذي غشبيهم
حتى أذهلهم عما كانوا ينوون إنما هو من تلك اللمة
المشرفة عليهم من سطوة نور دفعه الصمداني وهذا
شاهد حق علي ما قاله {ابن عطاء الله} إن تلك
العزة خِلْعَةٌ نبوية [286] تنبسط عليه من خلع هيبته
وهَبَّة من عواصف ريح نصره صلي الله عليه وسلم من
مسيرة شهر فإن مسافة {كونكوا} من {اندر} نحو
شهر للسفن المواخر.

وكان حب الخلق له رضي الله عنه فائت النعت بلغ
حبه فيهم أنه لا يجلس في محل من الفلاة أو يصلي

في بقعة سواء في القرى والأمصار أو في القفار في مماره إلا ويُعمَر دائماً ويُزَارُ للتبرك بأثاره ولا يخلع ثوبا أو يمس شيئاً إلا ويكون أعلى موجود عند من وقع في يده فضلا عن خطه وشعره فإنه خير مقتنى عند من يقع له وغير ذلك مما يؤخذ من أحوال الصحابة والسلف الصالح من التبرك بأثار الصالحين ولا يعارض حديث { لا تشد الرحال إلا إلي ثلاثة مساجد } لاستواء غيرها في الفضل وتفاوت الناس فيه كما قال الغزالي وقال { ابن حجر } في حديث الحديبية عند قول عُروة ابن مسعود إذ وفد عليه صلي الله عليه وسلم سفيرا من جموع قريش قال فوالله ما تنحَّم رسول الله صلي الله عليه وسلم نخامة إلا ووقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده وإذا أمر ابتدروا أمره وإذا توضع كادوا يقتتلون علي وضوءه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يُجِدُّون النظر تعظيما له قال صاحب الفتح فيه طهارة النخامة والشعر المنفصل والتبرك بفضلات الصالحين الطاهرة.

قلت ولا يعلم مقدار [287] شبه اليوم بالأمس إلا من رأى { شيخنا } مع مريديه الصادقين فوالله لا يتوضأ إلا وكادوا يقتتلون عليه حتى ثراه الذي بقي به بلل من ماء الوضوء ولا يعثر أحد علي نخامة أو عُسالة إناء أو ثوب إلا ويُعَدُّ ذلك من أسعد أيامه وما ذاك إلا من شعور حساس فيهم من غير تعلم أو اقتداء إنما هو عن وجدانهم لعظمة جناب الله تعالي المُشَاهِدِ في حاله ومعناه قال { السَّهْرَوَزْدِيُّ } في العوارف ما معناه أنه سقط ذات يوم ثوب خلعه عليه شيخه قال فوطئته بقدمي فارتعدت إذ علمت ارتعادا قام به شعري فحمدت الله علي هذا الوجدان، بمعناه فكذلك

{شيخنا} لم يُشير لمريديه إلي التبرك به وتعظيم حاله ولكن بهرهم نورٌ تحققه بالحقائق القدسية فهاموا به. حكى عليّ ثقة أنه كان أول من عمل بهذا معه {الشيخ إبراهيم فال} وحكاه لي {شيخنا رضي الله عنه} بعد أنه كان معه في سفر حتى نزلوا منزلاً يريد الصلاة في بعض أرباض {أمبك كجور} وشرع يتوضأ فجعل المريد يتعرض بيديه للماء الساقط من الأعضاء يشربه ويتدلك به قال {شيخنا رضي الله عنه} ومن العجائب أني ما رأيت قط من يفعل به هذا والمريد أيضاً لم ير بعينه ولا في الكتب من يفعله وكذلك خفصهم الصوت عنده وغيض الطرف بلا باعث إلا سلطان التقى مع أنه [288] أوسع الناس حلماً وأرفق صحبة وأكثر تواضعاً ما ذاك إلا انسحاب بركة المتبوع علي التابع وشروق نور الاقتداء انقده في أفئدة تابعيه فأسكرهم من خمر الحب والإجلال من عظمة قدر مخدمه صلي الله عليه وسلم ومقداره العظيم علي أنه رضي الله عنه كثيراً ما يأبى عليهم ذلك ويدافعهم ولكن هيهات أن يقلعوا عنه ما دام ينطق لهم حاله بحقائق العبودية في توفية حقوق العبودية وتتلاً جوانبه بلوائح جمال تهلله من باهر نور مشكاة خير البرية المنجذب من قوة حبه وصدق اقترابه منه صلي الله عليه وسلم قال.

*

*

وما قوله صلي الله عليه وسلم {خيركم الذين إذا رُؤوا ذكِرَ الله} إلا لمعنى قائم في نفوسهم من جانب المولى عز وجل وعظمته.

{ فصل في عزلته رضي الله عنه }

أما العزلة فهي مَيَّرَتَه الفاصلة كان رضي الله عنه
مجانبا [289] للاختلاط تورعا بقدر مجانته للشبهات
منفردا بهمته مستقلا بعبادته ليس باعتزال الشرس
عن إخوانه ولا الشكس مع أقاربه فإنه رضي الله عنه
كان أكثر الناس تفقدا لعياله وأقاربه وجيرانه من
المسلمين عموما وخصوصا لا يأكل وحده ولا يمنع
رفده معتزلا لعبادة ربه لا يداهن ولا يماري متحد
الوجهة والرغبة وهو وجه الله تبارك وتعالى حبا وبغضا
غضبا ورضى لا يطاوع إنسانا في صغير ولا كبير إلا إن
كان فيما يفيد دينا ولا يصانع عدوا أو صديقا قويا أو
ضعيفا في غير ما يرضى الرب جل وعز يشهد له بذلك
جميع معارفه الأصدقاء والأعداء عزلة في خلطة وخلوة
في جلوة فتوة في ظرافة وظرافة في فتوة لولا
الظرف والفتوة لما كان في جميع دهره أنفع موجود
لبنى زمنه وأية حق لمتبعي دينه كان هو المفزع
والمُشتكى في شدة الدهور وعند ضيق الصدور وكانت
فوائد يمينه تعم البداية والحاضرة وكان الربيع والغيث
المربيع لأملئ خيره بل لمجاوريه في الأقطار فضلا عما
يُغيث به المولى من دعائه وزائد بركته حتى أنه لم يقع
{ **سنغال** } مدة وجوده في أزمة شديدة بل ولا في
العالم كما وقع بعده كان الزحام بأبوابه بالليل والنهار
واققسام تحفه وبره أشهر من أن يُذكر وأجل وأكثر من
أن يُزبر قال شاعره { إبراهيم [290] جوب }.

وقال الشيخ سيدي.

*

*

*

إلي أن قال.

*

وبيت الشيخ الأخير هذا هو القول الفصل في أمر
{شيخنا رضي الله عنه} وعنا بجاهه فإن استقلاله
بالعبادة أفرده عن الأهل والخلان قال.

*

قال صلي الله عليه وسلم في الصحيح {لا يؤمن
أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس
أجمعين} وذلك حيث يذوق المرء حلاوة الإيمان فكيف
يعبر عن عزلة من لا يدخل في أمر دنيوي [291] إلا
لوازع ديني والمعتبر من العزلة عند الكمل الانسلاخ
من الكلية ومن سائر الكون لله تبارك وتعالى
باستخلاصه فيصير عبدا لله مخلصا فتحجبه الغيرة عن
الغير في حصن أمان {إن عبادي ليس لك عليهم
سلطان} ومن آيات ذلك فيه أنه كان لا يجالس الناس
إلا لمقتضيه ديانة أو طبعاً تُحيله النية دينا وهي إكسير
الأعمال {إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما

نوى} وقد كان رضي الله عنه في صباه كما كررنا
مرارا ينكمش عن الغلمان ويجانب مخالطتهم وكان
يؤثر الخلاء بلوحه أو مجالس الشيوخ حيث انتهى به
المجلس للاستفادة لأن مجلس الشيخ الوالد كان
موضع التعليم ولم يزل علي ذلك حتى كبر واستقل
بنفسه في دُوره فكانت الخلوة مأواه في كل دار ولا
أريد بالخلوة ذلك البيت المظلم الذي تُسدُّ منافذه
وتُغلق أبوابه ولكن معناه الأعم أو الأخص إن شئت
يُخلي نفسه عن كل ما لا يعني ويُعوِّد مُجاورَه أن لا
يدخل إلا لمهم يحسم مادة الغفول والفضول عن
مجلسه بالاشتغال بما يعنيه وصرف كل من يريد غير
ذلك وحتى صار يستوحش به من كان يأمل التأنس.
فقد أتينا ذات يوم ومعنا {الشيخ بلّ فال} وحينئذ
كانت قريته {انجربل} طافحة بالسكان ممتلئة
بالضيوف مزدحمة بأنواع الحركات والاختلافات حتى
الجاه ذلك إلي اتخاذ الكوى [292] النافذات للقاء
الناس وإلا فيتساقطون عليه كالقراش المبتوث
ويُخشى منهم العطبُ إلا أن يحجز بينهم وبينه حاجز
حديد فمن ذلك أداروا حول داره حوائط من سينك فإننا
أتينا زوارا للاتعاض والتماس البركة فبادرنا بالسؤال
كيف حال الناس؟ وهل ما زالوا علي ما كانوا عليه من
الكثرة والتموج؛ فقلنا له الحال أعظم فقال هم في
واد وأنا في واد كأني وسط خلاء وفي خلوة خالية لا
أحس بشيء ولا أهتم لأمر إلا ما بيني وبين ربي وعلي
كل حال فلا يبقى شك لمن له أدنى معرفة بأحواله أنه
قائم بمعاني الصبر الأربعة كما قال {الراغب} أنه
تختلف معانيه لاختلاف متعلقاته فإن كان علي مصيبة
سُمِّي صبرا فقط وإن كان في لقاء عدو سمي شجاعة
وإن كان عن كلام سمي كتماناً وإن كان عن تعاطي ما

نهى عنه سمي عفة ولقد مر بك شهود عدل مما مر
إن لم تكن ممن لقيه وخالطه كثيرا وإلا فما نقلت لك
في هذه الورقات أقل قليل من كثير مما عرفت مما
كان عليه من الصبر في المصائب ولقاء الأعداء
والانفراد بهم وما كان عليه من الصبر عن المناهي من
الورع الذي يُضرب به المثل من صغره وفي فقره
وغناه وفي إقامته وسفره أما كتمانته فشهادة واحدة
وما أنبلها من شاهد وهي أن الناس علي اختلاف
أغراضهم وكثرتهم الزائدة وتتابع [293] وفودهم وتباين
منازعتهم من أصغرهم إلي أكبرهم وأضعفهم إلي
أقواهم الأعداء والأصدقاء رجالا ونساء ما أطلع أحدا
منهم قط علي سر صاحبه من عنده ولقد أكسبته تلك
المزية أن لم يكتم عنه صاحب سر سرا مما سر أو
أساء ثقة بنصيحته واعتمادا علي أمانته.
حكى علي أنه كان في الجزيرة موضع أمانة أهل
الحكومة لأسرارهم وودائعهم وهو الممحون إذ ذاك من
بينهم ولقد أدركت وما تخفي أهل حكومة انجربل عنه
شيئا مما يجري بينهم وبين الحاكم الكبير **لمسمح** عنده
أن يطلعوه علي شيء من ذلك حتى أن ذلك العدو
اللدود حاكم {كابون} أراد أن يسافر مرة وأوصى إليه
بتفقد حال عياله وزوجته وأمرها أن لا تخالف نصيحة
منه أو أمرا من عنده فكان {شيخنا} رضي الله عنه
من وفائه مع الصديق والعدو كلما أتته المرأة يخاطبها
من وراء حجاب ويقول لها إياك وارتكاب شيء مما
كنت تتركينه بحضرة زوجك إياك أن تخونيه في أمر
من الأمور ثم يرمي إليها بما حضره من بعض حوائجها
وقس علي هذه الأمانة غيرها فما منزلته مع الصديق
وما وفاؤه معه إذا كان مع العدو هكذا ومن أحسن
صبره صبره عن الانتقام لنفسه إلا أن تنتهك حرمة

الإسلام كان يُؤدّب غلمانه إذا سرقوا أو أفسدوا له [294] ما لا ثم يُستوّقهم ما تلف وقد يرُدُّ إليهم ما أخذ منهم من ذلك المال المسروق وقد لا إلا أنه لا يملكه بل يدفعه لمحتاج صادف فظهر أن النزاع والانتقام خوف انتهاك حرمة الإسلام فقط لا غير أسوة لمخدومه صلي الله عليه وسلم قالت الصّديقة {عائشة رضي الله تعالى عنها} ما انتقم رسولُ الله صلي الله تعالى عليه وسلم لنفسه في شيء يؤتى إليه حتى يُنتهك من حرّات الله فينتقم لله كما للبخاري.

وكان رضي الله عنه يكتسي في بعض الأحيان بهيبة عظيمة يفرّق منه المرید بمجرد وقوع نظره عليه لما يلوح عليه من أنوار تجلي الجلال ولم يكن من عاداته الطرد والإهانة وأغناه عنه مفهومٌ حاله من الجد والتشمير وما هو عليه من تقويم مرّديه وتهذيبهم وإشغالهم بذكر الله تعالى وما يتول للمصلحة الدينية حتى لا تبقى مندوحة لمرید اللهو ومعتاد اللعب يقتحم منها إليه كان رضي الله عنه يومه ساعات موزعة بعضها في مصالح الناس والأهل والعيال كما أمرته السنة وبعضها فيما بينه وبين ربه ليس لأحد قريباً أو أجنبياً فيه شركة ولا يجابي فيه.

ومن عجيب عزلته كونُ الناس كلهم غرباء معه حتى الأهل والولد لا يمكن لأحد مقابله إلا لمهم في نفسك فتطلب مقابله عن لسان [295] أحد الخدام وإذا أذن فليس لك أكثر مما أهمك بكل حشمة ووقار أو يرسل إليك ابتداء فتقابه كذلك ويصرفك عند انتهاء الغرض الأهم ولو أنك من أحب الخلق إليه لأنه ليس لنفسه عنده حظ ولا لسواه وأكثر الناس له ملاقة والكثرة نسبة أكثرهم بأموره مع الخلق ارتباطاً بيد أنه ليس له

دقيقة بعد اللازم معه وغلمانه الخدام إنما يقربونه من وراء حجاب اللهم إلا أن يكون معهم في خدمة أحوته إلي البروز فيبرز ولكن في شغله الشاغل من التلاوة والكتابة ويتخللها ملاطفة بالمواعظ الحسنة والإنفاق السايغ بالأطعمة الطيبة والأشربة اللذيذة ويذكر معها بالله تعالى ويشكره علي آلائه وكثيرا ما يقول عندها انووا بها التقوى علي العيادة وإصلاح السريرة بأداء الشكر.

ومن عجيب أمره أنه ما كان يسوء أحدا من قومه احتجابه لمعرفة أنه ما احتجب لحظ دنيوي لنفسه أو لغيره إنما هو فيما بينه وبين ربه تعالى كما كان يقول {من أرضى الخلق بإسخاط الخالق أسخط الخالق عليه الخلق ومن أرضى الله تعالى بإسخاط الخلق رضي عنه رب الخلق} قلت هو شاهد حق علي ما قال فآيات صبره رضي الله عنه ما كان حديثا يُفتري صبره في البلايا والمصائب وصبره علي النوائب وصبره عما لا يعني قولا وفعلا وصبره في العوافي من عدم الشهوة فيها وعدم الغفلة [296] عن وضعها في مواضعها وصبره في حاجات المسلمين وحمل أثقالهم واعتناؤه بهم وهدايتهم وشفقته عليهم وانتشاله لضعفائهم وما أكثرها من أحوال **سفاسفهم** وخصخاض جهالتهم ورفع عنهم ثقل أعباء عيالاتهم وإنقاذه لمرمليهم ودوامه علي الصراط المستقيم واستقامته علي الدوام واستمرار عمله علي المنهج الأقوم وتوفيته لكل وقتٍ حقه علي الكمال وتوقيفه حياته علي عبادة الله تعالى وخدمة رسول الله صلي الله عليه وسلم وإحياء شعائر الإسلام ورفع منار القرآن تعظيما وإجلالا وتلاوة وتدبيرا والجمع عليه والتربية به ونشره بالدرس والاستكتاب وقيامه وترتبه للإمامة في

صحة ومرض وصبره في الأمراض والأوجاع الكثيرة
وتساهله عنها حتى لا تعرّف إلا بما يتأثر به الطبعُ
البشريُّ من غير اشتكاء ولا تداوٍ إلا بالقرآن والسنة
والتوسل إلى الله تعالى بما يظهر لك عند مقام
التوكل إن شاء تعالى كل هذه أمور خارقة للعادة فائتة
للعقول ولا شيء من آيات الله أدل علي قدرته وإرادته
مما ظهر في هذا {الشيخ} ولا أشنع علي من لا يبّهت
عند التفكير في أمره لإيقاني أنه لم يقف عليه كما
وقفت ولم يعتبر كما اعتبرت فهو معذور من جهة
فلسان حال كل من عرفه يُنشد بيت {الشيخ سيديَّ}
رضي الله عنه فيه. [297]

اللهم يا من أنعمت عليه وأنعمت به وحفظته وحفظت
به ورفعته ورفعت به وبوأته مبوأ صدق عندك
واستأثرت به في مقعد صدق عند مليك مقتدر أوزعنا
شكر نعمتك التي أنعمت علينا واجزه عني وعن أمثالي
وعن الإسلام خير جزاء اخترته ورضيته له واحشرنا في
زمرته واخترنا لرفقته في الرفيق الأعلى يوم يُدعى
كلُّ أناس بإمامهم واجعلنا أئمة هدى علي منهجه
صراطك المستقيم واجعلنا شهداء خير له بين يديك
ويدي رسولك مخدميه صلي الله عليه وسلم عندك مع
الملائكة الأعلى وآله عليه وعليهم الصلاة والسلام
وصحابته الكرام واغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين
والمسلمات الأحياء منهم والأموات إنك مجيب
الدعوات.

تم الجزء الأول هنا بحمد الله تعالى ونرجو من فضله
تعالى وعونه إتمام الجزء الثاني وأوله مقامُ شكره
رضي الله عنه وعنا به أمين يا رب العالمين

بعون الله وحسن توفيقه تم الجزء الأول من {منن
الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم} الذي كتبه من
نسخته الأصلية القديمة إلي النسخة العصرية الحديثة
المريدُ الحقير عبد القادر مبكي ابن السيد شيخ أحمد
ميمونة الكبرى مساء الأحد السادس عشر من شهر
ربيع الثاني عام زكتش 1427 هجرية الموافق للرباع
عشر من مايو سنة ألفين وست 2006 ميلادية طالباً
من الله تبارك تعالي أن يتقبله منا
فكل من نظر فليدع لنا بخير ما يدعى لعبد
أحسننا